





مواعظ

سيادة المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت
الكلي الشرف والاحترام

في الصوم سنة ١٨٧٥



طُبع بالمطبعة [illegible] في بيروت بنفقة الخواجه رزق الله ميخائيل خضرا سنة ١٨٨٠

الموعظة الاولى

القاها في عيد القديس مارون الانبا الواقع في ٩ شباط سنة ٧٥ في قداسة القديس مارون وكون الايمان وحده لا يكفي للتبرير والخلاص بل يلزم الاعمال الصالحة وفي الحث عليها

ان الذين يستسيرون حسنًا يكتسبون لنفوسهم مرتبة صالحة واسفرار وجه كثيرًا في ايمان يسوع المسيح . تيموتاوس ص ٣ عد ١٣

قد صعدنا والحمد لله الى هذا المنبر نودي فروض وظيفتنا الرعائية في هذه السنة الرابعة لاسقفيتنا في ايام موسم النفس ايام الصوم المبارك التي كرستها الكنيسة المقدسة لنعمل بها عمل خلاصنا ونهتم بنفسنا كاهتمامنا بجسدنا على الاقل ونستمع فيها كلام الله ونعمل بهِ . ولما كان الله قد دعاني بنعمته ومشيئته القدوسة الى رعاية نفوسكم والقى على مناكبي الضعيفة اعباء الاسقفية الثقيلة خاصة في هذا العصر فلم يكن لي بدٌّ ولا مفر من القيام بفروض وظيفتي بحسبما يخولني من القوة من يقوي الضعيف على كل شيء بقوته ومن بدونه لا يمكننا ان نصنع شيئًا وعليه فقد عزمت ان القي على مسامعكم خطبي في مساء كل احد وعيد في مدة هذا الصوم مبتدئًا من هذا المساء وذلك بحسب العادة في كنيستنا هذه . اما الاسلوب الذي عزمت على ان اسلك فيه هذه السنة فما هو الاَّ مواصلة اسلوب كلامي في السنين الثلث السالفة لاني رايته لازمًا ومرضيًا لكم وهو اقامة البراهين العقلية والكتابية على اخص الحقائق

الدينية ملحقاً بها بعض الارشادات الروحية الادبية توطيداً لهذه الحقائق في عقول السامعين وطلباً للعمل بمقتضاها فان الاعتقاد بها كالاساس والعمل بها كالبناء عليه وكذا يكون بناء بيتنا الروحي آمناً سالماً لا نقوى ان تزعزعه عواصف تعاليم الكفر ولا امطار كلام الاراطقة والمنشقين ولا جريان انهار الاثم المستحوذة في هذا العصر هذا ولما كانت الكنيسة المقدسة جعلت لنا هذا النهار عيداً نكرم بهِ القديس مارون الانبا ابا طائفتنا المارونية وشفيعها واليه تنسب كان حسناً ان تكون بداية كلامي في هذا المساء بيان فضائله السامية وفعاله الصالحة ثم انتقل من ذلك الى بيان كون الايمان وحده لا يكفي لتبرير الانسان وخلاصه بل يلزم لذلك الاعمال الصالحة ايضاً مقيماً على اثبات ذلك برهانات عقلية وبينات وشهادات كتابية ثم اختم كلامي بالحث والتحريض لكم على الاقتداء بفضائل القديس مارون ابينا والجد في عمل الفضائل نظيره ولاسيما في هذه الايام المقدسة فاصغوا على عادتكم الحميدة واستمدوا من ابي الانوار نعمة التنوير لي ولكم ليكون كلامي نافعاً لكم مكللاً بالفوز في ما قصدته منه

القسم الاول

ان الذين يستسيرون حسناً يكتسبون لانفسهم مرتبة صالحة واسفرار وجه كثيراً لاشك ان خير من صدق عليه كلام الرسول الالهي هو القديس مارون ابو طائفتنا ففي خطبتي نهار عيد القديس يوحنا

مارون سنة ٧٢ استطردت الى شيء من الكلام على القديس مارون لان القديس يوحنا مارون من تلاميذه ورهبان ديره وينسب اليه والان اتم كلامي في بيان فضائله لا كما تستوجب وتقتضي بنفسها بل على قدر ما يمكني عجزي ورغبتي في ايجاز التعبير عنها فاقول

ولد القديس مارون في اواسط الجيل الرابع للمخلص في جهات انطاكية من والدين مومنين بارين فرياه تربية حسنة وارضعاه لبان التقوى مع الحليب ومنذ صباه عشق الفضيلة والتعبد والتهجد وعكف على الصلوات والتاملات والتورع وفاق اقرانه في احتقار الدنيا وكراماتها وغناها وملاذها ووضع نصب عينيه الانفراد عن العالم والاقبال على عبادة الله والاشتغال بتمجيده دون سواه فشب وشبت فيه هذه الفضائل واضرمت بقلبه نار محبة الله والغيرة لمجده فلم تكن تبرح ساعة من وقته الاّ ويصرفها لمجد الله ولم يمض يوم من عمره الاّ ويتقدم فيه بالنعمة والكمال حتى اضحى وهو يافع في السن قدوة يقتدى بها ومثالاً لاهل الصلاح والعبادة وقد درس بعض العلوم الاّ ان جده وانكبابه على الصلوة كان اكثر منهما على العلم وما زال كذلك الى ان هاجر اخيرًا العالم والاهل والاقارب والاصدقاء وكل مقتنى وانفرد زاهدًا منقطعًا في احدى مغائر جبل قورش مثابرًا على النسك والامساك والتهجد صارفًا نهاره وليله في العبادة والصلوات اللفظية والتاملات العقلية متطلبًا في كل دقيقة الزيادة في مجد الله الخارج والتقدم في الكمال متوسلاً الى الله بالدموع السخينه ليلهمه ما به مرضاته وتكريمه

باعظم تكريم فسر الله بعمله واراد ان يكون له امثال كثيرون يستسيرون حسنًا نظيره ويتقربون اليه بالزهد والتقشف كما تقرب القديس مارون فيكسبون كما كسب من المرتبة الصالحة السامية فالهمه ان يؤسس رهبانية يضم فيها كثيرين تحت لوائهِ ويكون قائدًا لمعسكرهم في المدافعة عن ايمان بيعته المقدسة وفي الاشتغال بكرم الرب والانكباب على الصلوات وتجميل نفوسهم بحلى الفضائل وتخليص نفوس اهل العالم من الضلال والاثم بمثال سيرتهم الحسنة وبارشادهم وتبشيرهم وتعليمهم فاخذ القديس مارون يستدعي اولاً رفقاه في العالم الذين كان قد عهد فيهم الفضائل والتقوى والمحبة لله وللقريب والغيرة على مجده تعالى وخلاص النفوس ثم شرع هو ورفقاؤه يستدعون آخرين وتم مسك قداستهم وحميد سيرتهم فقاد اليهم كل فضيل في تلك الديار ثم انتشر عرف صيتهم في الاقطار فتقاطر في طلب الانضمام اليهم رجال من كل صقع وتراكضت النساء التقيات الى القديس مارون يسالنه ان يعني بامرهن ويقبلهن تلميذات له فاسس لهن رهبانية على حدة بمعزل عن الرهبان واشتهرت فضائلهن وقداستهن فاصبحن في زمن قليل كثيرات بحيث انهُ ما وخط الشيب القديس مارون الا ورأى تلك البرية التي دخلها ولم يكن فيها من انيس موعبة جمًا غفيرًا من الرهبان والراهبات واضحت جنة نبتت فيها زنابق الفضائل وبسقت فيها اشجار الاعمال الصالحة تودي ثمرة مجد الله وخلاص النفوس وبالجملة اصبحت ماهولة في كل جزء منها بقديسين وقديسات بعد ان

كانت قفرًا لا ساكن فيها غير وحش الفلا وطير السماء وعليه فقد صار القديس مارون موسسًا للرهبانية في سوريا كما كان القديس انطونيوس الكبير موسسًا لها في مصر

واتفق انهُ كان في الجبل حيث زهد هيكل للاصنام فجعله معبدًا للاله الحق وكان يصرف فيه مع رهبانه اكثر اوقاته ويصرف ما تبقَّى منها في زيارتهم والتفقد لاحوالهم مشجّعًا اياهم على الاجتهاد بالعبادة واستطراق طريق الكمال الضيق والصبر على المحن معلمًا اياهم مقاومة التجارب وتحمل المشقات والمصاعب حبًا بالله وتسلية الحزانى وعيادة المرضى منهم وكان جده المخصوص ليضرم فيهم نار الغيرة في المدافعة عن الايمان الصحيح ضد الكفرة والمبدعين وفي تخليص النفوس بمثالهم وارشادهم الى غير ذلك من المناقب والفضائل التي ملأ الخافقين ذكرها وعطر الاكوان نشرها فكتب اليه القديس يوحنا فم الذهب رسالة من منفاه يفتقده بها ويساله الدعاء لهُ والصلوة لاجله ويحقق لهُ المحافظة على صداقته وهي السادسة والثلاثون من رسائل فم الذهب وقد ذكرها مترجمة بعض علمائنا وصار لهُ تلامذة كثيرون اشتهروا بالفضل والقداسة والعلم والعجائب غربًا وشرقًا فبعضهم اشتهر في حيوة معلمه وبعضهم بعد موته ومنهم زابينا الشهير ويعقوب وليميناوس ويوحنا وموسى وانطونينو ومن الراهبات القديسات دومينا البارة وكوره ومارانا وغيرهن وقد ذكرت بعضهم في خطبتي المشار اليها آنفًا وذكر كثيرين منهم العلامة تاودوريتوس في كتابه تراجم القديسين. ومن

تيسر له منكم مطالعة كتاب نسبة الموارنة للعلامة بطريركنا اسطفانوس الدويهي الاهدني وجد ترجمة القديس مارون مطولة مع ترجمات كثيرين من تلاميذه وذكر العجائب التي صنعها الله على يده وبالجملة كان القديس مارون وتلامذته اعمدة للايمان الكاثوليكي المقدس (كما سماهم كثير من المؤلفين) واخص المناضلين عنه والمقاومين لاعدائه المبتدعين كنسطور واوطاخي وبرصوم ويعقوب البرادعي واصحاب القول بالمشيئة الواحدة وكان جل دفاعهم عن رسوم المجمع الرابع التيبلي الذي هو المجمع الخلكيدوني خلافاً لمن قالوا بطبيعة واحدة بالمسيح . ورسائلهم الغراء في محاماة الايمان القويم الموجهة الى الحبر الاعظم وملوك القسطنطينية والى البطاركة والاساقفة في المشرق ما برح كثير منها معلقاً في اعمال المجمع المسكوني الخامس وهو القسطنطيني الثاني ولم يكونوا يهابوا الملوك انفسهم في المدافعة عن الحق والمناضلة عن الايمان ولذلك جميعه قد نسب اليهم (اي الى القديس مارون اولاً ثم الى تلاميذه) جميع السريان الذين ثبتوا في سوريا بارشادهم وتعليمهم مستمسكين بعرى الايمان الصحيح ودعوا موارنة نسبة اليهم وهذه كانت بداية تسميتنا بهذا الاسم بعد ان كنا ندعى سرياناً كاثوليكيين آمن اجدادنا بالمسيح في ايامه وايام الرسل وما برحوا على ايمانهم الصحيح بنعمة الله الى اليوم . على ان مدافعة القديس مارون ورهبانه عن الايمان الروماني المقدس خلافاً للمبدعين والاراطقة والملوك الغاوين بضلالهم ايضاً قد اثارت غضب هولاء وحنقهم عليهم فانزلوا بهم

نوازل شتى واجروا عليهم اضطهادات لا تقدر ومن جملتها ان ساويروس الملك الاراتيكي المتعصب للمبدعين قتل منهم دفعة واحدة ثلاثمائة وخمسين راهباً ففازوا باكليل الشهادة والكنيسة اللاتينية تعيد لذكرهم كما نعيد نحن في الحادي والثلثين من شهر تموز كل سنة واخرب واحرق كثيراً من اديرتهم الاَّ انها رمِّمت لهم في ايام الملك يوستينيانوس الاول

ولنعد الى الكلام في القديس مارون فهو بعد ان رقي اعلى درجة من سلم الكمال وشرفه الله بصنع العجائب على يده فانهُ كان بصلاته يشفي المرضى ويطرد الشياطين من المعتريين اراد الله ان ينيله اجر اتعابه والشرف الخالد بين اصفيائه فتوفاه في اوائل القرن الخامس وبوأ نفسه الاخدار السموية فازدحمت الناس حول جثته للتبرك والتكريم والاستشفاع بهِ ففعل الله بواسطته حينئذٍ عجائب كثيرة فاختصم الناس على مكان دفن جسده المبارك فخطف اهل حماه ذلك الجسد الذي هو افضل من كل كنز نفيس (كما قال تاودوريطوس في ترجمته) فدفنوه الى شاطي العاصي بين حمص وحماه وشيدوا على اسمه هيكلاً كبيراً وشرعوا من ذلك الوقت يعيدون لهُ عيداً حافلاً كما روى تاودوريطوس ايضاً الذي رقي اسقفية قورش بعد نحو عشرين سنة فقط من وفاة القديس مارون ثم بُني حذاء هذا الهيكل دير على اسم القديس مارون في الرستن فتسامى هذا الدير وسكانه بالاعتبار في سوريا كلها حتى لُقب بدير الباور. ثم في اواخر القرن السابع نقل

القديس يوحنا مارون هام القديس مارون معلمه من ديره على العاصي الى الدير الذي شيده على اسمه في قريه كفرحي حيث هي الان المدرسة المعروفة بمدرسة مار يوحنا مارون . وفي سنة ١١٣٠ نقل بعض الافرنج هذا الهام المبارك الى مدينة فولينيو في ايطاليا وشيد فيها كنيسة على اسمه وما برح جزء من هذا الراس محفوظاً في هذه الكنيسة الى اليوم تعطى منه ذخائر . وعندما كان بعض اساقفة طائفتنا في رومية في المجمع الفاتيكاني قدم لهم مطران فولينيو قصة نقل هذا الهام الى كنيسته مع ترجمة القديس مارون نقلاً عن دفتر الاثار القديمة في هذه الكنيسة فاذا كل ذلك مطابق لما عندنا من التقليد بهذا الشان واهداهم بعض الذخائر من راس ابيهم . هذا عدا ما ذكره موءرخو ذلك العصر نفسه عن نقل راس هذا القديس الى فولينيو . وقد اعتبرت الكنيسة الرومانية والاحبار الاعظمون دائمًا مارون الانبا قديسًا ومنح البابا اكليمنضوس الثاني عشر في ١٥ نيسان سنة ١٧٣٤ غفرانًا كاملاً يغنمه من زار كنيسةً من كنائس رهبان طائفتنا يوم عيده ثم عمَّ البابا بنديكتوس الرابع عشر في ١٢ آب سنة ١٧٤٤ هذا الغفران لكل من زار احدى كنائس طائفتنا اينما كانت يوم عيده ولهذا البابا العلامة رسالة مسهبة بعث بها الى نيقولاوس لركاري يثني بها على فضائل هذا القديس السامية ويبرهن على قداسته ببرهانات قاطعة وشواهد معدَّلة عديدة

القسم الثاني

لو سمع لوثاري ما رويته من فضائل القديس مارون لقال لِمَ هذا التلف ولِمَ هذا التعب والجهاد كله فكان يكفي لتبرير القديس مارون ولاكتسابه مرتبة صالحة لنفسه في السماء ان يومن الايمان الصحيح بان الله واحد بثلثة اقانيم وان الاقنوم الثاني الذي هو الابن نزل من السماء وتجسد وافتدانا الى غير ذلك من العقائد الدينية القليلة فقط ولا حاجة الى امتلاك الفضائل وعمل الاعمال الصالحة لنوال اسفرار الوجه امام الله والخلاص فالايمان وحده يكفيه وبالتالي ان الاستسارة الحسنة والجهاد حبًّا بالله والمثابرة على الصلوات والاعمال الحسنة لا حاجة اليها البتة بل ان جميع اعمال الابرار الصالحة خطايا والبار ياثم كل ما عمل صالحًا فيكون الحاصل على زعم لوثاروس ان كل ما عمله القديس مارون من الفضائل والصلوات والاماتات والنسك والاصوام والتاملات الروحية وتحمل المحن وما اشبه ليس هو فضلة فقط بل هو باجمعه اثام وما قاله مار بولس من ان الذين يستسيرون حسنًا يكسبون لانفسهم مرتبة صالحة فقد اراد بالاستسارة حسنًا ارتكاب الخطايا والمآثم لا عمل الاعمال الصالحة ولئلا يرتاب احد او ينكر ان لوثاروس علم هذا التعليم السقيم وزعم هذا الزعم الفاسد نورد الفاظ لوثاروس نفسها بهذا المعنى تاكيدًا لقولنا ثم ناتي الى تفنيد هذا الضلال الفظيع ليظهر من ذلك كون الايمان وحده لا يكفي

للخلاص وكون الاعمال الصالحة لازمة ايضاً له ويلزم ان نقتدي بابائنا القديسين في صنعها

فقد قال لوتاروس في تفسيره الاصحاح الثاني من رسالة غلاطية ،، حيث يُعلّم ان الايمان يبرّر ولكن يلزم حفظ وصايا الله ايضاً . . . فهناك انكار المسيح وابطال الايمان حالاً اذ ينسب لوصايا الله وسنته ما يخص الله وحده ،، وقال في التفسير المذكور ايضاً (صفحة ٤٦ من النسخة التي طبعت في ويتمبرج) ان الايمان وحده يبرّر . . . وليس الايمان المتضمن المحبة ،، الى ان يقول ،، لو صح ان الايمان لا يبرر خلواً من المحبة لكان لا نفع للايمان ولا قوة له ،، وقال في القضية الثالثة من المجلد الاول من تاليفه ،، ان الايمان لا يبرر بل لا يكون ايماناً ما لم يكن دون الاعمال بالكلية ولو زهيدة ،، وقال في كتابه في سبي بابل ،، وهكذا ترى ما اغنى الانسان المسيحي فانه لا يستطيع ولو اراد ان يفقد الخلاص باية خطية كانت الاّ اذا لم يشأ ان يومن فلا يستطيع شيء من الخطايا ان يهلكه الاّ عدم الايمان ،، وقال في رسالته الى ملنطون ،، كن اثيماً واقترف خطايا كبيرة ولكن اومن ايماناً قوياً وافرح بالمسيح الذي انتصر على الخطية والموت والعالم بل يلزم ان نخطي ما دمنا في هذه الحيوة فان هذه الحيوة ليست موطن البر بل ننتظر كما قال بطرس سماء جديدة وارضاً جديدة يحل بها البرّ ويكفينا ان نعرف . . . حمل الله الرافع خطايا العالم والخطية لا تبعدنا عن هذا ولو ارتكبنا الفحشاء او القتل الف مرة في النهار اتظن شيئاً زهيداً الثمن

والفداء الذي قدمه هذا الحمل العظيم عن خطايانا ” فهل اكثر صراحة من هذه العبارات لايضاح زعم لوتاروس المنوه به

وهوذا الفاظ لوتاروس وغيره من اتباعه بالمعنى الثاني اي ان الاعمال الصالحة خطايا قال لوتاروس في مجلد ثانٍ من تاليفه صفحة ٣٣٥ „ ان العمل الصالح المصنوع حسنًا هو خطية عرضية . فهذه القضية تنتج نتجًا صريحًا من الاولى الا انهُ ينبغي ان يزاد عليها ما قلته في محل آخر مسهبًا وهو ان هذه الخطية عرضية لا بطبعها بل من قبل رحمة الله . . . فان كل عمل من البار هو اهل للشجب وخطية مميتة ان حكم عليه بحكم الله ” وقال ملنطون في المعادن اللاهوتية صفحة ١٦٨ „ واما الاعمال التي تتبع التبرير فهي نفسها نجسة لحصولها في جسد ما برح دنسًا وان صدرت بروح الله الذي يشغل قلوب المبررين ” وقال في صفحة ١٥٨ „ قد علمنا اننا نتبرَّر بالايمان وحده . . . ان اعمالنا واجتهادنا ليست الاَّ خطية ” وقال كلوينوس في ك ٣ من رسومه راس ١٢ فصل ٤ „ ان من يبحثون عملاً كانهم امام الله عن قاعدة البرّ الحقيقية يعلمون بلا ريب ان اعمال الناس جميعها ادناس واقذار ان أُعتبرت بحسب رتبتها وما يعتبره عامة الناس برًّا فهو عند الله دنس مجرد وما يظنونه كمالاً فهو رجاسة وما يسمَّى مجدًا فهو خزي وعار ” وقال في درياق المجمع التريدنتيني مجلس ٦ „ لا ينبغي ان يزعج من يقولون ان الاعمال الصالحة تستحق الهلاك لاجزاء الحيوة ان نُظر فيها نظرًا مدققًا ”

فهذا ما قاله من ادّعوا ومن يدعي اتباعهم انهم مصلحو العالم واني على يقين من ان مجرد ذكر اقوالهم على سماعكم هو اكبر مفند لتعليمهم ويشمئز منه كل سامع لم يفقد شعائر الدين و يرى فيه نوعًا من الهذيان فكيف يمكن الايمان وحده ان يبرّرنا ويخلصنا ولو ارتكبنا الفحشاء والقتل الف دفعة في النهار فما نفع وصايا الله وتكرار المسيح لها في انجيله . وان كانت الاعمال الصالحة خطايا فماذا يبقى الاَّ ان تكون الخطايا اعمالاً صالحة فاي ذي عقل سليم ولا اقول اي موءمن يسلم بذلك . فهذه الاعتبارات الموجزة تكفي موءنة الرد على زعم اخصامنا وموءنة اثبات تعليمنا الكاثوليكي بان الايمان وحده لا يبرّر وان الاعمال الصالحة ليست اثمًا بل هي لازمة للخلاص ايضًا على اننا لا نكتفي بهذا الايجاز الكافي بل نثبت مقصدنا بالبرهانات العقلية وآيات الكتاب وشهادات التقليد

ونورد اولاً على عادتنا البرهانات العقلية اللاهوتية فقولوا لي اولادي الاعزاء هل ترون ان المسيح اتى الى الارض ليمنع الكمال ويجل التراخي في حفظ الوصايا الالهية والطبيعية او اتى يعلم الناس الكمال ويشددهم في المحافظة على تلك الوصايا . وهل ترون انه تالم ومات وفاء عن الخطايا ودفعًا لها او تالم ومات ليملكها في العالم ويسهل للناس اقترافها فلا غرو انكم تجيبون بل يجيب كل موءمن وكل مطالع للانجيل بل كل ذي حسّ طبيعي ايضًا ان مصدر الكمال لم يات ليعلم الناس الرذائل بل ليعلمهم الكمال ويشددهم في حفظ الوصايا التي يأمر بها الطبع وسننه الالهية والازلية ولم يتالم ويمت الاَّ من جراء الخطية

ولكي يرجع الناس عنها والحال اننا لو قلنا ان الايمان وحده يبرّر الانسان ويكفيه مونة الخلاص دون حاجة الى الاعمال الصالحة وان لامضرة في الخلاص من قبل ارتكاب الخطايا فاين يبقى تعليم الكمال وكيف لا يتراخى الناس في حفظ الوصايا ولا ينفتح سبيل رحب وسيع للمأثم وكيف لا يكون موت المسيح ووفاؤه لا لتقليل الخطايا بل لتكثيرها باطلاقه للناس عنان شهواتهم ورغباتهم وباخفاضه اعتبار الفضائل والتسامح في الرذائل فمن يصدق بل من يخطر له على بال ان المسيح مات ليجعل للناس جراة على ارتكاب الخطية اكثر من ذي قبل وليقترفوا الاثم مطانين على الخلاص ولو تمرغوا بحماة الرذائل بحيث لا يزيغون عن الايمان وهو القائل ما اضيق الباب واكرب الطريق المودي الى الخلاص فلو صح زعم لوناروس فاين الضيق في الباب او الكرب في الطريق ويكفي الانسان مونة خلاصه مجرد اعتقاده الفكري . والمخلص هو القائل ايضًا ان ملكوت السماء يُغصب والغاصبون يختطفونه فاين الغصب ممن لا يحتاج الى قهر امياله ولا الى قمع شهواته بل يكفيه ان يعتقد ان المسيح ابن الله وانه تجسد والم ومات من اجله . وابرهن بنوع آخر ان كان الايمان وحده لازمًا للخلاص فلمَ هذا الحشو كله في العهد الجديد من ذكر وصايا واوامر ونواهي وتهديدات للمخالفين بل حكم عليهم بالعذاب المويد لانهم اهملوا اعمال الفضائل كاطعام الجياع واسقاء العطاش واكساء العراة الخ فاذا اقلّ تبصر في هذا الامر يبين كون زعم لوناروس هذا مستحيلاً ومنافيًا الكتاب

المقدس على خط مستقيم

واما من برهانات الكتاب فنورد اولاً البرهان السلبي الذي اورده العلامة الكردينال بلرمينوس (في ك ١ من التبرير راس ١٦) وهو ان لوتاروس ومن تابعه يتفاخرون كثيرًا بالتمسك بعرى الكتاب المقدس ولا يريدون ان يعرفوا ينبوعًا غيره للحقائق الدينية فعليهم اذًا ان يبرهنوا لنا بآية من هذا الكتاب تصرح ان الايمان وحده يكفي للتبرير والخلاص فان وجدت آية تصرّح بهذا اعتقدناه لا محالة على انهم حتى الان ما استطاعوا ولا يستطيعون ان يوردوا نصًّا يبين كون الايمان وحده كافيًا للتبرير والخلاص. وكلمة وحده التي زادها لوتاروس في الترجمة الجرمانية على قول الرسول (رومية ص٣ عد٢٨) ان الانسان يتبرر بالايمان لا وجود لها في احدى النسخ اليونانية او اللاتينية البتة حتى لم يستطع هو نفسه ان ينكر زيادته تلك الكلمة اذ طولب بها بل قال „ هكذا اريد وهكذا آمر فلتكن ارادتي موضع البرهان“ اما نحن فنقول وفقًا للكتاب المقدس ان الانسان يتبرر بالايمان ونبرهن بايات هذا الكتاب نفسه ان الايمان وحده لا يبرر الانسان وبرهاننا على ذلك قاطع واضح مصرح في الكتاب المقدس حتى لا يمكن ان يكون شيء اكثر توكيدًا منه وقد اوردت في خطب اخرى بعض البرهانات لهذه الحقيقة واورد بعضها الان ايضًا

فمن الايات التي هي نص في اثبات مقصدنا قول مار يعقوب الرسول في ص ٢ من رسالته عد١٤ „ ما المنفعة يا اخوتي ان قال

احد ان لهُ ايمانًا وليس لهُ اعمال اترى الايمان يستطيع ان يخلصه „ فكيف يكون التصريح ان كان هذا ليس تصريحًا بما نحن لهُ مثبتون وهل يمكننا ان نقول نحن في هذه الايام ما هو اكثر صراحة بهذا المعنى اذا اردنا نصرّح بهِ وقد زاده مار يعقوب تصريحًا بقوله عد١٧ „ ان الايمان اذا كان دون اعمال كان ميتًا بنفسه „ وقوله عد ٢٤ „ ارأيتم ان الانسان يتبرر بالاعمال لا بالايمان وحده „ وقوله عد ٢٦ „ كما ان الجسد من دون الروح ميت هكذا الايمان من دون الاعمال هو ميت „ ولهذا لا يمكنه ان يفعل شيئًا ولا ان ياتينا بثمرة خلاصية وهذا واضح حتى لم يجد لوتاروس مفرًّا من وضوحه فانكر كون رسالة مار يعقوب من الاسفار المقدسة مع ان كلوينس سلّم بانها منها واللوتاريون المتجددون انفسهم يعترفونها من الاسفار المقدسة ولا يسقطونها من عددها حتى قال احدهم بوداوس (في رسوم اللاهوت الاعتقادي ك ٤ راس ٤) „ ان الواضح الان عند الجميع ان يعقوب الرسول مولف هذه الرسالة وان شهادته الهية „ ونعدل عن الاستشهاد بالاباء القديسين والعلماء الكاثوليكيين لاثبات كون هذه الرسالة من جملة الاسفار المقدسة على اننا لسنا نبرهن هذه العقيدة من رسالة مار يعقوب وحدها بل من ايات اخرى ايضًا كثيرة من باقي الاسفار المقدسة

ان مار بولس نفسه الذي يتفاخر اعداؤنا باستشهاده لتعليمهم علّم ما بينهُ وبين قول مار يعقوب الطباق التام اذ قال رسول الامم „ ليس الذين يسمعون الناموس ابرارًا امام الله بل العاملون بالناموس

يتبررون ،، رومية ص ٢ عد ١٣ يعني انهُ لا يتبرر من سمع الناموس او علمه او اعتقده الهيًّا بل يتبرر من عمل بالناموس وحفظ وصاياه وسلك بمقتضاها . وقد قال هذا الرسول ايضًا ،، لو صار فيَّ الايمان كله حتى انقل الجبال ولم تكن فيَّ المحبة فلست بشيء ،، (قرنتية اولى ص١٣ عد ٢) فيشير الرسول الى قول المخلص (متى ص١٧ عد ١٩) ،، لو كان فيكم ايمان كحبة الخردل وقلتم لهذا الجبل انتقل من هنا لانتقل ،، ومع ذلك يشهد بان الايمان العظيم بهذا المقدار لا يفيد شيئًا في خلاص النفس ان كان خاليًا من المحبة ام سائر الاعمال الصالحة نعم قال الرسول في محال اخرى ان الايمان يبرر لكنه يريد بهِ الايمان الحيَّ المقترن مع غيره من الاعمال الصالحة ومع العزم الثابت على حفظ الوصايا الالهية اعني المقترن مع المحبة وقد صرَّح بذلك في قوله (غلاطية ص ٥ عد ٦) ،، واما في يسوع المسيح فلا يفيد الختان شيئًا ولا الغرلة بل الايمان الذي يفعل بالمحبة ،، فكانه يقول لا منفعة في الدين المسيحي نظرًا الى الخلاص لكون الانسان مختتنًا او اغلف بل المنفعة للايمان وليس للايمان وحده مجردًا بل لهُ مكملًا بالمحبة وحيًّا وفاعلًا بها حفظ الوصايا وصنع الاعمال الصالحة

ولنسمع مَن ارسل من حضن الاب ليعلم المسكونة طريق الخلاص فلم نره البتة قال ان الايمان وحده يخلص بل نراه لما سأله ذلك الشاب ما الذي اعمله لارث الحيوة الابدية اجابه ان شئت ان تدخل الحيوة فاحفظ الوصايا لا ان تومن فقط ونراه يصور نفسه يوم الدينونة

مقضياً بالهلاك المؤبد على الاشرار لا لانهم لم يؤمنوا بل لانهم لم يعملوا الاعمال الصالحة اذ يقول اذهبوا عني ياملاعين الى النار الابدية لاني جعت فلم تطعموني وعطشت فلم تسقوني الخ بعد ان يثيب الابرار لانهم صنعوا هذه الاعمال اذ يقول هلمّ يامباركي ابي رثوا الملك المعد لكم من قبل انشاء العالم لاني جعت فاطعمتموني الخ ونراه ايضاً يقول ليس كل من يقول لي يارب يارب يدخل ملكوت السماء بل من يعمل ارادة ابي الذي في السماء يعني لا يكفي لدخول الانسان السعادة وفوزه بالخلاص ان يؤمن لي ويدعوني ربه وفاديه بل يلزمه ان يعمل ايضاً ارادة الله بحفظ وصاياه . نعم قال المخلص لبعض من ابرأهم من امراض او عاهات ايمانك خلصك لكن المراد بذلك ليس الايمان المبرّر بل المعنى ان ايمان اولئك المستومين بكون المسيح ابن الله وقادراً ان يشفيهم جعلهم يتخلصون من امراضهم وهذا واضح وبيّن بواقع الحال ولو افترضنا ان المراد بذلك الايمان المبرّر والمسبب الخلاص الابدي فلا ينفي ذلك الاعمال الصالحة ولا يوجب الحصر بان الايمان وحده خلص اولئك وما من ناكر ان الايمان هو الاس والاصل الاول للتبرير والخلاص

واذا احببتم ان تسمعوا شيئاً مما قاله باقي الرسل بهذا المعنى فاسمعوا مار بطرس زعيم الرسل يقول (في رسالته الثانية ص ١) «اجتهدوا يا اخوتي ان تحققوا دعوتكم وانتخابكم بواسطة الاعمال الصالحة» فاذاً لا يكفي الانسان للبرّ والخلاص ايمانه بان خطاياه غفرت له باستحقاق

المسيح وانه مدعو الى السعادة بل يلزم ان تقترن مع الايمان افعال الفضائل والاعمال الصالحة لتحقق دعوة الانسان للسعادة ويفوز بالخلاص . واسمعوا ايضًا ما يقول مار يوحنا الرسول (في رسالته الاولى ص ٣ عد ٧) "يا بنيَّ لا يطغينكم احد فان من يصنع البرَّ فهو بار" فاذًا للفوز بالبر والخلاص لابدَّ من صنع البر والاعمال الصالحة ولا يكفي الحصول على الايمان وحده

ومن البرهانات على صحة هذه العقيدة كون بعض علماء البروتسطنت انفسهم قد ساءهم زعم لوتاروس ان الايمان وحده كافٍ للتبرير والخلاص فانكروه عليه وخالفوه بهِ وحملهم على ذلك وضوح ايات الكتاب والبرهانات اللاهوتية الناقضة لزعمه . فمن جملة هولاء العلماء هو غس كروسيوس فانه لدى تفسيره رسالة مار يعقوب القانونية ص ٢ عد ١٤ يصور الانسان المتشبث بتعليم لوتاروس متكلمًا هكذا "ان اعمالي ليست بصالحة لكن ايماني قويم صالح ولهذا ليس خلاصي على شيء من الخطر" الى ان يقول "قد تجدد في هذا العصر التعيس ذلك الراي . . . الذي يلزم ان يخالفه كل من احب التقوى وخلاص القريب فان الايمان لا يفيد احدًا البتة خلوًا من العمل" وقال جيورجيوس بولس في توفيق كلام الرسول بشان هذا التعليم ما ترجمته "ان هذا التعليم هو عار وخزي من سنين عديدة لكنيسة المصلحين ولا يوجد تعليم يسخر بهِ البابويون او يتعقبونه بصرامة اكثر منه وليس ذلك دون الصواب فانهُ ضلال ليس بخفيف وغلط وخيم

وغواية في الايمان» وقال يوحنا جيرردوس (في كتابه في المعادن اللاهوتية مجلد ٧ وجه ١٨٤) ملطفًا هذا الزعم ليطابق تعليم الكنيسة الرومانية «« يلزم ان تعلم بتدقيق دفعًا لتهمات الخصوم ان لفظة وحده (من قولهم ان الايمان يبرّر وحده) لا تحصر المحمول كأن الايمان المبرّر يكون وحده منفصلاً عن المحبة وباقي الفضائل لان الايمان الحقيقي هو حيٌّ لا ميت وهو فعال بالمحبة لا مجرد عن الفعل وقال فرنسيس بوداوس (في تاليفه اللاهوت الاعتقادي ك ٤ راس ٤) ««ان فهم بالاعمال الصالحة تلك الحركات التقوية والصالحة التي من شان الندامة كمقت الخطايا والعزم على الفرار منها في ما بعد فلا ريب بوجود هذه الاعمال في الانسان المتبرّر وهي تتقدم الايمان فيه ... على ان هذه الاعمال تكون متحدة ابدًا مع الايمان وهي الرجاء والمحبة ولا يمكن الاّ ان تكون موجودة عندما يتبرر الانسان وان لم تساعد من احد الوجوه على التبرير» وقول هولاء العلماء من الواضح كثيرًا انهُ يخالف راي لوتاروس وزعمه كما قدمنا كلامه ويبعد كثيرًا عمّا في قوانين معتقدهم فيقرون اذًا مضمرًا ان لوتاروس ضل وعلم الكذب واذا كان الامر كذلك فنسالهم هل يقولون ان لوتاروس مرسل من الله لاصلاح الكنيسة او لا فان قالوا الاول قلنا كيف تجسرون اذًا ان تخالفوا تعليمه وتبتعدوا عنه وان قالوا الثاني اي انهُ غير مرسل من الله قلنا كيف تتركون اذًا بيعة الله المتلالئة فيها علامات الكنيسة الحقيقية بدعوى رجل انهُ مرسل من الله وليس كذلك وقد ضل في حقائق جوهرية

كلية الاعتبار

لابد ان ترغبوا في ان تسمعوا شيئًا من التقليد ومن كلام الآباء الاولين الذين كانوا قريبين من عصر المخلص ومن اعتقاد الكنيسة في الاجيال التابعة الى ايام المدعين الاصلاح فالبينات على ذلك لا تعد ولا تحصيها مجلدات لا اقول خطب فليس احد من المولفين الكاثوليكيين الا وفي كلامه حجج لهذه العقيدة وعليه فنجتزي برواية قليل من اقوال الآباء على سبيل المثل . قال القديس اغناطيوس في الرسالة الى اهل افسس « ان الايمان يجذبنا الى الله والمحبة طريق نقتادنا اليه تعالى » وقال القديس اكليمنضوس الروماني على رسالة فرنتية الثانية « اننا نصير ابرارًا بالاعمال لا بالكلام » الى ان يقول بعد ذلك « اننا نرى جميع الابرار كانوا متجملين بالاعمال الصالحة ومن حيث اننا امرنا بذلك فلنصنع بكل قوانا اعمال البر » وقال ايضًا بعد ذلك « طوبى لنا ايها الاحبا اذا عملنا بوصايا الرب باتفاق المحبة لتغفر اثامنا بالمحبة » وقال القديس يوستينوس الشهيد في خطابه مع تريفون مزدجرًا اليهود « ان ندمتم على خطاياكم وعرفتم من صلبتموه انه المسيح وحفظتم وصاياه فزتم بغفران خطاياكم » وقال القديس ايريناوس (في ك ٥ ضد الاراطقة راس ١١) « كما ان من تقدم الى ما هو احسن وصنع ثمار الروح يخلص في كل حال من شركة الروح هكذا من استمر في اعمال الجسد بحسب جسديًا لانه لم ينل روح الله فلا يمكنه ان يظفر بملكوت السموات فاذًا الاعضاء التي نهلك بها فاعلين ما هو للفساد بها نفسها

نحيي فاعلين ما هو للروح " وقال القديس كبريانوس (في كتابه في وحدة الكنيسة) " كيف يقول انه يؤمن بالمسيح من لم يصنع ما يأمر المسيح ان يصنعه " وقال القديس افرام السرياني (في خطبة ٨٠) " كما ان الجسد ينمو بقوة النفس الحيوية هكذا النفس وان ظهر انها صحيحة تكون ميتة خلوًّا من الاعمال فان حياتها تقوم بالاعمال الصادرة عن الايمان " وقال اوريجانوس (مقالة ٣٢ في متى) " ان من اقروا بالايمان بالمسيح ولم يستعدوا بالاعمال الصالحة للخلاص كانوا اشبه بالعذارى الجاهلات وقال القديس غريغوريوس النزينزي (خطبة ٤٠) " شيد على اساس العقائد الاعمال الصالحة لان الايمان دون الاعمال ميت كما ان الاعمال ميتة اذا لم يكن الايمان " وقال القديس امبروسيوس (في تفسير بشارة لوقا ص ١١) " لا تجعلنا الرغبة في الايمان ان نتقاعد عن الاعمال فان كمال الانسان المومن تتضمنه هذه العبارة الموجزة ليثبت بالايمان والاعمال قائلاً يلزم ان اصنع هذه ولا اترك تلك " وقال فم الذهب (في خطبة ٤٦ في متى) " اذا لم نسر سيرة لائقة بايماننا فنقع في العذابات الابدية " وقال في تفسير بشارة يوحنا (خطبة ٣١) " نقول هل يكفي اذًا ان تؤمن بالابن لتدرك الحيوة الابدية لا لعمري فاسمع المخلص موضحًا هذا المعنى بهذه الالفاظ ليس كل من يقول لي يارب يارب يدخل ملكوت السماء والتجديف على الروح يكفي للطرح في جهنم وماذا اقول من جهة المعتقد لانه وان احسن الانسان المعتقد بالآب والابن والروح القدس فاذا لم

بحسن سيرته فلا ينفعه الايمان بشيء لخلاصه ولا لخالق. ان قوله هذه هي حيوة الابد ان يعرفوك انك الاله الحق وحدك ان هذا يكفينا للخلاص فاننا نحتاج ايضًا الى تهذيب سيرتنا وخصالنا. وان قال من يومن بالابن فله الحيوة الابدية فلايحق لنا ان ننتج من ذلك ان الايمان وحده يكفي للخلاص وهذا توبيه اقوال الانجيل المتواترة الملاحظة السيرة الصالحة „ فهل اوضح من هذه الاقوال العسجدية او ما هي تفنيد لمذهب الابروتسطنت ورد على اعتراضاتهم قبل ان يوجدوا . وقال القديس ايرونيموس (في ك ٢ ضد يوفنيانوس) „ كما ان الجسد دون الروح هو ميت هكذا الايمان دون الاعمال هو ميت ولا نظن امرًا عظيمًا كوننا نعرف الله فالشياطين ايضًا تومن بهِ وترتعد ومن قال انهُ ثابت فيه يلزمه ان يمشي كما مشى هو „ وقال القديس اغوسطينوس (في كتابه في الايمان والاعمال راس ١٤) „ ان مار بولس لم يذكر اي ايمان كان يعتقد بهِ بالله الاَّ الايمان الخلاصي والانجيلي بالتمام الذي تصدر اعماله عن المحبة فانه قال الايمان الذي يفعل بالمحبة ولهذا اثبت ان الايمان الذي يظهر للبعض انهُ كافٍ للخلاص لا يفيد لشيء حتى انهُ قال (اي الرسول) لو كان فيَّ الايمان كله حتى انقل الجبال ولم تكن فيَّ المحبة فلست بشيء „ وقال في الكتاب المذكور راس ١٨) „ ان الايمان يمكن ان يوجد دون المحبة لكن لا يمكنه ان ينفع „ وقال القديس غريغوريوس الكبير (خطبة ٢٩ في الانجيل „ ربما يقول احد في نفسه اني قد امنت فاخلص فحقًا يقول اذا تمسك بالايمان مع

الاعمال لان الايمان الحقيقي هو ما لا يخالف الانسان بهِ بواسطة اعماله ما يقول بكلامه ›› ولولا خشيتي مللكم لاطلت في ايراد شواهد الآباء

فقد اتضح اذًا اولادي بالبرهان العقلي اللاهوتي وبآيات الكتاب الصريحة واقرار بعض الخصوم بالحق خلافًا لبعضهم وبشهادات الآباء القدماء ان الايمان وحده لا يكفي للتبرير والخلاص بل لابد من الاعمال الصالحة واما الزعم بكون هذه الاعمال الصالحة نفسها خطايا فلا يحتاج الى الردّ بل يكفي ذكره للاشمئزاز منه فضلاً عن كونه لا يقبله العقل السليم والريب بكونه قد وجد من المسيحيين المعتقدين الوحي من يقول بهِ اولى من الريب بصحته وقد اوردنا في بدء كلامنا كلمات من قالوا بهِ بنصها فلندعهم وما يقولون

القسم الثالث

ان الايمان وحده لا يكفي للخلاص لا بالمعنى الاعتقادي فقط بل بالمعنى الفعلي والادبي ايضًا اي لا يكفينا ان نعتقد هذه الحقيقة نظريًا ونخالف لوتاروس بها فقط بل يلزم ان نعمل بها ايضًا اي لا نكتفي باعتقادنا انهُ يلزم للخلاص عدا الايمان عمل الاعمال الصالحة بل يلزم ايضًا ان نعمل هذه الاعمال ان احببنا ان نخلص فان الرسول لم يقل ان الذين يومنون حسنًا بل قال ان الذين يستسيرون حسنًا يكتسبون لانفسهم مرتبة صالحة والقديس مارون وكل من ادركوا السعادة والمجد الابدي لم يومنوا حسنًا فقط بل عملوا حسنًا ايضًا فكانت اعمالهم

الصالحة الطريق المودي الى الخلاص فبهذا الطريق وباثر هولاء يلزم ان نسير ان رمنا ان نبلغ حيث بلغوا فجميعنا والحمد لله نعتقد هذه الحقيقة نظريًا اي ان الايمان وحده لايخلصنا ولكن ما اقل بيننا من يعمل بها فاعتقادنا اياها اساس والعمل بها بناء فمن سوء الحظ يقال فينا ان عندنا من بيتنا الروحي الاساس فقط ولاشيء من البناء عليه وما النفع من الاساس وحده فانت تعتقد ان الايمان لا يكفيك للخلاص بل تلزمك له الاعمال الصالحة ايضًا فاعتقادك حسن لكنك لا ترغب في صحة الاعتقاد وحدها بل في الخلاص ايضًا وعلى موجب هذا الاعتقاد الصحيح نفسه لا تفوز بالخلاص بمجرد الايمان بل لابد من مباشرة الاعمال الصالحة اي مجانبة الرذائل واقتناء الفضائل فثابر اذًا على هذه الاعمال الصالحة ان شئت ان تكون عاقلاً ان شئت ان تكون رجلاً يقوم صنيعه على مقتضى ما له من المبادي الراهنة ان شئت ان تخلص والاَّ فما هذا التناقض فترغب الخلاص طبعًا واعتقادًا ولا ترغبه لانك مع اعتقادك ان الايمان لا يكفي له تكتفي به فانت بذلك اشبه بمن يتاجر بالفكر فقط اي يتامل بما من الربح من صنف البضاعة الفلانية ويحكم ويجزم بان صنفًا منها يربح ولا يتجر به ويريد ان يغتني وهو لا يباشر العمل فهل يغنيه فكره وحده وكذا اعتقادك ان الاعمال الصالحة لازمة للخلاص واضرابك عن عملها فلا تخلص بالفكر الصحيح كما لا تغتني بالمعدل الصحيح فهل تريد الخلاص او الهلاك لاشك بانك تجيب اريد الخلاص وكذا ترغب حقيقة بل طبعًا ايضًا ولكن

من حيث انك تعتقد انت نفسك ان الخلاص لايكفيه الايمان فقط فعلي موجب حكمك نفسه مع كونك لاتفر من الرذائل ولا تسعى للفضائل تكون مريدًا الهلاك وراغبًا فيه ومخالفًا جوابك بانك تريد الخلاص فتفتكر وتقول اني اريد الخلاص ولكن بعد اعمل اعماله فاذًا لاتريده الان ولكن سوف تريده ومن يضمن لك انك تبقى حيًّا الى حين تريد وتعمل وهل تبقى في امر مهم بل ليس اهم منه في العالم دون ضمانة او كفالة وانت تكد ليلاً ونهارًا لتجد لاقل مبلغ من مالك ضمينًا وكفيلاً لتطمئن عليه افنفسك وحدها تستحق ان تهمل على مجرد امل بطول الحيوة لاضمين له وهل من خسارة في العالم توازي خسارة الانسان نفسه مدى الابدية كلها فالان الان اعمل اعمال الخلاص اذا كنت ترغب فيه حقيقة كما يقضي عليك طبعك نفسه بهذه الرغبة وكما تعتقد

فهل من وقت انسب لعمل الاعمال الصالحة من هذه الايام المكرسة لها ايام الصوم المقدس فاجهدوا نفوسكم اذًا على صرف هذه الايام كما ينبغي مثابرين على الحضور الى الكنيسة لسماع القداسات والاشتراك بالصلوات والاستفادة بكلام الله مواظبين على الصلوات والاعتراف وتناول القربان الاقدس محافظين على وصية الصوم والانقطاع عن اكل اللحم والبياض دون ان تقنعوا نفوسكم باعذار باطلة عن حفظ هذه الوصية نعم ان الكنيسة الام الحنونة لا تلزم بشرائعها اذا كان منها مضرة كبرى وانزعاج ثقيل لكنها لم تقصد بشريعة الصوم

والقطاعة تنعيم الجسد بل قمعه ولم تقصد راحة الانسان وانبساطه بل اماتة جسده والمقاومة لامياله والاّ فاين الاجر في ذلك واين النفع الروحي فمقصد الكنيسة من الصوم الاماتة واضعاف الجسد هذا العدو الداخلي المشتهي ابدًا ما يضادّ الروح والوفاء عن اثامنا السالفة فكيف يقبل اذًا العذر ممن يقول ان الصوم والقطاعة يضعفان جسدي ويشقان عليّ وهذا هو نفس المقصد من شريعة الكنيسة وانت تجعله عذرًا للتفسيح منها فبمَ تفي اذًا عن الاثام التي تسامحت فيها لاميالك وكيف تكف جماح هذا الجسد اذا لم تضعفه ومع ذلك الست تفعل ما يضعف جسدك الاّ الصوم فتلك الاسهار الطويلة للعب او للاشغال تضر بجسدك اكثر من الصوم والقطاعة ومع هذا نراك تصنعها دون اختشاء على صحتك وطمعًا بربح قليل او ملذة عابرة وذلك الجري النهار كله وتلك الافكار التي تجعل الدوار براسك هي اضر بصحتك من الصوم فلمَ لا تعفي نفسك منها ترفيهًا لجسدك وان كنت معذورًا حقًا من حفظ وصية الصوم براي الطبيب الماهر اما يترتب عليك ان تعيض عن هذا بافعال اخرى تقوية فهل تصلي في هذا الوقت المقبول اكثر مما في باقي الاوقات وهل انت فيه اكثر محبة للفقراء واوفر سخاء عليهم وهل تواظب على الكنيسة اكثر وهل تقصر عنان امیالك عمّا تفعل في باقي الاوقات فشريعة موسى كانت ترسم على من تعذّر عن تقدمة خروف ان يقدم زوج يمام او فرخي حمام فان كنت متعذرًا عن حفظ وصية الصوم والقطاعة فاصلح ذلك

بغيرها من الاعمال الصالحة فتكون حينئذٍ اعمالك مطابقة لايمانك فيكون سيرك حسناً وكاملاً بالمعتقد والعمل فتكتسب المرتبة الصالحة والسعادة الكاملة التي التمسها لي ولكم اجمع بشفاعة القديس مارون الذي نعيِّد له في هذا النهار وبنعمة الاب والابن والروح القدس

الموعظة الثانية

القاها في الاحد الثاني من الصوم في ١٤ ش سنة ٧٥

في اننا لا نتبرر ونخلص بمجرد الاعمال الصالحة بل بنعمة الله

بدوني لايمكنكم ان تعملوا شيئاً . يوحنا ص١٥ عد٥

برهنت في خطبتي الماضية على مسامعكم ان الايمان وحده لا يكفي للتبرير والخلاص بل تلزم له الاعمال الصالحة ايضاً وتلك عقيدة من عقائد الدين يتهمنا بسببها اعداء الايمان الكاثوليكي لاسيما الابروتسطنت اننا ندعي كوننا نتبرر ونخلص باعمالنا مجردة عن نعمة الله والحال ان تلك تهمة لاصحة لها ولا صدق البتة لان من عقائد ديننا الكاثوليكي ان نعمة الله ضرورية لا للخلاص فقط بل لعمل الفعل الصالح ايضاً وهو خلو منها لايستحق الثواب الفائق الطبيعة والابدي بل لا يمكن صنع عمل دون مساعدة الله فاذاً لسنا ننسب التبرير والخلاص الى اعمالنا الصالحة بل الى نعمة الله التي بها نصنع تلك الاعمال وبها تكون خلاصية ومستحقة استحقاقاً فائق الطبيعة للثواب الابدي بقوة

استحقاق المخلص فدون النعمة لا يمكننا ان نصنع شيئاً خلاصياً بدوني لا يمكنكم ان تعملوا شيئاً فهذا ما نعتقده وهذا ما ابرهنه على مسامعكم هذا المساء

فاورد اولاً تعريف النعمة وتقسيمها ثم اثبت لزومها وضرورتها في كل عمل صالح وخلاصي فتسقط بذلك التهمة التي يرشقنا بها اعداونا ويثبت خلافها اي اننا نعتقد ان خلاصنا بنعمة المسيح واستحقاقه لا بمجرد اعمالنا الصالحة كما مرّ فتكون النعمة المصدر الاول للايمان والتبرير والخلاص وتبقى الاعمال لازمة من قبلنا لها فاننا نخلص بنعمة الله ولكن ليس من دون سعينا مع النعمة باعمالنا الصالحة التي تساعدنا النعمة عليها وتغرينا بها وترفع مقامها لتستحق استحقاقاً فائقاً الطبيعة ومن حيث ان الله اراد ان لا يهب بعض النعم الاّ لمن يساله اياها بالصلوة فلهذا احرض في القسم الاخير من كلامي على الصلوة قناة استجرار النعمة الالهية الينا ولما كان هذا المبحث رفيعاً دقيقاً يستلزم الاصغاء والتبصر كان املي بتقواكم ورغبتكم في فهم كلام الله ان تبدوا الاصغاء التام وتسالوا معي ابا الانوار ليمدني واياكم بانواره السماوية لتجني من كلامي الثمرة الروحية المقصودة

القسم الاول

ان ما يعلمنا اياه معتقدنا الكاثوليكي هو ان الانسان انما خلقه الله ليعبده ويمجده وينال السعادة الخالدة ولكي يتمكن الانسان من نوال هذه

الغاية الشريفة خلقه على صورته ومثاله تفضلاً ومنحه مواهب شتى بعضها طبيعي وبعضها يفوق طبعه ومن سوء البخت اضاع الانسان الاول المواهب الفائقة الطبيعة وجرح وضعف في القوى الطبيعية كما برهنا في خطبة اخرى قبلاً واصبح عاجزًا بقوته الطبيعية عن ادراك الغاية والسعادة التي اعده الله لها فتراءف عليه تعالى مرسلاً ابنه الوحيد الى العالم اخذًا صورة العبد ليرد الانسان الى حالته الاولى وينقذه من الاثم ويفتديه من الاسر بدمه الذي اراقه لخلاص الناس اجمع فوفى بموته على الصليب عن خطاياهم واستحق لهم نعمًا ومواهب تفوق طبعهم يستطيعون بها بعد سقوطهم ان يبلغوا القداسة الحقيقية والسعادة الابدية فرد عليهم ما فقدوه واكسبهم ما خسروه بالخطية وعادوا اهلاً لادراك غايتهم الكلية الشرف واهليتهم هذه انما تصدرها فيهم نعمة المسيح بواسطة اغرائها لهم بالاعمال الصالحة وبرفعها افعالهم من حالة الطبيعة الى حالة فائقة الطبيعة لتستحق ما هو فوق طبع الانسان اي امتلاك الله والتنعم بمشاهدته في سعادة خالدة كما ان النعمة تمنحهم الايد والمعونة للانتصار على التجارب

فالمراد اذًا بالنعمة هنا موهبة يهبها الله للناس مجانًا تحركهم وتساعدهم على الاعمال الصالحة وتجعلها خلاصية تستحق السعادة الخالدة بالتنعم في مشاهدة الله فان الله تباركت اسماؤه هو ينبوع كل خير واصله ويمنح الناس بمجرد سخائه مواهب جمة يعدهم بها اما للتوفيق والسعادة الطبيعية واما للحيوة الروحية والسعادة الابدية ولهذا نقسم النعم الى طبيعية

وفائقة الطبيعة . فالاولى هي الاحسانات التي تتعلق بمجال الطبع وكمال الانسان الطبيعي كخلقه وحفظه وصحته وحريته وما اشبه فان هذه ايضاً تسمى (على ما قال مار اغوسطينوس. رسالة ١٧٧) نعماً لاننا لانعطاها باستحقاق اعمال سابقة بل لجود مجاني من الله وهي تفضلات منه تعالى اذ خلقنا ولم يبقنا في العدم ولم يجعلنا شيئاً كالحجر الذي لا حيوة لهُ او الشجر الذي لاحسّ لهُ او البهيمة التي لا عقل لها بل جعلنا بشراً نوجد ونحيى ونحس ونعقل . واما النعم الفائقة الطبيعة فهي تفضلات الهية تفوق طبعنا يمن الله بها علينا مجاناً باستحقاق المخلص وتتجه بنا الى الكمال والغاية الفائقة الطبيعة التي خلق الانسان لها اعني انها الاحسانات التي تقتاد الانسان للخلاص والسعادة الفائقة طبعه فالكلام الان في هذه النعم لا في النعم الطبيعية

ان النعم الفائقة الطبيعة تقسم اقساماً كثيرة اخصها النعمة الخارجة والنعمة الداخلة . فالاولى يراد بها المساعدات الخارجة التي تحمل الانسان لعمل الخير كشريعة الله ومثال المسيح والقديسين والوعظ والانذار والتحذيرات الخ. والثانية هي التي تلهم الانسان الافكار الصالحة والرغبات المقدسة والمقاصد التقوية ثم النعمة الفعلية او الحالية والنعمة الملكية . فالفعلية من قبل الله هي فعله تعالى الذي ينشيء في نفوسنا الحركات الخلاصية اللازمة لاعمال التقوى وتقديسنا وخلاصنا الابدي ومن قبل الانسان تقوم بتنوير العقل وتحريك الارادة لانشاء العمل الخلاصي. واما النعمة الملكية وتسمى النعمة المبررة فهي التي يتحد بها الانسان

مع الله ليكون بارًا وابنًا له بالتبني ووريثًا لحياة الابد وسميت ملكية لتعلقها بالنفس بمنزلة ملكة ومن فاز بها قيل انهُ بحال النعمة وتستمر في الانسان الى ان يفقدها بالخطية وفيها قال المخلص «من يحبني يحفظ كلمتي وابي يحبه واليه ناتي وعنده نصنع منزلاً» (يوحنا ص ١٤ عد ٢٤) وهذه النعمة يعطاها الاطفال عند تعميدهم ويستمرون بها الى ان يفقدوها بخطية مميتة

ثم تقسم النعمة الفعلية الى فعّالة وكافية. فالفعالة ما تبعها مفعولها اي ما طاوعتها الارادة وعملت بها . والكافية ما خلت من مفعولها اي ما لم تعمل بها الارادة وان كانت كافية للعمل فستصدر النعمة الحركات الخلاصية فيقاومها الانسان بحريته . وتقسم النعمة ايضًا الى النعمة بالبساطة ونعمة عوض نعمة. فالنعمة بالبساطة ما يمنحها الله دون استحقاق سابق ولو بنعمة اخرى . والنعمة عوض نعمة يهبها الله لاستحقاق سابق صادر عن النعمة كالمجد في الحيوة الابدية التي تدعى اجرًا ونعمة فاجرًا لاستحقاق الاعمال الصالحة ونعمة لان هذا الاستحقاق صدر عن النعمة ايضًا

فاذ تقرر ذلك نقول ان كنيسة المسيح اعتقدت وعلمت دائمًا سندًا الى الوحي ان النعمة الفعلية ضرورية لكل عمل صالح صلاحًا فائق الطبيعة ومستحقًا للحيوة الابدية وان هذه النعمة لازمة لبداية الايمان والعمل الصالح ايضًا والثبات الاخير كما اعتقدت ايضًا ان النعمة مجانية لا تعطى بحسب الاستحقاق بقوى الطبيعة بل يمن الله بها كرمًا وانها تفعل بالانسان بفاعلية بنوع انها لا تزيل الاختيار المطلق والحرية

بل يفعل الانسان مع النعمة ويمكنه ان يقاومها ومن هذا يتبين ان الكنيسة تسلم لنعمة المسيح بحقوقها ولحرية الانسان بحقوقها . وهذا التعليم الكاثوليكي قاومه اعداء الكنيسة بنوعين فعظم بعضهم فعل الحرية حتى اجحف بحقوق النعمة وعظم بعضهم فعل النعمة حتى اضرَّ بالحرية البشرية فقاومه بالنوع الاول تباع بيلاجيوس في الجيل الخامس منكرين كون النعمة ضرورية لاعمال الخلاص او للخلاص نفسه وقاومه بالنوع الثاني خاصة لوتاروس وكلوينوس وبعض من تابعهما زاعمين ان الانسان خسر بالخطية الاصلية الحرية والاختيار حتى اصبحا اسمًا بلا مسمًّى وامسى الانسان يعمل اعماله مجبرًا مضطرًا لاعداده بانتخاب الله او رذله الى السماء او الى جهنم . واما تعليم الكنيسة فهو المتوسط بين الضلالين اي انها تعتقد ان حرية الانسان ضعفت وجرحت بالخطية الاصلية لكنها لم تفقد بالكلية فصار الانسان مائلاً الى الشر لا مجبرًا عليه او مضطر اليه وان كلما يخص الحيوة الفائقة الطبيعة يصدر عن استحقاق المسيح فلا نستطيع ان نفعل او نريد شيئًا يختص بالتقوى او الخلاص دون مساعدة نعمة الله الفائقة الطبيعة

فلناتين الان الى اقامة البرهان على كون النعمة الفعلية لازمة لجميع الافعال الخلاصية ولكل منها فهذه عقيدة من عقائد ايماننا وهي كتابية مؤسسة على الوحي ومع هذا يمكننا ان نبين مطابقتها للعقل سندًا الى بعض البراهين الفلسفية واللاهوتية . اننا اوردنا في خطبتنا الاحد السادس من الصوم في السنة الماضية في مساعدة الله وحرية الانسان

برهانات كثيرة فلسفية جلية في اثبات مساعدة الله للناس في كل فعل من افعالهم الطبيعية كالمشي والاكل والشرب وما اشبهها وانه لايمكن احدى الخلائق ان تصدر افعالها دون مساعدة الله وبالاستقلال عنها لئلا تضحي مستقلة وغير متعلقة بهِ تعالى وهذا مستحيل ولئلا يكون فيها كمال غير صادر من ينبوع كل كمال وهو الله ثمَّ ليكون الله علة كل فعل لانهُ الفاعل الاول ولتكون مساعدة الله وسيلة لعلمه المستقبلات الى باقي البينات التي اتممناها هناك ولانحتاج الى اعادتها هنا فاذا كانت مساعدة الله لازمة للافعال الطبيعية ولكل منها فكيف لاتكون لازمة مساعدته على الافعال الخلاصية وعلى كل منها بل ان هذه المساعدة اكثر لزوماً لتعلق هذه الافعال بامر يفوق طبعها وهو السعادة والتنعم بمشاهدة الله والحال ان المساعدة على الافعال الخلاصية ليست الاَّ النعمة فاذاً النعمة لازمة لعمل الاعمال الخلاصية بل الزم من المساعدة لعمل الاعمال الطبيعية

ثم ان السعادة التي اعدَّ الله الانسان لها هي فائقة الطبع فيلزم اذاً ان تكون الاعمال التي تبلغ اليها فائقة الطبع اذ لابد من وجود المناسبة بين الغاية والوسائط المبلغة اليها والحال ان العمل الفائق الطبع لايمكن صدوره عن مجرد قوى الطبع والاَّ لما كان فوق الطبع بل طبيعياً اذ تقدر القوى الطبيعية المخلوقة على اصداره فاذاً لابد في كل عمل خلاصي من نعمة تفوق طبع الانسان ترفع ذلك العمل فوق طبعه ليستحق سعادة لا تقتضيها حال الطبيعة ولهذا لما كان ابوانا

الاولان في حال البرارة كانا يحتاجان نعمة فائقة الطبيعة هي المسماة نعمة الخالق لانهُ خلقها في حال فائقة طبعها ولما فقدا تلك الحال عاد الانسان يحتاج نعمة الفادي التي استحقها لنا المسيح بالامه وموته ولهذا قال مار توما ان الانسان كان في الحال الاولى يحتاج الى اسعاف الله الى شيء واحد وهو ان يريد و يفعل الخير الفائق الطبيعة واما بعد سقوطه فيحتاجه لشيئين اعني لينهض من سقوطه و يبرأ من مرضه ثم ليفعل الخير الفائق الطبيعة ففي الحالين يحتاج الى اسعاف الله

ثم ان الخليقة لما لم يكن يمكنها ان تكون كفوًا لنفسها كان متحتمًا عليها ان تستمد شيئًا خارجيًا يساعدها على قيامها فالانسان مألف من جسد ونفس فله حياتان كلٌ منها يتعلق بالموجودات الخارجة عنه كما هو واضح والمساعدة الاكثر اقتدارًا انما هي التي يترجاها الانسان من الاله فعمل الله هو الذي ينشيء الافعال الأُخر للحيوة وهو الذي يصدر بالنفس الحركات الاكثر قوة واهمية على ان وجود فعل الله في الانسان لا مرتاب بهِ بل لنا بهِ شهادة العالم بكماله فلننظر الى جميع اللغات ولنتبصر بكل المعتقدات ولنطالع تواريخ كل القبائل وكل الشعوب فنجد في كل ذلك عبادات وتقدمات وصلوات وتضرعات كان يقدمها جميع الناس للحصول على مساعدة الاله واستمداد حمايته وهذا يصرح بالاعتقاد العام بفعل الله بالانسان وباحتياج الانسان الى ايه تعالى وهذا الفعل قد يكون فعالًا او غير فعال بحسب حالة النفس البشرية وتأهبها وقد يشعر الانسان بهِ وقد لا يشعر لكنه لا يمكنه ان ينكر

وجوده فيه كوجوده في باقي المخلوقات التي علة وجودها ودوامها في الوجود انما هي فعل الله الغير المنقطع بها على ان الفعل الالهي في الانسان يتخذ صورة مخصوصة تطابق قواه البشرية فلا يفعل في النفس فعل العلة الموجدة فقط لان النفس اهل للمعرفة والمحبة وهو سبحانه يريد ان تعرفه وتحبه ولهذا يفعل بالروح والقلب ليحيي بهما معرفته ومحبته وان لم يحتج سبحانه هذه المحبة . وليس فعل الله هذا في النفوس الاّ المساعدة والنعمة . ولكي يصدر فعله تعالى مفعوله في النفس يلزم النفس ان تقبله وان تسعى معه وهذا السعي هو غير اختياري بالنظر الى الجزء الطبيعي من وجودنا فهو بها كباقي الموجودات الغير المتنفسة لكنه يلزم ان يكون اختيارياً من جهة الجزء الادبي فينا اي يلزم مطاوعة النعمة بهذا المسعى ليكون فعلنا بشرياً مستحقاً الثواب فهذه الملاحظات الفلسفية تبين لنا لزوم النعمة ولزوم سعينا معها

ان الله هو الفاعل والسيد السامي لكل شيء ويلزم ان يُنسب المجد اليه في كلما حدث ويحدث وقد قال الرسول (رومية ص ٢ عد ٣٥) «ان منه وبهِ وفيه كل شيء ولهُ المجد الى ابد الدهور» فكيف يمكن اذاً ان تكون الاعمال الخلاصية المبلغة الى التمتع الابدي بمشاهدته مجردة عن اسعافه ولامدخل لهُ بها وكيف يمكن ان يكون المجد الحاصل من ذلك غير منسوب اليه عز وعلا ولا تعلق لهُ به وما احسن ما قال مار اغوسطينوس بهذا المعنى (في تفسير مزمور ٥٨ خطبة ٣ عد ١١) مناجياً الله «هل انت صيرتني اوجد ولم تصيرني

ان اكون صالحًا واعطيتني انت ان اكون وغيرك اعطاني ان اكون صالحًا فان كنت انت قد اعطيتني ان اكون وغيرك اعطاني ان اكون صالحًا فمن اعطاني ان اكون صالحًا يكون احسن ممن اعطاني ان اكون اي ان اوجد فقط وحيث انهُ لا احسن منك ولا اقدر ولا ارحم فالذي اخذت منه ان اكون فمنه نفسه اخذت ان اكون صالحًا»

واما شهادات الوحي لهذه الحقيقة فقد اوردت منها جانبًا كبيرًا في خطبتي المار ذكرها في مساعدة الله فالآيات التي تثبت مساعدة الله على الافعال الطبيعية تثبت باولى حجة مساعدته على الافعال الخلاصية والفائقة الطبيعة اعني نعمته . وهنا ازيد على ذلك ان لنا في العهد القديم ايات لاتحصى تبرهن التعليم الكاثوليكي بضرورة النعمة في كل عمل صالح حتى يمكن ان يقال ان هذا التعليم هو اخص غاية لاسفار العهد القديم فلهذه الغاية تبين لنا هذه الاسفار اصل ضعفنا والجرح المثخن الذي اصاب نفسنا بمخالفة ابوينا الاولين والى ذلك يُعزى تبشيرها بالمسيح المقبل الذي يستطيع وحده ان يصلح حالنا بنعمته ولهذا المقصد رتب الله بعد مخالفة ادم امور الناس ترتيبًا يجعلهم كانهم يحسّون بدهم اضطرارهم الى نعمة الله فقد لاحظ الاباء القديسون ولاسيما اغوسطينوس ان الله ترك الانسان اولاً وقتًا طويلاً تحت نير شريعة الطبيعة ليختبر بنفسه ان النور الطبيعي اظلم فيه بسبب الخطية الاصلية بل قد استخدم بعض الناس هذا النور لاضاليل وغوايات فظيعة حتى اذا راوا نفوسهم متسكعين في دياجي الجهل حملتهم تعاسة حالهم الى

الاقرار باضطرارهم الى رحمة من خلق هذا النور فيهم فنزل حينئذٍ الرب شريعته على موسى وامره ان يقدمها لشعب اليهود فقالوا كلما تكلم الرب نصنع (خروج ١٩ عد ٨) مظنين انهم يستطيعون بقواهم الطبيعية ان يسلكوا بمقتضى الوصايا فكانوا للشريعة مخالفين لاعتمادهم بتكبر على قواهم ليعلموا ضعف ارادتهم ويلتجئون الى طلب الفادي ونعمته وهذا ما اشار اليه الرسول بقوله (رومية ص ٥ عد ٢٠) وانما كان دخول الناموس لتكثر الخطية وحيث كثرت الخطية تفاضلت النعمة

وقد عرف في العهد القديم الانبياء وغيرهم ضعفهم واضطرارهم الى النعمة فطلبوها من الله متوسلين متذللين منهم المرتل والنبي داود الذي قال (مزمور ٥٠) «قلبًا نقيًا اخلق فيّ يا الله وروحًا مستقيمًا جدّد في احشاي» وقال ايضًا (مزمور ١١٨ عد ٣٧) «اعطني فهمًا وحكمة لافحص شريعتك واحفظها بقلبي كله اقتدني في طريق وصاياك لاني اخترته اَمِل قلبي الى شهاداتك» الى باقي اقوال هذا النبي المكرّرة بهذا المعنى والمصرحة بالاضطرار الى النعمة حتى قال البابا اينوشنسيوس الاول في احدى رسائله ضد البيلاجيين ان زبور داود انما هي توسلات متصلة لاستمداد النعمة الالهية وقال صاحب كتاب الحكمة (ص ٨ عد ٢١) «ولما علمت انهُ لا يمكنني ان اكون عفيفًا ما لم يعطني الله وكان من شأن الحكمة ان تعرف ممن هذه الموهبة فمضيت لدى الرب وتوسلت اليه» فهذا تصريح بان نعمة الله لازمة لحفظ فضيلة العفة وقال ارميا (ص ١٠ عد ٢٣) «اني عارف يا ربي ان ليس للانسان

طريقة وليس للرجل ان يمشي ويقوم خطواته ،، فالنعمة اذًا لازمة للانسان ليسلك مستقيمًا ويقوم خطواته في سبيل البرّ والخلاص وقال دانيال (ص ٢ عد ٢٠) ،، فليكن اسم الرب مباركًا من الدهر والى الدهر لان له القوة والحكمة ... وهو يعطي الحكماء الحكمة والفهماء العلم ... فاعترف لك يا اله اباءنا واسبحك لانك اعطيتني الحكمة والقوة ،، وقال الله على لسان حزقيال (ص ٥ عد ١٩) ،، واعطيهم روحًا جديدة وقلبًا واحدًا وانتزع منهم قلبهم الحجري واعطيهم قلبًا من لحم ليسلكوا بحسب وصاياي ويتمموها ،، فمن كلما مرّ يظهر ان انبياء العهد القديم لم يكونوا يعزون الفضائل والاعمال الصالحة الى القوى البشرية بل الى نعمة الله

واما في العهد الجديد فقد صرح المخلص كل التصريح بلزوم النعمة اذ قال ،، كما ان الغصن لا يمكنه ان ياتي بالثمار من ذاته ما لم يثبت في الجفنة هكذا انتم اذا لم تثبتوا فيّ انا هو الكرمة وانتم الاغصان فمن يثبت فيّ وانا فيه يات بثمار كثيرة لانكم بدوني لا يمكنكم ان تصنعوا شيئًا ،، (يوحنا ص ١٥ عد ٤ وما يليه) فالمسيح يتكلم بما انه فادٍ في الاعمال الخلاصية ويبين ان نعمته ضرورية لكل من هذه الافعال فانه (كما لاحظ مار اغوسطينوس) لم يقل بدوني تستطيعون شيئًا قليلاً بل قال لا تستطيعون شيئًا اي لا كبيرًا ولا صغيرًا ولا عظيمًا ولا حقيرًا وقد برهن مار بولس لزوم النعمة من تعاسة الحال التي اتصل اليها الانسان اذ قال ،، لانهم جميعًا اخطأوا وهم ناقصون من

مجد الله ومتبررون بالنعمة مجاناً وبالفداء الذي هو يسوع المسيح ،،
(رومية ص ٣ عد ٢٤) يريد ان الناس امسوا بالخطية عاجزين عن
عمل الخير الفائق الطبيعة ومضطرين الى النعمة للتملص من تعاستهم
ولانشاء الاعمال الخلاصية وقال ايضاً ،، لا لاننا كفوء ان نفكر بشيء
من انفسنا كانه من انفسنا ولكن قوتنا (اوكفاءتنا) هي من الله ،،
(قرنتية ٢ ص ٣ عد ٥) فاذا كنا لا يمكننا بقوانا ان نفكر بشيء خلاصي
فباولى حجة لا يمكننا ان نفعله بل كل قوتنا على ذلك مستمدة من نعمة
الله وقال ايضاً عن نفسه ،، لست انا ولكن نعمة الله معي (قرنتية ١
ص ٢) وكتب الى اهل فيلبسيوس (ص ١ عد ٦) ،، ان الذي ابتدأ
فيكم العمل الصالح هو يكمله ،، الى قوله (عد ٢٩) ،، وهذا أعطي لكم
من الله لا ان تؤمنوا بيسوع المسيح فقط بل ان تتألموا بسببه ايضاً ،،
وقال لهم ايضاً (ص ٢ عد ١٣) ،، ان الله هو الذي يفعل بكم ان
تريدوا وان تعملوا ما تريدون ،، الى باقي اقوال الرسول المصرحة بان
كل عمل خلاصي تلزمه نعمة الله حتى للابتداء بهِ ولتحريك الارادة اليه
وقال مار يعقوب الرسول (ص ١ عد ١٧) ،، ان كل عطية صالحة
وكل موهبة تامة انما تهبط من فوق من عند ابي الانوار ،، فاذاً لاشك
بان كل عمل خلاصي تلزمه النعمة من العلاء ولولا خشيتي مللكم لاطلت
ايراد الايات المقدسة ولكن ما قدمته يكفي مؤونة اقناع كل ذي
عقل سليم

واذا احببتم ان تسمعوا شيئاً من اقوال الاباء القديسين بهذا ٥

المعنى فاورد بعض اقوالهم فقد علموا في كل عصر بلزوم النعمة للاعمال الخلاصية فقال القديس يوستينوس الشهيد في الايمان واحتمال الشهداء « ان هذه صنعتها قوة الاب لا آلة العقل البشري » (محاماته الثانية عد ١٠) وقال القديس ايريناوس « كما ان الارض العطشى اذا لم تقبل المطر لا تثمر هكذا نحن الذين كنا خشبة يابسة لم نكن لنثمر الحيوة خلواً من الغيث الذي من العلاء . . . ولهذا نحتاج ندى الله حتى لا نحترق ولا نكون دون ثمرة » (ك ٣ ضد الهراطقة راس ١٧) وقال القديس اكليمنضوس الاسكندري « ان العفة لا يمكن اكتسابها الا بنعمة الله ولهذا قال المسيح اسألوا تعطوا » (في ك ٤ في الموضوعات) وقال اوريجانوس « ليس احد يفعل شيئاً من الخير البتة خلواً من نعمة الله » (ك ٦ ضد شلسوس) وقال (في ك ٧) اننا لا نستطيع ان نطلب الله ونجده دون مساعدته » وقال القديس كبريانوس في تفسير الصلوة الربية « نقول لتكن ارادتك كما في السماء كذلك على الارض لا ليصنع الله ما يشاء بل لنستطيع نحن ان نصنع ما يشاء الله . . . فنصلي لتكون بنا ارادة الله ولكي تكون بنا يلزمنا ارادة الله اي مساعدته ورعايته فليس احد يقوى بقواه بل برحمة الله » وقال القديس ايلاريوس « لم يبقَ لنا محل للافتخار اذ نتذكر ان كل شيء من الله » (في تفسير مزمور ٦١) وقال القديس باسيليوس « اننا نحتاج نعمة الله لامرين لنزدان نفسنا بالجمال ولنتسلح بالقوة على تأدية فروضها » (خطبته على مزمور ٢٩) واجتزي بهذا القليل فهو على سبيل المثل

فقط وكذا علمت المجامع القرطجني سنة ٤١٦ والاروسيكاوي وغيرها حتى المجمع التريدنتيني

فقد اتضح اذًا بالبرهان اللاهوني وآيات الوحي وشهادات الآباء ان النعمة لازمة لكل عمل خلاصي ولا نستطيع خلوًّا منها ان نصنع اول عمل يستحق الخلاص . واذا كان هذا معتقدنا ونبرهنه بكل هذه البرهانات الوطيدة فكيف تصدق علينا تهمة الابروتسطنت باننا نعتقد اننا نتبرر ونخلص بمجرد اعمالنا الصالحة فكلاًّ ثم كلاًّ فاعتقادنا ان خلاصنا بواسطة استحقاقات المسيح ونعمته ومن دونها لا خلاص لنا لكننا لا نعتقد البتة ايضًا ان نعمة المسيح وحدها تخلصنا دون سعينا معها او تخلّصنا ولو ارتكبنا الخطايا ولو قاومنا النعم فلا يمكنا ان نعتقد ان المخلص تألم ومات لينهج لنا طريق الخطية ويسهل لنا اطلاق عنان شهواتنا ورغباتنا بل ايماننا انهُ مات ليمنحنا النعمة والقوة على مقاومة الخطية واقتناء الفضيلة لنخلص بمعونة هذه النعمة التي لا غنى لنا عنها ومرجع خلاصنا اليها

وعلى موجب كلامنا هذا تنحل وتضمحل اعتراضات اعداء مذهبنا ويتبين المعنى الصحيح للآيات المقدسة التي يحجونا بها كقوله انّا نتبرر مجانًا وان دم المسيح يطهرنا من كل خطية وانهُ احيانا لا باعمال برٍّ عملناها نحن بل برحمته الى غير ذلك من الآيات الكريمة فالمعنى ان المسيح منحنا بموته واراقة دمه ورحمته وسخائه النعم التي من دونها لا نقدر ان نعمل عملاً خلاصيًا والتي ترفع مقام الاعمال الصالحة لتستحق سعادة

لانستحقها بطبعها وقد خولنا هذه النعم مجانًا وبرّرنا من تبعة الخطية الاصلية فيكون تبريرنا مجانًا واستحقها لنا بدمه فيكون دمه مطهّرًا لنا واعدّ لنا بها الحيوة فحيينا لا بمجرد اعمال برنا بل برحمته كما ذكر وليس المعنى انهُ يبرّرنا ولو لم نصنع شيئًا بل ولو اقترفنا كبائر الخطايا ولم نتب عنها ولا المعنى انهُ اراق دمه لنطلق عنان اميالنا فيطّهرنا دون توبتنا ايضًا ودون سعينا مع نعمته ولو صح زعمهم لوجب ان نحذف الوصايا العشر وكل وصية في الاسفار المقدسة تلاحظ غير الايمان اذ لا يكون نفع من حفظها لانا نتبرر بالايمان وحده ودم المسيح مع مخالفتها يكفينا موٴنة تطهيرنا ونحيى برحمته ولو احتقرناها ولم نصنع شيئًا الاَّ الخطايا فكل هذا على ما ترون واضح مبكم كل من كان غير متعنت

وتكملة لكلامي هذا في النعمة ازيد عليه ما ياتي . قلت في البداية ان اختيار الانسان المطلق لم يبد بالخطية لكنه ضعف وجرح وان نعمة الله لا تضطر الانسان الى العمل بل تبقى لهُ معها الحرية ليقاوم نعمة الله او يسعى معها فالمراد بذلك ان الانسان بقيت لهُ بعد الخطية الاصلية قواه الطبيعية والذاتية اي العقل والارادة المطلقة فيمكنه بهما دون ان يكون فائزًا بالنعمة المبررة ان يعلم بعض الحقائق الطبيعية وان يصنع بعض الافعال الصالحة صلاحًا طبيعيًا على ان بعض البروتسطنت ينكرون ما قلناه هنا و يزعمون ان الاختيار المطلق باد بالخطية الاصلية بكليته ومات الانسان عن كل خير ادبي ولم يبقَ فيه اهلية الاَّ للاثم ونتجوا من ذلك ان الغير المعمد يخطي في كلٍ من افعاله

وان فضائل غير المومنين رذائل الّا ان التعليم الكاثوليكي هو ان الانسان يستطيع قبل فوزه بنعمة الايمان ان يصنع بعض افعال صالحة صلاحًا ادبيًا لا خلاصيًا وبالتالي ليس جميع افعال غير المومنين خطايا كما وهم البروتسطنت المذكورون

والبرهان اللاهوتي على هذا ايضًا . اولاً ان نور العقل وحرية الارادة لم يبادا بالخطية الاصلية ولهذا لم تفسد في الانسان كل محبة للخير والحق وعليه فيمكنه ان يصنع شيئًا من ذلك بالنوع الطبيعي والادبي وان لم يكن خلاصيًا وبقاء نور العقل وحرية الارادة يشهد بهِ الحسّ الباطن نفسه . ثانيًا ان ترك الايمان بذنب اثم كبير لكنه لا يمنع كل فعل صالحٍ صلاحًا ادبيًا ووجهه ان الانسان لا يفعل دائمًا عن ملكة متغلبة فقد يجود البخيل وقد يتعفف الشهواني ولا يكون جود البخيل بخلاً ولا عفة الشهواني فسقًا بل ان الانسان البار لا يفعل البر دائمًا بل قد يسقط في الاثم كما هو واضح فاذًا ولا الكافر يفعل ابدًا عن كفرٍ ولا الخاطي عن خبث ورداءة وقد يصنع الشهواني حسنة لسبب الرحمة لا لسبب الشهوة فيكون صنعه حسنًا بنفسه ومحبته للدنس امرًا عرضيًا . ثالثًا لو اكره الغير المومن نفسه على كبح ميل الطبيعة السيئ او حملته الشفقة فتصدق على محتاج او انقذ انسانًا من خطر الموت او اكرم والديه لكان على افتراض الاعداء مذنبًا واثمًا امام الله ولزم نصحه لينكف عن هذه الافعال لئلا ياثم ويُعاقب ومن لا يرى ما في ذلك من الغرابة عن حس الناس السليم والمخالفة لما يرشد اليه

الطبع نفسه والاضرار بعمران العالم

واما نظرًا الى شهادات الكتاب المقدس فنراه كثيرًا ما مدح افعالاً صدرت من الغير المومنين واوجب لها بعض الجزاء فقد جاء في سفر الخروج (ص ١ عد ١٥ وما يليه) ان القوابل المصريات امرهن فرعون ان يقتلنَ ذكور العبرانيين كافة فخفن الله ولم يفعلن كامر الملك " فاحسن الله الى القوابل ... ولانهن خفن الله فعمَّر بيوتهن " اي اعطاهنَّ اولادًا واحسن حال عيالهنَّ وان كذبن بعد ذلك فلم يدنس كذبهن العمل الصالح الذي عملنه قبلاً . وكذا جآء في نبوة حزقيال (ص ٢٩ عد ١٨ وما يليه) ان نابوخزناصار ملك بابل احسن جيشه الخدمة لاهل صور فلذلك " هكذا قال الرب هانذا ابذل ارض مصر لنابوخزناصار ملك بابل فياخذ ثروتها ويغنم غنيمتها وينهب نهبها ... لانهم عملوا لاجلي يقول الرب " وقد حرض دانيال (ص ٤ عد ٢٤) هذا الملك على الصدقة قائلاً " افتدِ خطاياك بالصدقات وآثامك بالشفقة على الفقرآء " فهل حرض دانيال النبي هذا الملك على الاثم والخطية لا لعمري فلا شك اذًا انهُ عمل بالصدقة عملاً صالحًا ادبيًا وامكنه ان يفوز لاجله بالنجاة من نوازل زمنية بفضل الله

ونكتفي عن التطويل بايراد قول المخلص " فان احببتم من يحبكم فاي اجرٍ لكم اليس العشارون هكذا يصنعون وان حييتم اخوتكم فقط بالسلام فاي فضل صنعتم اليس الامم هكذا يصنعون فكونوا كاملين

كما ان اباكم السماوي كامل هو ‚‚ (متى ص ٥ عد ٤٦) فالمسيح لا يذم افعال العشارين والوثنيين كانها خطايا بل يشير الى انها اقل اعتبارًا من افعال المؤمنين كما هو بيّن ثم نكتفي بقول الرسول ‚‚ فان كان الامم الذين لا سنة لهم يعملون من طبعهم بما في السنة فاولئك اذ لم يكن لهم ناموس صاروا ناموسًا لانفسهم وهم يظهرون اعمال الناموس مكتوبًا على قلوبهم ‚‚ (رومية ص ٢ عد ١٤) فاذًا يعمل الامم بعض اعمال الناموس الطبيعي وان لم تكن اعمالهم هذه خلاصية وفائقة الطبيعة وقال القديس اغوسطينوس في تفسير هذه الاية ‚‚ كما ان الخطايا العرضية لا تمنع البار من الحيوة الابدية هكذا بعض الافعال الصالحة لا تفيد الكافر شيئًا للخلاص الابدي ‚‚ فاذًا قد اتضح من كل ما مرّ الى الان ان نعمة الله لازمة لكل عمل صالح خلاصي وفائق الطبيعة وانهُ يمكن الغير المومن ان يصنع دون النعمة المبرّرة بعض افعال جيدة جودة ادبية لكنها لا تستحق الخلاص والحيوة الابدية بل تكون بمنزلة استعداد للحصول على نعمة التبرير ثم على الخلاص ومن هذه الافعال افعال الندامة والتوبة التي يتقدم بها الانسان للتبرير فان الندامة والتذلل امام الله بالاقرار بخطايانا والاعتراف بها تجاه الكاهن جميعها افعال صالحة متقدمة على التبرير في الخاطي لانهُ اذا كان الله يشرق شمسهُ على الاخيار والاشرار ويسكب غيثهُ على الابرار والفجار واذا كان يحفظ الغير المومنين ويشملهم بعنايتهِ ويملأ بيوتهم من خيرات الارض فمن يقول انهُ ينكر على نفوسهم الغير المائتة مساعدة النعمة السماوية وقد كتب في سفر الايام الثاني (ص

٣٣ عد ١٣) عن منسّى الملك انهُ دنّس نفسهُ باثام كثيرة فصلى الى الله وناب اليهِ فاستجاب الرب صلاتهُ فلا شك ان النعمة حملت منسّى على توبتهِ واستمداد رحمة الله فنال بالصلوة نعمة التوبة وبالتوبة مغفرة الخطايا فكان عملهُ قبل تبريره صالحًا وفائقًا الطبيعة وان لم يكن خلاصيًا الا بعد تبريره بمغفرة خطاياه . وروى مار لوقا (ص ١٨ عد ١٣) ان العشار كان قائمًا عن بعد ولا يجسر ان يرفع عينيهِ الى السما وكان يقرع صدرهُ قائلاً اللهمَّ اغفر لي انا الخاطى وقال المخلص انهُ نزل الى بيتهِ متبررًا فاذًا قد كان فعل اتضاعهِ وصلاته صادرين عن النعمة مع انهما كانا متقدمين على تبريره . وكرنيلوس قائد المائة قال فيهِ كتاب اعمال الرسل (ص ١٠) انهُ كان رجلًا خائفًا الله مع اهل بيتهِ كلهم وصانعًا صدقات كثيرة للشعب ومصليًا لله فتقبل الله صلوته وصدقاته كما قال الملاك هناك (عد ٤) «ان صلواتك وصدقاتك صعدت امام الله» وهذه كانت قبل ان يتنصّر ويعتمد والنتيجة الاخيرة هي ان ليس جميع افعال الخاطئين خطايا ولا فضائل الغير المومنين رذائل فان الله لا يعدم هولآء على الاقل من نعمتهِ الكافية ولو عن بعد وهذه النعمة تسمى ايضًا اعدادية ودوائية لانها تعدُّ الغير المومنين الى قبول نعمة التبرير فتصبح اعمالهم خلاصية تستحق السعادة الابدية

القسم الثاني

واما توزيع الله النعم فمن الايمان انهُ مجاني اي انهُ مجرد سخآء وتفضل

من الله والاَّ لما كانت النعمة نعمة كما يقول الرسول ومن حيث ان المخلص مات من اجل جميع الناس ووفى اباه عن خطاياهم واستحق النعمة ووسائل الخلاص للنوع البشري باسره فلا يبخل بنعمتهِ الكافية على احد بل هذه النعمة معدَّة للجميع من دون استثنا كاعداده نور الشمس لاضاءة الجميع ولهذا فكل من يخلصون يخلصون بنعمة الله ومن دونها لا خلاص لاحد وليس احد من جميع الهالكين يمكنهُ ان ينسب هلاكه الى نقصان النعمة عنهُ بل لذنبهِ وعدم ارادته بان يطاوع النعمة ويسعى معها الى خلاصهِ الاَّ انهُ لما كانت النعمة مجانية من كل وجه فلم يكن ما يمنعهُ تعالى من ان يمنح بعض الناس نعماً فعالة تقتادهم طائعين الى الخلاص وان يكتفي بمنحهِ غيرهم النعم الكافية فقط فهو المسلط على مالهِ اعني مواهبهِ فيفعل بمالهِ ما يريد ولا حق لاحد عليه في شي وكلما يعطيه انما هو من مجرد سخائهِ وليس لنا شيء لم ناخذه منه ولذا لا يكون ظالمًا او محابيًا ان اعطى واحدًا اكثر وواحدًا اقل او غفر لواحد كبائر كثيرة ولم يغفر لآخر كبيرة واحدة وان دعى بعضًا الى الايمان وترك بعضًا على الضلال لانهُ لم يشأ ان يسمع صوتهُ وبهذا المعنى الاقوال الواردة في الكتاب كقوله انني احببت يعقوب وابغضت عيسى واني ارحم من ارحم واتحنن على من اتحنن وليس الامر بيد من يشاء ولا بيد من يسعى بل بيد الله الرحوم وهو اذًا يرحم من يشا ويقسو على من يشا او ليس الفاخوري مسلطًا على طينه بان يصنع من جبلة واحدة اناء للكرامة واناء للهوان الى ما اشبه ذلك الايات فان الكلام فيها على الدعوة المجانية الى الايمان على ان

الذين لم يتبعوا الايمان او قسى قلبهم ولم يتوبوا لم تكن تعوزهم النعمة لانها معدة لجميع الناس ولم يقسو عليهم الله او يجعلهم انية للهوان الا لانهم لم يريدوا ان يسعوا مع النعمة الكافية التي اعطوها كباقي الناس واذا كان عامل الله غيرهم باكثر رافة وفضل غيرهم عليهم بشفقته فذلك مجرد تفضل ليس لاحد ان يحاجه به ومن احسن الى واحد اكثر من الاخر لم يكن ظالمًا في حق من احسن اليه قليلاً بل لا يزال محسنًا وكفى بالله فضلاً ان يمنح كلاً من الناس ما يكفيه من النعم موونة خلاصه اذا شاء وقد تقدم مكررًا ان النعمة الكافية لا يعوزها احد

على ان هذه النعمة الكافية بعضها كافٍ عن بعد وبعضها كافٍ عن قرب فالاولى هي نعمة الصلوة التي متى سعى الانسان معها متوسلاً الى الله ان يمنحه النعمة الكافية عن قرب او الفعالة فينال ما سأل بالصلوة ثم ان بعض النعم لا يهبها الله الا لمن يصلي اليه مستمدًا اياها وهذه الملاحظة الاخيرة تبين لنا ما احوجنا الى الصلوة وما اكثر النفع الذي تجرُّه الينا ولهذا كرَّر المخلِّص علينا وصاياه بفمهِ الاقدس وبفم انبيائهِ ورسلهِ بان نصلّي دائمًا وان نصلّي لئلا ندخل في التجارب وان نسهر في الصلوة وان نصلي بلا فتور وان نصلي ولا نمل وعلمنا كيف نصلي مع اننا لم نرهُ علم كيفية ممارسة فضيلة اخرى وقد كان القديس اوغسطينوس يتعجب كيف امرنا الله ان نحبه مع انه محبوب بنفسه وكلما في العالم وكلما لنا يدعونا الى محبتهِ فلم نكن نحتاج الى هذه الوصية وهكذا يحق لي ان اتعجب كيف يامرنا الله ان نصلّي مع ان احتياجاتنا الكثيرة تحملنا ان نصلي

وترك الصلوة هو ترك الوسائل التي تبلغنا الى كلما لنا من الخير والمنفعة فلا شيء لنا من ذلك الاّ من فضل الله واحسانه والصلوة هي القناة التي نستجرّ بها النعمة والخير والخلاص الابدي

حقًّا اولادي ان الوصية بالصلوة هي وصية لازمة جدًّا فاننا لو عدلنا عن اسباب لزومها من جهة الله والعبادة المتوجبة علينا لهذه العزة الرهيبة والمحسنة لرأينا هذه الوصية مؤسسة ايضًا على المحبة التي نحب نفسنا بها فمحبة الذات نفسها تستدعينا الى اتخاذ الوسائل التي نراها لازمة لوقايتنا من الاخطار المحدقة بنا ونجاتنا من المحن والسهام المفوّقة علينا ويمكن ان نهلك بها في كل ساعة والحال انهُ لا انفع ولا افعل بين هذه الوسائل من الصلوة . فان العجز المستحوذ على طبعنا والضعف المتحكم بنا يجعلاننا غير كفوء لنفوسنا اي لا نستطيع ان نقاوم جميع التجارب ولا ان نقي نفوسنا المعاطب والمهالك ولا ان نسدّ الحاجات المتعاقبة علينا ولا ان نقيم بفروضنا ولذا كفاتنا من الله ولا بد لنا من مساعدة حاضرة ابدًا ومقتدرة وهي مساعدته تعالى ونعمته وكيف نغنم هذه المساعدة لا سبيل لاغتنامها الاّ بطلبها وهو الصلوة ولهذا قال لنا مخلصنا اسالوا تعطوا اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم . ووثقنا على الاجابة بقوله لان من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح لهُ . وعمّم هذه الاجابة بقوله الحق اقول لكم ان كلما تسألون ابي باسمي يعطيكم . وكانهُ بهذا الكلام الموجب يفرض لنا قاعدة سلبية هي اننا اذا لم نسأل لا نعطى واذا لم نطلب لا نجد واذا لم نجد نخسر هذه المساعدة واذا خسرنا هلكنا ونهلك لاثمنا لاننا لم

نصلّ لننال المساعدة التي لا بد لنا منها ولنفوز بالنعمة عونًا لنا في زمان الضيق

فيالعناية الله بنا ويالجوده وسخاته فكلنا نستطيع ان ننظر من ملوك الارض او عظمائها انما هوانهم يسمعون لمن كان متقربًا اليهم يولونهُ ما يسأل ولكنهم لا يفرضون على احد ولا يأمرون احدًا بان يسألهم كلما يشتهي ويرغب من الخير واما الله وهو على كل شيء قدير لم يكتفِ بان يقول لنا اطلبوا تجدوا بل يامرنا ان نطلب ويفرض علينا فرضًا ان نسأله كلما نحتاج فانما هذا فضل غريب واغرب منه العماء هو العماء العجيب وعدم الاحساس المميت من جانبنا وامرٌ واضح فاننا نحتاج ابدًا مساعدة الله ودونها لا نستطيع ان نصنع شيئًا وان فقدناها وقتًا ما ادركنا التلف والهلاك والله تباركت اسماؤه يحرضنا كل يوم على طلبها بل يامرنا بان نطلب كلما نحب ومع هذا جميعه لا نطلب ولا نصلي ونترك نفوسنا عرضةً للتهوُّر في دركات الجحيم فهل ذلك الأعمل انسان اعمى عديم الاحساس او ما اذًا يحق لنا ان نسمي هذا العما عجيبًا نعم انه عجيب ولكن يوجد ما هو اعجب منه وهو انه يوجد بيننا نحن الكاثوليكيون من لا يحتمل على نفسه هذا العما فقط بل يقرّع غيره ايضًا لانه يبصر ويستمد ما يحتاج اي يصلي صباحًا ومساءً كأن ذلك مخالف لتمدن العصر او كأن العصر من حيث انه كثرت فيه التجارب واسباب الاثم والفساد قلّ فيه الاحتياج الى الصلوة والاضطرار اليها فذلك على حدّ الفكر والقول حيث كثرت الامراض قلّ الاحتياج الى الدواء وحيث اشتدّ

الفقر والجوع امتنع السوال ليحيا الناس بالموت جوعاً

ان بعضنا اذا ألمّت بهم مصيبة او خشوا تعاسة او خسارة او كان لهم مصلحة يرغبون في نوالها او ربح يترجونه فلا يهملون شيئاً من الوسائل التي تعلمها الصناعة والحيلة والفطنة العالمية فيفتشون على من يساعدهم ويجزلون له الهدايا ويكثرون له التذلل والتوسل ويلتجئون الى كل من حسبوا له يداً في تنويل بغيتهم ويصرفون ساعات بل اياماً في هذه الامور وفي التبصر والتامل بالوسائل المبلغة الى ما يرغبون ولكن لا يخطر لهم على بال ان يلتجئوا الى الله قبل الجميع بالصلوة لتوفيق مسعاهم ولا يستمدون غوثه في بغيانهم الجائزة ولا يسألونه التفريج من الكرب او المصاب المتهدد لهم او الحالّ بهم كان الله لا مدخل له في امور العالم او كان عنايته وقدرته قاصرتان عن ذلك او كأن مساعينا تكفينا للاستقلال عنه او كأنه لا يُعتمد على وعودهِ باجابة من يتكل عليه فتلك اهانة كبرى لله ينتقم الله لها فيصدق على فاعلها مقال الروح القدس بفم ارميا النبي (ص ١٧ عد ٥) «الويل للذي يتكل على الخليقة بدل الخالق والذي يتخذ سنداً له ذراعاً من لحم» فيخيب امله من النوال وتحبط مساعيه ولا ينفعهُ من اعتمد عليهِ فحينئذ يرفع يديه الى السماء متوسلاً لكن العلي يضحك بهِ لتأخرهِ واعتماده على غيره قبله ومع هذا قد يجيب من كان في هذه الحال حاله فيكون ذلك الاعجوبة رحمة لا توصف يلزم ان تكون لنا درساً نتعلم بهِ ما يجب ان نصنعهُ فيما بعد

انت مريض مرضاً مميتاً وطبيبك قريب منك ولا اعلم منهُ بحالك

ولا اقدر منهُ على علاجك ولا يبتغي اجرةً ولا ثمن دوآء ويكتفي بان تسأَلهُ وتطلب اليهِ فواعجبي كيف لا تسأَلهُ الشفا ليبرئك أتفضل الموت على الحيوة واذا كنت كذلك افتحسب نفسك عاقلاً. انت فقير ومحتاج حتى القوت الضروري في يومك والمحسن صاحب الكنوز الثمينة التي لا تفرغ واقف على بابك يناديك ليهبك مجانًا دون عوض ولا تمنين ايضًا ويعطيك ما تسأَل بل اكثر مما تبتغي فواعجبي لِمَ لا تسأَل لتعطى ولِمَ تفضل الموت جوعًا على الحيوة باحسانهِ الجمّ. انت على خطر مبين والاعداء محدقة بك من كل جانب وفي كل وقت اعداء يزأرون كالاسد ليبتلعوا وناصرك ومنجدك حاضر معك وهو اقوى من جميعهم وينتظر كلمة استغاثة فكيف لا تستنجده بالصلوة اليه انت ابرص وبرص الخطية شرٌّ من برص الجسد الذي كان مصابًا بهِ الابرص الذي سمعت اليوم اية شفائه في الانجيل وقد شفي بمجرد قولهِ للمخلص ان شئت فانت قادر ان تطهرني فطهره بقولهِ قد شئت فكن طاهرًا فواعجبي لِمَ لا تقتدي بهِ وتقول للمخلص ما قالهُ ليطهرك من برص الاثم الذي لا يهلك الجسد فقط بل النفس ايضًا في جهنم

اولادي هل بينكم من لا يفهم ان المراد من قولي السابق بالمريض والفقير والمعرَّض للخطا والابرص انما هو كل منا او بينكم من ينكر اننا لسنا مرضى بحمى الشر والرغبات السيئة المستحوذة علينا بطبعنا المفسود بالخطية او ينكر اننا لسنا بفقرآء نحتاج الى غوث الله ومساعدته في كل وقت وشيء لا سيما في عمل خلاصنا كما قدمت البرهانات المسهبة او ينكر اننا عرضةً للخطر من داخل من قبل ميلنا الى الشر ومن خارج من قبل

العالم والشيطان وان اعداءنا اقوياء الداء وسائل مضرتهم حاضرة وكثيرة او يستطيع كثيرون منا ان يدّعوا انهم اطهار من برص الخطية لعمري لا اظن ان بينكم من ينكر هذه الحقائق البديهية الظاهرة واذا كنا كذلك فكيف لا نتوسل الى الله بالصلوة ليشفي مرضنا ويمن علينا باحسانه وينجينا من الاخطار والاعداء ويطهرنا من برص خطايانا واذا فعلنا العكس فلا يخلو من يتصرف تصرفًا كذا من ان يكون اما ناقص العقل واما ناقص الايمان فايهما تريدون ان تنسبوا الى نفوسكم هل نقص العقل او نقص الايمان فالعقل ارى كثيرين منكم يتباهون بهِ وادراك هذه الحقائق لا يستلزم عقلاً ثاقبًا واما الايمان فجميعكم تعتقدون ما قلته وبرهنته فلمَ اذًا التأخر عن الصلوة كل يوم صباحًا ومساء وهي علاج لمرض نفسنا وغنى لفقرنا ومنجدًا لنا على اعدائنا وعونًا في تجارنا وهي تطهرنا من برص اثمنا

فهذه مفاعيل الصلوة وهذه حاجتنا القصوى اليها ومع ذلك هذا اهمال كثيرين منا لها واغفالهم عنها فلهم وقت لكل حاجة لاكلهم وشربهم وتنزههم وحساباتهم ومعدلاتهم وسهرياتهم وزيارة اصحابهم ولكن شيء واحد لا وقت لهُ وهم احوج اليهِ من كلما سواه وهو الصلوة فهذه لا وقت لها ولا وقت وجيز ايضًا عند القيام من النوم او عند المضي اليهِ ولو بعض دقائق فقط ولا في ايام الصوم المكرسة لعبادة الله وللاهتمام بالنفس هل يحسن ذلك من عاقل حتى لا اقول من متدين ولمَ تغذي جسدك في اليوم دفعتين او ثلاثًا عدا ما تتناولهُ من القهوة والماء وغيرها

ونترك نفسك التي هي اثمن واشرف من الجسد كثيرًا دون غذآء ولو يسيرًا في الصباح والمسآء فهل هي نفس آخر او نفسك وان كانت نفسك فكيف تهملها بهذا المقدار وما هو اغرب من ذلك انما هو ان البعض وليتهم قليلون بيننا لا يكتفون بتقصيرهم عن اداء فرض الصلوة بل ينصلون الى ان يعيبوا غيرهم بكثرتها ويسخرون منه لذلك كأن الاولى بالانسان ان يترك نفسه مريضة دنفة مفتقرة ولا ان يستغيث بالله تلافيًا لحالتها فيا لله من هذه الحماقة والجنون الروحيين

ماذا تخشى من الصلوة هل ان يذهب تعبك سدًى ولا تستجاب فالله الصدق نفسه الحق بعينه وعد بالاجابة ووعده انجاز فاسأل ما تحتاج اليه لنفسك اسأل كما ينبغي اسأل بتواضع وباستحقاق المسيح ودمه ضامن لك الاجابة اسأل ولجّ ايضًا فقد علمنا اللجاجة بقولهِ الحق اقول لكم ان لم يعطِ من اجل الصداقة فهو يقوم يعطيه من اجل اللجاجة اسأل على ثقة من هو ابونا وقد علمنا ان ندعو ابانا الذي في السموات فتنال لا محالة لانه هو القائل ايّ اب يسألهُ ابنهُ خبزًا هل يعطيه حجرًا او يساله سمكة فيدفع له عقربًا اسأل وصلِّ بالورع والاصغاء والتواضع فتنال لان صلوة المتواضع تخرق السحب وتقوم امام العلي فلا تنولك المرغوب تلك الصلوة التي تصليها بالضجر وتشتيت الفكر الاختياري كأنك نائم صلِّ بعبادة فلا تكفيك صلوة بها لا تنتبه الى ما تقول فاذا كنت انت لا تصغى الى ما تطلب فكيف يصغى الله اليك ويجيب طلبك اسأل ما يفيدك روحيًا كان او زمنيًا ولا تدعِ انك اعلم

من الله في معرفة ما يفيدك او يضرّ بك لتغشل من عدم الاجابة وتمتنع عن الصلوة فيما بعد فان صليت كما ذكرت فلا غرو انك من الخالصين والاّ فمريض اهمل الدواء وفقير يمتنع من الطلب وهو في الفاقة القصوى ومحاط باعداء اقوياء لا يستنجد ولا يصرخ ليس امامهم الا الموت والتهلكة نجانا الله واياكم جميعاً بنعمته من الهلاك الابدي امين

الموعظة الثالثة

القاها في الاحد الثالث من الصوم في ٢١ شباط سنة ٧٥

في النعمة الكافية والعماء الروحي

كم من مرة اردت ان اجمع بنيكِ كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا فهوذا يُترك لكم بيتكم خراباً . متى ص ٢٣ عد٣٧ ذكرت في خطبتي الاحد الماضي تقسيم نعمة الله الى فعّالة وكافية واشرت اشارة لضيق المقام الى ان النعمة الكافية للخلاص يعطاها كل احد ولا يستطيع احد من الناس ان يشكو الله بانه مَلَك انتقاص النعمة عنه فوجب الان ان اكمل كلامي بهذا الشان واطيل ما اوجزته قبلاً مثبتاً وجود هذه النعمة الكافية وتوزيعها على كل من مراتب الناس اي الابرار منهم والمومنين والغير المومنين والاطفال والخاطئين ومن عميت بصيرتهم بالاثم ايضاً ليظهر من ذلك فضل الله ورحمته ولابين اخيراً ما اتعس حال الخطاة المعمين بالاثم والمصرّين عليه واحذر من

هذا العماء الروحي المهلك فاصغوا على حيد عادتكم واستمدوا نعمة التنوير الخ

القسم الاول

كما انهُ من الموكد وجود نعمة تصدر المفعول الخلاصي الممنوحة لاجله من الله وهذه هي النعمة الفعّالة هكذا من الموكد وجود نعمة لا يصدر عنها المفعول الخلاصي الممنوحة لاجله من قبل مقاومة ارادة الانسان المطلقة لها وهذه هي النعمة التي نسميها كافية بمعنى انها كانت تكفي الانسان لانشاء الفعل الصالح الخلاصي لو لم يقاومها بحريته . قد انكر وجود هذه النعمة كل مَن انكروا اختيار الانسان المطلق فان انكار الحرية على الانسان ينتج منه بلا بدّ ان ارادته لاتستطيع ان تقاوم النعمة ولهذا انكر المحدثون النعمة الكافية اصالة فقال كلوينوس (في كتاب رسومه) « ان الله يحرك الارادة لا كما علّم الناس واعتقدوا في اجيال كثيرة بانهُ يكون باختيارنا بعد ذلك ان يطاوع الحركة او يقاومها بل ان الله يحرك الارادة بمعنى انهُ ينشيء الارادة فينا » وقد تبع ينسانيوس اثار كلوينوس بهذا التعليم ولكن ايات الكتاب المقدس في العهدين نصوص صريحة في ردّ ما يزعمون فاكتفي بايراد بعضها فقط

قال الله في نبوة ايشعيا (ص ٥ عد ٤) موبخاً اليهود « احكموا بيني وبين كرمي ماذا كان واجباً ان اصنع لكرمي ولم اصنع وانتظرت ان يصنع عنباً فصنع خروباً » فيوضح الله انهُ فعل من قبله لشعبه

اليهودي كلما كان لازمًا ان يصنع ولم ينقص شيئًا من جوده ورحمته ليرتد شعبه اليه ويصنع الخير فلم يرتد وصنع الشر فما هو صنع الله كلما كان لازمًا من نحوه الاّ منحه النعمة الكافية ليرتدوا اليه ويحفظوا شريعته لو شاؤوا فلم يشاؤوا فاذًا توجد نعم يتعطل مفعولها لمقاومة ارادة الانسان لها وهي النعمة الكافية وقال اشعيا ايضًا (ص ٥٢ عد ٢) ما استشهده الرسول (رومية ص ١٠ عد ٢١) «اني بسطت يدي النهار كله على شعب مخاصم وغير مطيع» فما ذلك الاّ توبيخ لليهود على ان الله بسط يديه النهار كله اليهم مقدمًا لهم نعمًا خارجية وداخلية فكانوا لتلك النعم مقاومين وغير مطيعين . وقال في الامثال (ص ١ عد ٢٤) «دعوت فابيتم بسطت يدي فلم يكن من ينظر رذلتم كل مشوراتي واحتقرتم توبيخاتي فاضحك من هلاككم» فهل اوضح من هذه الايات المصرّحة بمقاومتهم للنعمة التي نسميّها كافية . وقال المرتل (مزمور ٩٤ عد ٣٠) «اليوم ان انتم سمعتم صوته فلا تقسّوا قلوبكم فما المنفعة من كلام المرتل هذا اذا كان الانسان لا يستطيع ان يقاوم النعمة ولا ان يقسّي قلبه

ومن ايات العهد الجديد يكفينا ما استهللنا بهِ «كم من مرة اردت . . . فلم تريدوا» فاذًا يريد الله احيانًا امورًا ولا يريدها الانسان. فيكون من جانب الله النعمة ولكن لا يحصل المفعول لعدم ارادة الانسان لهُ وما هي النعمة الكافية غير ذلك . ولا نكتفي بهذه الاية بل نورد بعض الايات المثبتة هذه الحقيقة من العهد الجديد . روى مار متي

(ص ١١ عد ٢٠) ان المخلص « ابتدأ يعيّر المدن التي صُنعت فيها ايات كثيرة لانهنَّ لم يتبنَ قائلاً الويل لكِ ياكورزين الويل لكِ يابيت صيدا لانهُ لو كانت في صور وصيدا الايات التي كانت فيكما لتابتا بالمسح والرماد الحق اقول لكما انهُ يكون لصور وصيدا راحة في يوم الدين اكثر منكما » فاذا كان سكان كورزين وبيت صيدا يستطيعون ان يتوبوا الى الله فكانوا سببًا لعدم توبتهم فعلاً ولهذا سيعاقبون فاذًا كانت لهم النعمة الكافية . وقد جاء في اعمال الرسُل (ص ٧ عد ٥١) ان القديس اسطفانوس انتهر اليهود قائلاً « انتم تقاومون دائمًا الروح القدس نظير ابائكم » فاذًا وبخ رئيس الشمامسة اليهود على انهم جعلوا نعم الروح القدس الداخلية والخارجية المعدة لارتدادهم وخلاصهم باطلة ولا ثمرة منها وقال الرسول (رومية ص ٢ عد ٤) « اما تعلم ان سهولة الله (او رافته على ما في اللاتينية) انما هي لتقبل بك الى التوبة لكنك بقساوة قلبك الغير التائب تدخرُ لك ذخيرة الغضب » فاي محل للكلام في سهولة الله او رافته ان كان لا يمنح الانسان نعمًا كافية لتوبته واي طائلٍ لتونيب الانسان على قساوة قلبه ان كان ليس لهُ نعم كافية من قبل الله او ان كان لا يمكنه ان يطاوع النعمة او يقاومها . وقال ايضًا (في قرنتية ٢ ص ٦ عد ١) « نطلب منكم الاَّ تبطل فيكم نعمة الله » فكيف تبطل نعمة الله في الانسان الاَّ بمقاومته لها وجاء في الرؤيا (ص ٣ عد ٢٠) « هانذا انا قائم على الباب اقرع فمن يسمع صوتي ادخل اليه واكل معه وهو معي » فالبيّن من ذلك ان الله يقرع ابواب

قلوبنا متواترًا بتنويرات النعمة الكافية وتحريك الارادة للخير ولكن المفعول الخلاصي المقصود من هذه النعم لا يتوصل اليه بالاطلاق بل بشرط ان يسمع الانسان صوت الله ويطاوع نعمته وما هذه النعمة الاّ الكافية. ولئلا يكون كلامي مملاً اقول انهُ من الواضح بايات العهدين وجود النعمة الكافية وشهادات الاباء تزيد هذا تأييدًا الاَّ اني اعدل عن ذكرها اختصارًا

فهذه النعمة الكافية يوزعها الله مجانًا على جميع الناس ولا يمكن لاحد ان يشكو عدم حصوله عليها او وصوله اليها هذا وان الناس اما مومنون واما غير مومنين والغير المومنين اما سمعوا بشارة المسيح او لم يسمعوا شيئًا عنها واما هم اطفال ماتوا قبل المعمودية والمومنون اما ابرار واما خطاة والخطاة اما تقسى قلبهم وعمي بالخطية او لا ولهذا كانت اقسام الناس على هذا النحو ستة اي غير مومنين وقد سمعوا بشارة المسيح وغير مومنين ولم يسمعوا بها ثم اطفال ومومنون ابرار ومومنون خطاة اعتياديون ومومنون خطاة قست قلوبهم وعميت بصائرهم فننظر في منح الله النعمة لكل قسم من هولاء

اما الغير المومنين الذين سمعوا بشارة الانجيل فامرهم واضح فان سماعهم بهذه البشارة نفسه نعمة كافية لهم ليرتدوا الى الايمان الصحيح فاذا آمنوا انفتح لهم كنز النعم الالهية وعليه فان هلكوا هلكوا لمقاومتهم نعمة الدعوة الى الايمان وبالتالي لذنبهم لا لعدم فوزهم بنعمة تخلصهم باستحقاق المسيح

فالصعوبة من قبل الغير المومنين الذين لم يسمعوا بشارة المسيح فهل لهولآء ايضاً النعمة الكافية فمن المؤكد انهم ما داموا غير مومنين لا يقبلون نعماً فائقة الطبيعة تصدر افعالاً ذات استحقاق خلاصي لانهُ من دون الايمان لا يستطيع احد ان يرضي الله كما يقول الرسول (عبرانية ص ١١ عد ٦) والايمان مبدا التبرير كما رسم المجمع التريدنتيني (مجلس ٦ راس ٨) فالنعم التي يعطونها اذاً دوائية يمكنهم بها ان يعملوا بالشريعة الطبيعية وينتصروا على التجارب والمصاعب التي تحيل بينهم وبين حفظها والاعمال التي تصدر بواسطة هذه النعم تكون جيدة جودة ادبية واذا سعى الغير المومنين مع هذه النعم وعملوا بفرائض سنة الطبيعة منحهم الله مساعدات اعظم منها الى ان يدعوهم برحمته المجانية الى الغاية الفائقة الطبيعة مرشداً لهم الى الايمان بالمسيح ولا يعسر على الله ايجاد وسيلة لذلك اما بمبشرين يبعثهم اليهم واما بوساطة ملاك واما بنقلهم الى محلات المومنين بسبب ما واما بالهام باطل فهو على كل شيء قدير وهو ينبوع الحكمة فلا تعوزه واسطة لذلك فتكون تلك النعم الدوائية الاولى بمنزلة النعمة الكافية عن بعدٍ للغير المومنين ليرتدوا الى الايمان ويخلصوا اذا لم يقاوموا تلك النعم. وبعضهم يُعطى نعماً كافية حقيقة وعن قرب مثلاً لاشك بانِ خصي قنداق ملكة الحبشة المذكور في الابركسيس (ص ٨ عد ٢٧) وكورنيليوس قائد المائة المذكور هناك ايضاً (ص ١٠ عد ١) قبلاً نعماً داخلية وفائقة الطبيعة قبل ان يقبلا الدين المسيحي والمعمودية

هذا وينبغي ان تعلموا انهُ اذا امكن ان يوجد غير مومن لم يسمع بشارة المسيح وكان حافظًا وصايا شريعة الطبيعة وتوفي قبل ان تتيسر لهُ واسطة لاعتناق الايمان فعلاً او رغبة فيحصل على سعادة طبيعية بحسب استحقاق افعاله الجيدة جودة ادبية وطبيعية ولا يكون الله ظالمًا لهُ لانهُ لا يحكم عليه بعذاب واما مشاهدته تعالى وجهًا بازآء وجهٍ فليست من حقوق طبع الانسان بل تفوق طبعه ولا تكتسب الاَّ باستحقاق المسيح وهوذا البرهان اللاهوتي اولاً ثم البرهان بآيات الوحي على ان الغير المومنين يعطون نعمًا وان لم يسمعوا بشارة المسيح

ان طبع الناس جميعهم واحد فغاية جميعهم واحدة وجميعًا خلقهم الله ليعبدوه ويدركوا السعادة الابدية وكلهم خلقوا على صورته ومثاله وكلهم اصلح ابن الله طبعهم الذي افسدته الخطية بواسطة تجسده وموته الذي قدمه لله ابيه وفآء عن الناس اجمع فوفى عن الخطايا كافة واستحق النعم الخلاصية للناس اجمع ليمكنهم بها بعد سقوطهم ايضًا ان يبلغوا الى الغاية الفائقة الطبيعة فالناتج من ذلك نتجًا مستفيمًا ان الله اراد ان يدرك جميع الناس السعادة الابدية بحفظهم الاوامر الالهية ومن حيث ان ارادة الله هي نفس الحكمة التي تتوصل من غاية الى غاية بقوة وتدبر كل شيء بعذوبة فلهذا تمنح الناس الوسائل الكافية على الاقل ليمكنهم بها ان يبلغوا الغاية التي فرضها الله لهم ولا يمكن استثنآء الغير المومنين من عدد الناس. ثم ان ارادة الله هي الشريعة السامية التي يلزم ان يخضع لها الناس اجمع ولهذا يلزم جميعهم ان يسعوا نحو غايتهم وان

يحفظوا وصايا الله والحال ان هذا لا يمكنهم صنعه دون نعمة فائقة الطبيعة وقد تنزه الله عن ان يامر احدًا بما يفوت امكانه ولا يساعد على الاقل بوسائط كافية للعمل بامره فاذًا يمنح بلاشك الناس اجمع النعم الكافية ولو عن بعد اللازمة لحفظهم وصاياه والغير المؤمنين من جملة الناس فينالون اذًا نعمة كافية ولو عن بعد تعدّهم للخلاص ان سعوا معها

اما الكتاب المقدس فكثيرًا ما ذكر لنا ان جودة الله ورحمته شاملة الناس اجمع دون استثناء ومن ذلك قوله في سفر الحكمة (ص ١١ عد ٢٤) « انك ترحم الجميع لانك على كل شيء قدير ... لانك تحب كلما هو موجود ولا تبغض شيئًا مما صنعت » فكيف يرحم الجميع ويحب كل موجود اذا كان لا يمنح الجميع النعمة الكافية ليمكنهم بها ادراك التبرير والخلاص ولا يمكن تخريج قوله الى المختارين وحدهم لان السبب الذي يورده لرحمته تعالى ومحبته للجميع انما هو خلقه لهم وهو احسان يعم المختارين وغيرهم . قال مار يوحنا في المسيح (ص ١ عد ٩ من بشارته) « انهُ كان النور الحقيقي الذي ينير كل انسان آتٍ الى العالم وقد فهم الاباء بالنور في هذه الاية النور الفائق الطبيعة الذي ينبعث بنعمة الفادي فاذًا المسيح ينير الغير المومنين ايضًا لانهم بلا مراء من جملة الاتين الى العالم . ولهذا سمّى المخلص نفسه نور العالم « انا هو نور العالم » (يوحنا ص ٨ عد ١٢) ويريد بالعالم هنا النوع البشري باسره اي جميع الناس دون استثناء وقال الرسول (رومية ص ١٠ عد ١٢) « ولم يفرق

في هذا بين اليهود واليونانيين لان رب الجميع غني لكل من يدعوه" وقال (هناك ص ١١ عد ٣٢) "قد حبس الله كل احد تحت المعصية (في اللاتينية عدم الايمان) ليترأف على جميع الناس" وقال في رسالته الاولى الى تيموتاوس (ص ٢ عد ١) "اسألك قبل كل شيء ان نقدم لله صلوة وتوسلاً وشكرًا عن جميع الناس ... ان هذا حسن ومقبول عند الله محيينا الذي يشا ان جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون لان الله واحد والوسيط بين الله والناس واحد الانسان يسوع المسيح الذي بذل نفسه فداءً عن كل انسان" فاذا كان الله لا يمنح الغير المومنين ولو النعم الكافية فقط للخلاص فلا يمكن ان يصدق القول انهُ يشا ان يخلص الجميع او انهُ يترأف على الجميع ويكون فرقٌ بين الناس مومنين وغير مومنين بهذا الخصوص ونكتفي بهذا اليسير

كما نكتفي من شهادات الاباء بقول القديس امبروسيوس (في خطبة ٨ على مزمور ١١٨) مفسرًا قول المرتل امتلأت الارض من رحمة الرب "ان الشمس مأمورة ان تشرق على الجميع وهي تصنع كذلك واما شمس البر الروحي فمشرقٌ للجميع واتى الى الجميع ومات وقام للجميع وتالم ليرفع خطايا العالم فمن لا يومن بالمسيح يعدم نفسه من الاحسان العام كمن يحجب اشعة الشمس بغلقه النوافذ فلا تكون الشمس غير مشرقة للجميع اذا احرم احد نفسه من حرارتها فالشمس تبقى على ما لها من الخواص والجاهل يخسر نفسه نعمة النور العام" ويقول فم

الذهب (في خطبة ٨ في يوحنا) ان المسيح «« اذا كان ينير كل انسان آتٍ الى هذا العالم فكيف يبقى اناس كثيرون خالين من النور اذ لا يعرف الجميع المسيح فكيف ينير اذًا كل انسان والجواب انهُ ينير بمقدار ما يلزم من جهته فاذا اختار بعضهم ان يحوّلوا اعينهم عن اشعة هذا النور كان استمرارهم في الظلمة من قبل خبثهم لا من قبل طبع النور فهم قد جعلوا انفسهم بطواعيتهم غير اهل لهذه الموهبة العظيمة فالنعمة مفاضة على الجميع فلا تترك احدًا ولا تحتقر احدًا يهوديًا كان او روميًا او بربريًا او تتريًا حرًّا كان او عبدًا رجلًا او امراة شيخًا او شابًا فهي نعمة واحدة للجميع ميسرة للجميع تدعو الجميع باكرام متساوٍ واما من لم يشاول التنعم بهذه الموهبة فيلزمهم ان ينسبوا عماهم الى نفوسهم»» ونكتفي ايضًا بقول ماري توما (في تميز ٤٠ بحث ٤ جزء ٢) «« يعرض خلو الانسان من النعمة لوجهين اما لانهُ لا يشا ان يقبلها . اما لان الله لم يسبغها عليه او لم يشا ان يسبغها ومن شان هذين الوجهين ان الثاني لا يكون الّا على افتراض الاول فالله لا يريد الّا الخير وبالتالي لا يريد ان يخلو الانسان من النعمة الّا اذا كان ذلك خيرًا والحال ان خلو الانسان من النعمة لا يكون خيرًا بالاطلاق وعليه فاذا اعتبرنا هذا بالاطلاق فلا يكون مرادًا من الله على انهُ من الخير ان يخلو الانسان من النعمة اذا لم يشا قبولها او اذا تقاعد عن امتلاكها لان ذلك امر عادل وعلى هذا الوجه يكون مرادًا من الله فيظهر اذًا ان العلة الاولى لهذا النقص انما هي من جانب الانسان الخالي من النعمة واما من جانب الله فليس هو

تعالى علة لهذا النقص الاَّ بافتراض ما هو علة من جهة الانسان»

فما اوردته من ايات الوحي وشهادات الاباَء انما هو على سبيل المثال وهو كافٍ لاقامة البرهان على ان نعمة الله معدة من نحوه للجميع وبالتالي للغير المومنين ايضاً ولو لم يسمعوا ببشارة المسيح

والصعوبة اعظم من جهة الاطفال الذين يموتون قبل ان يعتمدوا فمن اعتمد منهم تُطهر من الخطية الاصلية وتجمل بنعمة التبرير ونال الحيوة الابدية وحسن القول ان الله اعتنى بخلاص الاطفال بواسطة المعمودية واما من مات منهم خلوّاً من هذا السرّ فامره من المشاكل المربكة بهذا المعنى فهل يمكن القول ان الله اراد خلاص هولآء الاطفال واعدّ لهم الواسطة للحصول عليه وخاصة هل بذل عناية كافية في مباشرة هذه الواسطة لهم فعلى هذا اجاب كثير من اللاهوتيين بنعم وبعضهم بلا وللجوابين مبادي اكيدة وراهنة ولها اعتراضات مشكلة فمن قالوا ان الله اعدّ من قبله للاطفال المتوفين دون معمودية الوسائل الكافية لخلاصهم اسندوا قولهم الى المبادي الاتية . الاول ان الله يريد خلاص الاطفال ايضاً لانهم من جملة الناس الذين يريد خلاص جميعهم واذا تاكد انهُ اراد خلاصهم تاكد انهُ اعدّ لهم الوسائل الكافية لهذا الخلاص . الثاني ان المسيح مات عن هولآء الاطفال ايضاً واراق دمه رغبة في تخليصهم لانهُ مات عن جميع الناس واستحق لجميعهم الخلاص فاذا استحق واعدّ للاطفال المذكورين الوسائل المبلغة لهم للخلاص . الثالث ان المسيح انشأ المعمودية لجميع الناس وبالتالي للاطفال ايضاً وعليه يكون اعتنى

بخلاصهم بكل حكمة ورافة واما اذا توفي بعضهم دون واسطة الخلاص هذه فيكون ذلك اما بذنب الناس وكسلهم لقتلهم اياهم في حشاء امهاتهم او لاغفالهم عن تعميدهم واما دون ذنب من الناس ولكن لعلل طبيعية كأن يموتوا في بطون امهاتهم او يعاجلهم الموت قبل تعميدهم . ففي الاول يلزم نسبة عدم فوزهم بالنعمة الى كسل الناس او ذنبهم اذ يكون الله اعد لهم الوسائل الكافية وشر الناس احرمهم استعمالها لهم . واما في الثاني فالمشكل اكبر لان الله من حيث هو مدبر الكون لا يكون اعتنى بالكفاية بخلاص الاطفال فان كل معتنٍ يلزمه ازالة ما يعيق عنايته لتكون كافية فاللاهوتيون الذين هذا رايهم يسلمون بان الله مدبر الطبيعة وقد سبق فراى موت الاطفال دون معمودية حاصلاً من العلل الطبيعية وانكروا ان الله قصد هذا وقالوا بل انهُ لم يشا فقط نقض نظام الطبيعة وتوقيف مجراها ومثلوا لذلك بالطبيب فانهُ يكون اعتنى بالعليل بالكفاية اذا بعث اليه بعلاج كافٍ ولو قتل حامل العلاج في الطريق او مات . ومثلوا لهُ ايضاً بمن ارسل مبلغاً من الدراهم لافتداء اسرى فانهُ يُعتبر انهُ اعتنى من جانبه بافتدائهم ولو وقع الرسول في يد اللصوص فسلبوا المبلغ منه او بادت الدراهم بالغرق وقالوا هكذا يكون الله اعتنى بدواء لتخليص الاطفال وباستعمال هذا الدواء لهم وان لم ينتفعوا بهِ اما لذنب من الناس واما لعلل طبيعية منعتهم من قبول المعمودية ولا ينقض هذا البرهان قول المعترضين ان المعتني يلزمه ان يزيل ما يعيق عنايته لان هذا يصدق على معتنٍ خاص لا على معتنٍ

عام فان المعتني العام على ما قال مار توما قد يضطر احيانًا الى ان يسمح بضرر يحصل لقليلين لئلا يمنع الخير الذي يعم الجميع وهنا لا يشا الله توقيف مجرى الطبيعة العادي العام طلبًا لترقية فرد الى ما هو فوق طبعه اي الى السعادة الفائقة الطبيعة فان الاطفال الذين يموتون دون معمودية لاعذاب عليهم بل لهم سعادة طبيعية اي بقدر ما يستحق طبعهم كما ذكرنا قبلاً في خطبتنا في الخطية الاصلية

واما الذين ينكرون ان المسيح اعدّ للاطفال الذين يموتون دون معمودية الوسائل الكافية للخلاص فيبرهنون هكذا ان هولآء الاطفال ليسوا اهلاً لاستعمال العقل والارادة فلا يمكنهم قبول نعمة الاّ النعمة التي تُعطى بالمعمودية والحال انهم لا يتعمدون فاذًا لا يُعطون نعمة . فيجيب اصحاب الراي الاول على هذا البرهان ان الله يريد ان يتعمد هولآء الاطفال ارادة سابقة لاارادة تابعة وعلة عدم تعميدهم فعلاً ليست ارادة الله بل ذنب والديهم او مجرى العلل الطبيعية التي تميتهم قبل المعمودية كما قدمنا . فيقول اصحاب الراي الثاني ان هذا الرد غير سديد لان الارادة السابقة يخصها انشآء سرّ المعمودية اي اعداد الدوآء والارادة التابعة يخصّها استخدام السرّ اي استعمال الدوآء واذا لم يحصل هذا الاستعمال لم يكن نفع من اعداد الدوآء . فاذًا حين نرى بعض الاطفال يموتون معمدين وبعضهم دون معمودية فليس لنا ان نقول الاّ ان الله اعدّ الاولين بسخائه المجاني الى الاعتماد والخلاص واهمل الاخرين من هذه النعمة عدلاً من جرى الخطية الاصلية فهذا ما يقوله اصحاب الراي

الثاني وهم كاثوليكيون ايضاً وعليه فالرايان مقبولان في الكنيسة وقد علّم بكل منهما كثير من الاباءَ ومشاهير اللاهوتيين فبايٍّ منهما تمسكنا فلا جناح علينا

وان حق لي ان اتكلم بشيء بين اللاهوتيين والعلماء فاقول انهُ يظهر لي ان اعداد الله نعمه لجميع الناس دون استثناءَ الاطفال الذين يموتون دون معمودية ايضاً هو امر لا ريب بهِ لان ايات الكتاب صريحة بانهُ يريد خلاص جميع الناس وان المسيح مات عن جميعهم ووفى عن خطايا كلهم واستحق النعمة لجميعهم ولا يمكن ان يتصور في جانب الله ارادته باستثناءَ الاطفال من عدد الناس كما انهُ لا ريب من الجهة الاخرى ان هولاءَ الاطفال لا يحصلون فعلاً على نعمة التبرير التي اعدّها الله لهم كباقي الناس وهذا النقص ليس من قبل الله بل من قبل الناس ومن قبل الفواعل الطبيعية وكما ان الانسان البالغ يخسر نفسه النعمة بفعله دون ان يكون هذا النقص من جانب الله هكذا يمكنه ان يحرم الاطفال هذه النعمة اما بسعيه بموتهم اما باهماله تعميدهم دون ان يكون النقص من جانب الله وكذا قل في الفواعل الطبيعية الذي تخسر هولاءَ الاطفال وسيلة الخلاص بالمعمودية فان عدم انتفاع الاطفال بهذه النعمة ليس من ارادة الله عدم نفعهم بل من عدم ارادته توقيف مجرى هذه العلل الطبيعية وهذا عائد لخير الناس العام ايضاً اذ انهُ يجعل الاباءَ يحرصون على حيوة اولادهم ويوقونهم المخاطر والمعاطب لانهم لو ايقنوا بان الله يحفظهم قبل المعمودية من كل ضرٍّ وخطر لقل اهتمامهم

بوقايتهم ثم لا الزام على الله ان يغيّر نظام الطبيعة ويصنع العجائب في كل وقت حتى لا توثر المضار والامراض بهولآء الاطفال والاّ لوجب عليه تعالى مثلاً ان يقي طفلاً من نارٍ القي بها بتوقيفه فاعلية النار الطبيعية وصنع اعجوبة وما من قائل بالزام لله في صنع العجائب على ماثور الناس هذا ولا تنسوا ما قدمته من ان الاطفال الذين يموتون دون معمودية لا يتعذبون في الجحيم اذ لا خطية فعلية لهم والخطية الاصلية وان اوجبت بعدهم عن الله لانهُ لا حق لهم بمقتضى طبعهم على مشاهدته فلا توجب تعذيبهم وهذا الحق على مشاهدته تعالى اوجبه سخاء الله قبل خطية آدم ومن بعدها اوجبه للناس استحقاق المسيح ولذا لا يشكى الله بالظلم من قبل هولآء الاطفال البتة لانهُ يمنحهم من السعادة ما يقتضيه طبعهم على القول الاظهر والاحق واذا بقي شيء من الصعوبة في امر الاطفال فيلزمنا ان نهتف مع الرسول « يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه احكامه لا يدركها احد وسبله لا تفحص من عرف ضمير الرب او من كان لهُ صاحب مشورة » (رومية ص ١١ عد ٣٣)

فلنات الى الكلام في المومنين واولاً في الابرار فالايمان الكاثوليكي يعلّم ان الابرار اجمع لاسيما الذين يريدون ويجدّون في امر خلاصهم يمنحهم الله النعمة الكافية حقيقة وبالنسبة الى الظروف لحفظ جميع الوصايا وهذه العقيدة يثبتها البرهان اللاهوتي وايات الكتاب وشهادات التقليد

فكلما اوردناه بالخطية الماضية وفي كلامنا هنا مما يثبت لزوم

النعمة للاعمال الخلاصية يثبت هذه الحقيقة لانهُ اذا كان لازمًا ان يمنح الله النعمة بجوده ورحمته فمن اولى بها من ابراره وخلانه الذين يحبهم كما يقول «ان الرب يحب ابراره» (مزمور ١٤٥) وليست المحبة في الله الاَّ منحه الخير والنعمة لاسيما اللازمة لخلاص خلانه الابدي وسعادتهم الروحية وهذا ما لا يتوقف بهِ لانهُ واضح فسبيلنا ان نورد ايات الوحي المثبتة ان حفظ الوصايا الالهية ممكن وان الله يمنح الابرار النعمة الكافية لحفظها وهذه الايات كثيرة فنجتزي بذكر بعضها . ان الله بعد ان نزَّل الشريعة على موسى قال لشعب اسرائيل «ان هذه الوصية التي امرك بها اليوم ليست اعلى منك ولا بعيدة عنك... بل كلمة قريبة منك جدًّا في فمك وفي قلبك لتعمل بها» (تثنية ص ٣٠ عد ١٢) فاذًا لم يكن الاسرائيليون يعرفون فقط ما امرهم الله بهِ بل كان يمكنهم ان يعملوا بهِ ايضًا والحال انهُ لا يمكن احد ان يعمل شيئًا خلاصيًّا دون النعمة فاذًا لم تكن تعوزهم النعم الكافية لحفظ الوصايا واذا كان هذا لبني العهد القديم فكم يكون اولى بهِ ابناءَ العهد الجديد عهد النعمة وقال المرتل عينا الرب على الابرار واذناه تصغيان الى صلواتهم (مزمور ٣٣ عد ١٥) فما هي عينا الله واذناه وما المراد بها الاَّ التعبير عن منحه النعم لهم وقال المرتل ايضًا في الابرار «لانهُ يوصي ملائكته بك ليحفظوك في طرقك كلها وعلى ذراعيهم يحملونك لئلا تعثر بحجر رجلك» (مزمور ٩٠ عد ١١) وقال بعد ذلك «يدعوني فاستجيبه وانا معه في التجربة فانقذه واخلصه» ومن الغريب عن الصواب ان نقول ان

الله يكون مع البار في الامور الزمنية ويهمله فيما هو اهم منها وهو امر الخلاص وما اوضح قول المخلص «من يحبني ابي يحبه واليه ناتي وعنده نصنع منزلاً» فكيف ياتي ابن الله وابوه الى من يحبه ويتخذ منزلاً عنده الاَّ بنعمته وقال المخلص ايضًا ان نيري طيب وحملي خفيف (متى ص ١١ عد ٣٠) فشريعة المسيح صارمة صعبة لكنه يخفف حفظها بنعمته وقال الرسول «ان الله امين لا يدعكم ان تجربوا اكثر مما تطيقون بل يجعل لتجربتكم مخرجًا» اي يساعدكم بنعمته على الظفر بالتجربة . فاكتفي بهذه الايات القليلة واعدل عن ذكر شهادات الاباء لانها اكثر من ان تورد وليس من يستطيع ان ينكر تعليمهم ضرورة النعمة لكل عمل خلاصي وان النعمة لا تنقص عن احد الناس وان وصايا الله ممكنة الحفظ بنعمته

واما الخطاة الذين لم يقسوا قلبهم بعد فنقول فيهم ان كل انسان اثم اثمًا ثقيلاً بعد تبريره بالايمان والمعمودية خسر النعمة المبررة وامسى عدوًّا لله محكومًا عليه بالهلاك المؤبد ومن المؤكد ان الخاطي لا يستطيع دون نعمة الله ان يقلع عن الخطية ويتوب الى الله راجعًا الى حالة البر وقد اجمع اللاهوتيون على ان الله يمنح الخطاة المومنين الغير المعميين بالاثم النعمة الكافية ليستطيعوا الارعواء عن اثامهم وعمل التوبة وليس المعنى في ذلك ان الله يمنحهم النعم في كل دقيقة بل يمنحهم اياها في المكان والزمان وفي الظروف الموافقة والدليل عليه من قول المخلص انه اتى ليدعو الخطاة ومن امره رسله وتلاميذه وخلفاهم بتبشير

الغير المومنين والخطاة وانذارهم ومن ابداعه سرّ التوبة ومن امره بالنصح الاخوي ومن استدعائه الاثمة الى الرجوع اليه الى غير ذالك من البينات على ان كل هذا يفيد بمجرد ذاته اذا لم تحرّك نعمة الله الانسان الى التوبة والندامة ولو كان الله ينكر هذه النعمة على الاثمة لكان كلما تقدم عبثًا وهذرًا

وان احببتم ان تسمعوا شيئًا مفصلاً من ايات الكتاب التي يستدعي بها الله الخطاة الى التوبة فاورد بعضها قال في نبوة حزقيال (ص ١٨ عد ٢٣) «العل اراد تي موت المنافق يقول الرب وليس ان يرجع عن طريقه الردية ويحيا» وقال هناك ايضًا (ص ٣٣ عد ١١) «حيٌّ انا يقول الرب لا اريد موت المنافق بل ان يرجع عن طريقه ويحيا فارجعوا ارجعوا عن طرقكم الردية لماذا تموتون يابيت اسرائيل» ومن حيث ان الانسان لا يمكنه الرجوع دون نعمة الله فلو كان لا يمنحه هذه النعمة لكان كلامه هذا تهكمًا وضحكًا من الانسان ومن هذه الايات ما يدل على رافة الله بجميع الناس ومحبته لجميعهم ومنها اقوال المخلص وامثاله الدالة على قبوله الاثمة بل طلبه لهم كمثل الابن الشاطر والمرأة التي اضاعت الفلس والراعي الذي ضل لهُ خروف من مائة وتصريحه ان الاصحاء لا يحتاجون الى طبيب بل المرضى وانهُ ما اتى ليدعو الصديقين بل الخطاة وتعليمه لنا طلب المغفرة منه واستدعاؤه المتعوبين وثقيلي الاحمال ليريحهم وهذا ما يغني وضوحه عن التطويل بهِ فاذًا النعمة الكافية معدّة للخطاة الاعتياديين ايضًا

فبقي علينا ان نتكلم في الخطاة الذين قسا قلبهم واظلمت بصيرتهم فنقول ان الله وان تنازل برحمته الغير المتناهية ان يدعو الخاطئين الى التوبة بنعم داخلية هي الالهامات والتنويرات العقلية وتحريك الارادة وبنعم خارجية كالمصائب والامراض وما اشبه وكالتوفيق والسعد والصحة ايضًا فمع ذلك يغمط كثير منهم نعمة الله ويأبون الارعواء عن اثامهم ويقسو قلبهم فتتملك بهم الرذيلة فتعمى بصيرتهم ويزدادون شرًّا وتعاسة ما ازداد وطال استحواذ الرذيلة عليهم فهولاء من نسميهم خطاة قست قلوبهم وعميت بصيرتهم . وفيهم بين اللاهوتيين بحث هل يسلب الله عنهم كل نعمة كافية لتدعوهم الى التوبة او يمنحهم نعمة ما ليقلعوا عن اثمهم ويرتدوا اليه . فاوجب بعض اللاهوتيين منح النعمة لهم وانكره بعضهم ووفق اخرون بين الرايين فقالوا ان هولاء يعطون احيانًا بعض نعم كافية ولو عن بعد ليتوبوا ولكن تُسلب عنهم نعم كثيرة وهذا التوفيق هو اظهر واحسن من الرايين

. وعليهِ نقول ان هولاء الخطاة يمنحهم الله احيانًا نعمًا كافية تمكنهم من الرجوع عن طريقهم المهلكة والدليل على هذا ان الانسان ما دام حيًّا فهو مسافر في طريق هذه الحيوة ولهُ غاية لا يعتريها تغيير هي ان يعبد الله وينال السعادة فكيف يكون باقيًا في الطريق ولا تبقى لهُ غايته فمما ينافي حالته ان يكون معدومًا من كل استطاعة على الوصول الى الغاية المفروضة لهُ . دليل آخر من الموكد ان الغفران يقتضي الرجاء واساس الرجاء وعد الله واليأس اي قطع الرجاء اثم كبير والحال اذا

كان الله لم يعد الخاطئين بالمغفرة ولو معمين بالاثم فلا يمكنهم ان يترجوا المغفرة ولا يعود ممكنًا احتساب اليأس بين الخطايا اذ يضحي صوابًا وحقيقة وما من قائل بذلك . هذا واننا نراه تعالى تكرم بنعم على خطاة مشهورين كالمجدلية وزكا العشار واللص الذي صُلب من عن يمينهِ وغيرهم وترى الكنيسة تأمر الكهنة لاسيما عند الموت بان لا ينكفوا عن ارشاد الخطاة ولو مهما كانوا انحشوا في اثمهم فهي تفترض اذًا ان الله لم يحجب عن هولاء كل نعمة

ولنا ايات كثيرة من الكتاب المقدس تبرهن ذلك فان جميع الايات التي يستدعي الله بها الخطاة الى التوبة دون استثناء وقد ذكرنا بعضها آنفًا يتبين منها ان الله لا يهمل الخاطئين من كل نعمة ولو اعماهم اثمهم ولنا ايات توضح هذا بالخصوص منها قول اشعيا (ص ٤٥ عد ٢) « بسطت يدي النهار كله الى شعب مخاصم وغير مطيع » فلامراء ان الكلام في ذلك على خطاة اعماهم اثمهم ومع هذا يقول النبي بلسان الله انهُ بسط يديه اليهم اي قدم لهم المساعدات والنعم ليرتجعوا اليه ومنها قول اسطفانوس لليهود (ابركسيس ص ٧ عد ٥١) « ياقساة الرقاب وغير المختونين القلوب والاذان انتم تقاومون دائمًا الروح القدس » فان كانوا يقاومون دائمًا الروح القدس فهو اذًا يدعوهم دائمًا الى التوبة . ومنها مثل الابن الشاطر فانه مع كلما اتصل اليه من تعس الحال المعبَّر بهِ عن عمآئِهِ بالاثم قد ساعدتهُ النعمة على الرجوع الى بيت أبيه . وحيث ان الله يعطي مثل هولاء الاثمة وقتًا للتوبة بطول العمر

فكيف يحق لنا ان نفترض انهُ يحرمهم النعمة الكافية ولو في بعض الفرص المناسبة والاَّ لكان لانفع لهم من ذلك الوقت والنتيجة أن هولآء الاثمة لاتُسلب عنهم كل نعمة

لكنهم يخسرون نعمًا كثيرة وهذا تحققه آيات اكثر صراحة منها قوله « قسى الرب قلب فرعون » (خروج ص ٩ عد ١٢) وقوله تعالى (في بشارة مار يوحنا ص ١٢ عد ٣٩) « ولهذا لم يمكنهم ان يؤمنوا لان اشعيا قال اعمى عيونهم واظلم قلوبهم حتى لايبصروا بعيونهم ولايفهموا بقلوبهم ويرتدوا اليَّ فاشفيهم » فهو تعالى لا يعمي الاعين ولايقسّي القلوب بانشائهِ الشر فذلك ينافي قداسته بل بحجبه النعم التي تنير العقل وتميل بالارادة الى الخير ولهذا قال مار اغوسطينوس « ان الله لا يقسّي القلب بانشائهِ الاثم بل بعدم تفضله بالرحمة » ومنها قول الله بلسان ايرميا (ص ٥١ عد ٩) « عالجنا بابل فلم تشفَ فلندعها خرابًا » قال القديس ايرونيموس مفسرًا هذه الاية ان المراد بذلك حجب النعم الالهية وذكر مثال الطبيب الذي اذا رأى المرض مستعصيًا على فعل الدوآء ترك المريض . ومنها قول اشعيا (ص ٥ عد ٥) « فالان اقول لكم ماذا اصنع بكرمي انزع سياجه فيصير للرعي اهدم جدرانه فيصير للدوس واجعله خرابًا لا يُقضب ولاينقب . . . واوصي السحب بان لا تمطر عليه » ومنها قول المخلص (متى ص ٢٥ عد ٢٩) « ان من لهُ يُعطى ويزاد ومن ليس لهُ يوخذ منه ما يظنه لهُ » فالظاهر اذًا من هذه الايات ان الله يحجب نعمه عن الخاطئين المصرّين والظاهر

من الايات الموردة قبلها ان الله لا يهملهم من كل نعمة فيلزمنا ان نقول ان هولاء الاثمة تحجب عنهم نعم كثيرة كالنعم الفعّالة والنعم الكافية عن قرب ويُعطون احيانًا نعمًا كافية عن بعد وبالجملة يشتركون باحسانات الله العامة فيضحي ارتدادهم صعبًا لامستحيلاً لانهم اذا توسّلوا الى الله بالصلوة اكسبتهم الصلوة نعمة تدرجوا بها الى نوال نعمة التبرير

القسم الثاني

فقد اتضح اذًا اولادي الاعزآء من كلما مرَّ ان نعمة الله الكافية معدّة لجميع الناس موءمنين كانوا ام غير موءمنين واطفالاً او بالغين وابرارًا او خاطئين ولو من المصرين وقد رايتم ان شر الناس واكثرهم خطرًا للهلاك واقلهم نعمة ومساعدة من الله انما هم الخطاة الذين قسا قلبهم وعميت بصيرتهم بالاثم وقد وصف القديس برنردوس (في ك ٩ من تاملاته راس ٢) الانسان الذي هذه الحال حاله فقال «« ما هو اذًا القلب القاسي هو الذي لا يوءثر بهِ نخس الضمير ولا يلين بالتقوى ولا تحركه الصلوات ولا يخشى التهديدات وتزيده المصائب تصلبًا ويغمط احسان الله ولا يشكر عليه ولا يثق بالمشورات ولا تخجله الامور المستقبحة ولا ترهبه الاخطار ويكون جسورًا في امور الله ينسى الماضي ويتقاعد عن الحاضر ولا يهتم للمستقبل »» فلنفحص نفوسنا ان كان فيها شيء من هذه الاوصاف ومن سوء البخت نجد ان اكثر هذه الاوصاف السيئة تصدق على قلوب كثيرين منا فكم بيننا ممن يرتكبون الخطية المميتة

ولا يؤثر بهم نخس الضمير بل كأنه لاضمير لهم ولا يلين قلبهم لارشاد او نصح او توبيخ ولايخشون تهديدات الله للاثمة ولا يتعظون بالنوازل التي يحلّها الله بهم ليدعوهم بها اليه ولا يعرفون احسان الله بطول اناته عليهم بل يحملهم ذلك على مضاعفة آثامهم وشرهم ويجسرون على معاداة الله بمخالفة وصاياه ولا يرهبون خطر حالهم هذه المهلكة الى باقي الاوصاف التي يشير القديس اليها لعمري لن هذا هو العمآء الروحي بعينه وهو شر من عمآء الجسد بما لا يقدر

ان احدى الضربات التي انزلها موسى على فرعون والمصريين (خروج ص ١٠) كانت اسدال الظلام على ارضهم حتى لم يكن احد يرى اخاه مدة ثلاثة ايام الا بني اسرائيل فكان النور في مساكنهم فهذه الضربة نفسها نراها الان في ارضنا فان الظلام اي العمآء الروحي اعمى الكثيرين من المسيحيين ولم يعد النور الا في الابرار القليلين وليت هذا الظلام يكون الى ثلاثة ايام كما كان في ارض مصر ولكنه استحوذ في هذا العصر على كثيرين بيننا مدة طويلة ولا نعلم الى متى يؤذن الله ببقائه ودخل هذا الظلام او العمآء متسميًا باسم النور باسم التمدن وكان من مفعوله التعامي عن حفظ وصايا الله ووصايا بيعته عمآء عن اعمال الخلاص عمآء عن روية قباحة المنكرات حتى يلتطخ الكثيرون ويتوحلون بها ولا يرون ما عليهم كما لا يرى الاعمى ثوبه المتسخ ووسائل التقدم بالعلوم والمعارف التي كثرت في هذا العصر كانت لكثيرين وسيلة للعمى عن معرفة الحقائق الكاثوليكية بشر الناس وسيلة للتنديد

بهذه الحقائق دون ان يعلم المندون غالبًا ما يقولون وسيلة للاستخفاف بالشر والاحتقار للوصايا الالهية والامتهان بالدين نفسه وباداء فروضه وكل ذلك عماء روحي عن معرفة الحقائق وتنور بالشر يفضي باصحابه الى التهوّر بالظلمات البرانية حيث البكاء وصريف الاسنان

ان الكتاب المقدس عبّر عن العماء الروحي بانواع متباينة بالنسبة الى مصدره فنسبه تارة الى شر الناس فقال في الحكمة (ص ٢ «اعماهم شرهم» وتارة الى انتقام الله من الخاطئين فقال (في اشعيا ص ٤) «اعمِ قلب هذا الشعب» وتارة الى ابليس مسميًا اياه اله هذا العالم كقول الرسول (قرنتية ٢ ص ٤ عد ٤) «الذين اعمى اله هذا العالم عقولهم لانهم لا يومنون» فلمَ هذا الاختلاف في نسبة العماء . فالجواب من ماري توما ان العماء يقسم الى ثلاثة اقسام . عماء هو بنفسه خطية . وعماء هو علة الخطية . وعماء هو مفعول او معلول الخطية . فالاول الذي هو خطية هو ما اشار اليه الحكيم بقوله اعماهم شرهم . والثاني الذي هو علة الخطية هو ما بينه الرسول اذ قال عن نفسه انني كنت من قبل مجدفًا ومضطهدًا للكنيسة ولكني رُحمت لانهُ كان يفعل ذلك عن جهل والثالث الذي هو مفعول الخطية هو ما اشار اليه اشعيا بقوله اعمِ قلب هذا الشعب اي ان هذا العماء انتقام من الله بسبب الخطية فالعماء الذي هو خطية هو اشنع الخطايا واكثرها مضادة للخلاص وما هو علة الخطية هو حجة مزخرفة لارتكابها . والعماء الذي هو مفعول الخطية هو ارهب عقوبات الله في هذه الحيوة

ونزيد ذلك ايضاحًا بقولنا ان من العماء الذي هو اثم بنفسه اثم من يتفلسفون على الدين وعلى حفظ الوصايا وأداء حقوق الله زاعمين ان المذهب اختراع الناس وان الدين استنباط خدمته لمعاشهم وان العمل بفروض الدين ليس من شئم انسان متمدن وان بعض الوصايا الربانية والوصايا الكنائسية خرافات لا يعتدّ بها وهلمّ جرًّا مما يخبطون بهِ بعمائهم فيقولون مثل هذه الاقوال اما بقلوبهم خجلين من ان يتكلموا بها لكنهم يعملون على موجبها . واما يتكلمون بها جهارًا ولو امام اصحابهم فيجلس هولاء علي كراسي الملافنة وعلماء اللاهوت يشرحون امور الدين وليس لهم بذلك اقل المام ولا طالعوا الأ بعض الصحائف او بعض الكتب المفسودة او شيئًا من كتب فولتر وما دروا ان مثلهم مثل اعمى ينقب على الباصرين ويعيب عليهم في حكمهم على الالوان دون ان يكون راى شيئًا منها فهم عميان عمّا كتبه الاباء والعلماء اي لم يطالعوه ومع ذلك يعيبون عليهم ويريدون ان يستروا مخالفتهم او كسلهم عن العمل بفروض مذهبهم بهذا الحجاب وبهذا العماء او التعامي الطوعي الذي ليس اقبح منه فانهُ ينتزع الفضيلة من اصلها فكل فضيلة تتأسس على الحق فيريدون هم التعامي عن هذا الاساس وينكرون او يعمون عن الحقائق الاصلية فعلامَ يبنون عمل الصلاح او الخلاص

من هذا العماء ايضًا عمل من يرتكبون الكبائر ولا ينظرون في جسامة قباحتها وشرها فيصنعون ما ترتعد منه الملائكة وما خراب الارضْ

كلها اقل شرًا منه وما يقضى عليهم بسببه في الهلاك المؤبد ومع هذا لا يرهبون ولا يرون سماجة ما عملوا فهل هذا الا عماء روحي . يعادون الله الالهة ويعصون اوامره ويريدون نقض شريعته ولا يبالون بل يضحكون وهل يمكن ان يكون هذا دون ان يكونوا أُصيبوا بالعماء . يرتكبون المعاصي امام وجه الله ولا يخجلون ولو كان انسان ينظر اليهم لاحجموا عنها فلو لم يكن ضميرهم اعمى فهل كانوا يبدون مثل هذه الجسارة او لا تحكمون بالعماء على رجل يستبدل درة بزجاجة وتبرًا بتراب فاحكموا بمثل هذا العماء وحكمكم صائب على من يستبدل نعمة الله بلذة عابرة والملك السماوي بربح يسير عابر وماذا تقولون في من كان لهُ غنى وافر فاشترى بهِ العوبة صبيانية فاول عبارة تنطقون بها انما هي قولكم انهُ اعمى القلب فهل غير هذا عمل من كان حاصلاً على النعمة المبررة وعلى حق الارث في الملك السماوي فاعتاض عن ذلك ببعض المكاسب المحرمة او ببعض الملاذ الزائلة او ما يصدق على الكثيرين منا انواع العماء التي اشرنا اليها هنا بارتكابه الاثم المميت فانر اللّهم بصائر جميعنا لننجو من هذا العماء الذي يوقعنا في دركات الجحيم

اما العماء الثاني الذي هو سبب الخطية وحجة لها فمن اقسامه عمى اولئك الخطاة الذين يعلمون انهم ارتكبوا خطايا مميتة وانهم في حالة السخط لدى الله وفي خطر الهلاك ومع هذا يريدون البقاء على آثامهم وتاخير توبتهم سندًا الى ان الله رحوم يطيل اناته عليهم وان العمر طويل وانهم ما برحوا في شبابهم وان صحتهم جيدة فلا يخشون الموت عن قرب

اوانهم منشغلون الان فلا يمكنهم عمل التوبة وهلمّ جرًّا والحال ان هولآء عميان لا يبصرون ماذا يعملون وهذا العمآء سبب وحجة لخطاياهم فلو لم يكونوا عميانًا لما افتكروا او صنعوا هكذا لانهم كيف يطلبون او يترجون رحمة الله وطول اناته وبأية واسطة بواسطة تكرار اغاظتهم له فمن يسأل احسانًا باهانته المحسن الّا اعمى البصيرة ولو لم يكونوا عميانًا ايضًا لراوا ان الشبان ايضًا يموتون وان اصحاب الصحة الجيدة والبنية القوية تستحوذ عليهم الامراض ويعاجلهم الموت ايضًا وبالجملة انهُ لا يعتمد على مثل هذا السند الّا من كان اعمي عمّا يحدث في العالم كل يوم. ثم لو كانوا يبصرون لراوا ان وفرة الاشغال لا تؤخر الموت وان كثيرين يموتون قبل انجاز مشاغلهم ولا يعتمد على هذا السند الباطل الّا من كان اعمى عن مراعاة وقوع مثل هذه الحوادث فاذًا كل ما مرّ من احتجاجاتهم المذكورة انما هو ناتج عن عمآء روحي يسبب لهم مداومة اثامهم

ومن هذا القسم ايضًا عمآء اولئك الخطاة الذين يقترفون الاثم محتجين بان الطبع البشري ضعيف وان رحمة الله واسعة وان اعتيادهم الاثم يقيدهم باغلاله فلا يمكنهم قطعها وكذا يثابرون على الخطايا سندًا الى هذه الاحتجاجات الباطلة فهولآء عميان ايضًا لانهم لو كانوا يبصرون لراوا ان الطبع البشري الضعيف اوجد الله لهُ مساعدات قوية هي نعمه الالهية واسراره المقدسة وان هذه المساعدات قوّت هذا الطبع الضعيف في ملايين من الناس حتى قدروا لا على قهر الاميال فقط بل على اراقة الدم ايضًا حبًا بالله. ثم لو كانوا يبصرون لراوا ايضًا بامثلة كثيرة

عملية ان الله ليس فيه الرحمة الواسعة فقط بل العدل الصارم ايضًا وانهُ نعم خلّص برحمته كل من خلصوا ويخلصون لكنه اهلك بعدله كل من هلكوا ويهلكون . ثم لو كانوا يبصرون لراوا ايضًا ان عادتهم على الاثم انما هم الذين ملكوها بنفسهم ولم يولدوا متعودين الاثم وان مواصلة عاداتهم تزيدهم ضعفًا لاتمنحهم قوة وان اغلال هذه العادات قطعها كثيرون مثلهم بمبرد الصلوة ومواظبة تناول الاسرار والناتج من ذلك ان هولاء ايضًا عميان بدعياتهم هذه وعماهم يوقعهم في وهدة الخطايا ومن هذه الوهدة سيهبطون الى الوهدة السفلى فلا يبصرون ولا يعلمون عماهم الا هناك ان لم يعرفوه الان ويطلبوا من الله ازالته

ومن هذا القسم ايضًا عماء اولئك الذين ياثمون بالطمع لعدم تبصرهم هل طريقة تجارتهم او ربحهم جائزة او لا فيغمضون اعينهم عن الفحص الدقيق عليها او الاولى ان نقول ان طمعهم بالكسب والمال يعمي ضميرهم عن ان يرى ان تلك الطريقة محرمة كما اعمى بغض اليهود وحسدهم اعينهم عن ان يعرفوا ان المسيح هو المخلص الذي وعدهم الانبياء به ولم يكن جهلهم المصنع عاذرًا لهم من اثمهم . ومثل هولاء عماء من يرتكبون البغض المحرم لمن عاداهم او اهانهم فيختلقون له اسبابًا للمضرة والاساءة دون ان يتبصروا بكونها حلالًا او حرامًا ويطعنون في عرضه لمجرد شبهة او قول خصم فيستخدمون هذا العماء الاختياري او التعامي لمضرة القريب وحقيقة الحال انهم عميان لا يرون ذلك مضرًا بنفوسهم وهلاكهم اكثر من مضرته بخصمهم ومثل هولاء ايضًا من يتغاضون عن

تربية ابنائهم وبناتهم ومن يتعلق بهم كنسائهم واقربائهم وخدامهم فلا يبصرون او لا ينتبهون الى ان تربية اولادهم ومن لزمهم الاهتمام بهم فرض عليهم يهلكهم الله اذا اهملوه فيعمون او يتعامون عن اداء هذا الفرض فيكون سببًا لهلاك الوالدين والاولاد خاصة وان هذا الفرض واضح لا يجهل بعذر. وكل هذه الانواع الاخيرة من العماء هي جهل اختياري سهل الازالة ولا يعذر الله احدًا بهِ اي لا يصلح هذا الجهل حجة امام الله لاحد

فبقي قسم عماء الروحي الثالث الذي هو عقاب الخطية ففيه اقول انهُ اشد عقاب في هذه الحيوة ووجه ذلك ان هذا العماء شر بكليته لا يخالطه شيء من الخير فسائر عقوبات هذه الحيوة يكون بها شيء من الخير او يمكن استخدامها لشيء خلاصي واما العماء الذي هو عقاب الخطية فلا خير فيه من احد الوجوه قال اللاهوتيون ان العقابات تقسم الى دوائية ووفائية واستحقاقية اعني ان المصائب والامراض والخسائر وما اشبه التي ينزلها الله بنا يمكننا استخدامها للوقاية من الخطية باعتبارنا اياها تنبيهات من الله لتصلح سيرتنا فتكون دوائية واذا قبلناها كانها بارزة من يده تعالى عقابًا عن خطايانا كانت وفائية نكفّر بها عن اثامنا واذا احتملناها بصبر واذعان لاحكام الله كانت استحقاقية تزداد بها فضيلتنا ويعظم اجرنا ولكن العماء الروحي المشار اليه ليس لنا بهِ ما يعزي ولا ما يصلح سيرتنا بل يزيدنا اثمًا وشرًا ولا ما نكفر بهِ عن خطايانا بل ما يضاعفها ولا ما نستحقه بل ما يبيد استحقاقنا الماضي ويوصد بوجهنا

باب الاستحقاق في المستقبل وعليه كانت هذه العقوبة بالعمآء الروحي اشد عقوبات الله في هذه الحيوة واضف الى ذلك انهُ تعالى مع كونه ينبوع النور يحجب بهذا العمآء انواره عن الاثمة ويعميهم لشرهم ومع كونه تالم ومات ليغني جميع الناس بنعمه فيعامل الاثمة المعمين بمسك هذه النعم فيتحقق فيهم قوله لهم اعين ولا يبصرون والذي هو شرٌّ من ذلك جميعه انهم يكونون عميانًا ولا يعرفون عماهم بل يدَّعون المعرفة والعلم

افرأيتم اولادي ان ارتكاب الخطايا المميتة لاسيما اذا تكرَّر هو عمآء روحي وان هذا العمآء هو اشد عقوبة ينزلها الله بالاثمة في هذه الحيوة ثم يستكملها في الجحيم فحذارِ حذارِ من التوصل الى هذه الحال والاقلاع الاقلاع عنها في من توصل اليها وقد رايتم ما ذكرته في القسم الاول ان الاثمة الذين هذه حالهم يعدمهم الله نعمًا كثيرة لكنه يبقي لهم نعمًا كافية ولو عن بعد يمنّ بها عليهم احيانًا فتنفتح عيونهم المعماة فيبصرون طريق الخلاص فيسلكون بهِ ويخلصون وقد بينتُ آنفًا ان هذه النعمة الكافية عن بعد هي الصلوة او تحصل بالصلوة بلا شكٍ فتوسلوا الى الله بالصلوات الحارة والمتواترة ليفتح عقول الخطاة منا ويزيل عنهم هذا العمآء ليرجعوا الى طريق الخلاص آمنين واساله تعالى ان ينير جميعنا بنعمته ويبلغنا الى ملكوته السماوي آمين



الموعظة الرابعة

* القاها في الاحد الرابع من الصوم في ٢٨ شباط سنة ٧٥ *

في النعمة الفعّالة

كلما شاء الرب صنع في السماء والارض . مزمور ١٣٤ عد٦

برهنت في خطبتي الاحد الماضي وجود النعمة الكافية وان الله اعدها للناس اجمع فكان عليّ في هذا المساء ان استتبع الكلام في النعمة الفعّالة وهي التي تسعى معها ارادة الانسان المطلقة لعمل الخير فتصدر المفعول الذي اعدّها الله له والفعل الصالح الذي تصدره يُنسب اليها ويحسب ايضًا للارادة فتجزى عليه ولذا كانت النسبة متبادلة بين النعمة وارادة الانسان المطلقة اي الحرية بنوع اننا اذا نسبنا الى النعمة الفعّالة اكثر من حقها اجحفنا بحق الحرية واذا نسبنا الى الحرية اكثر من حقها اجحفنا بحق النعمة وعليه كان كلامنا في النعمة الفعّالة يستلزم الكلام في سلامة الحرية معها والتوفيق بينهما لتظهر حقيقة المعتقد الكاثوليكي وهي ان الله يمنح نعمًا فعّالة وتبقى الحرية معها سالمة كاملة . ونبيّن اخيرًا ان سخاء الله بمنح نعمه يحملنا على الرجاء في عمل خلاصنا ووجود الحرية فينا على ضعفها بعد الخطية الاصلية يحملنا على الخوف فيه فيكون موقفنا بين الرجاء والخوف كما هو بين النعمة والحرية فان اكثرنا من الرجاء وقللنا من الخوف بلغنا الى الجسارة وان اكثرنا من الخوف وقللنا من

الرجاء بلغنا الى اليأس ولما كانت هذه المواد ايضاً دقيقة تستلزم الاصغاء فاصغوا على حميد عادتكم الخ

القسم الاول

ان ما قدمناه في خطبنا السابقة يتبيّن منه انهُ لا يمكننا ان نبتدي او نكمل عملاً خلاصيًّا دون اسعاف نعمة الله وهذا ينتج منه ان كلما يعمله الناس من الاعمال الخلاصية يلزم نسبته الى النعمة التي كسبها لنا المخلص بافتدائه ايانا ومما لا يشوبه ريب ان هذه الافعال تنسب الى الناس ايضاً اذ يمتنع حصولها دون ارادتهم المطلقة فلهذا كان محل للسؤال كيف تفعل النعمة بالانسان وتصدر العمل الخلاصي ويبقى فيه اختياره المطلق اي حريته ولماذا تصدر النعمة احياناً مفعولها الخلاصي واحياناً لا تصدره فهذه مباحث دقيقة لم يضلّ بها الاراطقة المحدثون فقط بل اختلف فيها اللاهوتيون الكاثوليكيون ايضاً على انهُ يلزمنا ان نعتبر ان بعض هذه المباحث مادته من عقائد الايمان وهذا مجمع عليه من اللاهوتيين الكاثوليكيين ولهم فيه وحدة راي دون خلاف وبعضها مادته جدلية وهذا ما يختلفون فيه ولهم فيه الحرية التامة ليدافع كل منهم عن الراي الذي يختاره فاجماعهم على ما هو من الايمان واختلافهم في ما ليس منهُ يوضحان صحة المذهب الكاثوليكي ايضاحاً بيناً

ان النعمة الفعلية او الحالية تقوم بتنوير العقل وتحريك الارادة وتقوية ضعف الانسان وقد ذكرنا قبلاً ان الانسان اذا قاوم تلك

النعمة ولم تصدر مفعولها سُمّيت النعمة كافية واذا سعى معها فاصدرت مفعولها سُمّيت النعمة فعّالة فالذي من عقائد الايمان انما هو وجود النعمة الكافية والنعمة الفعالة وبقاء حرية الانسان مع كلتيها سالمة ففي الخطبة الماضية برهنا وجود النعمة الكافية واستطاعة الارادة البشرية على مخالفتها والآن نبرهن وجود النعمة الفعالة وسلامة حرية الانسان معها

ان النعمة الفعالة هي التي تسعى معها الارادة البشرية فتصدر مفعولها الخلاصي الذي اعدها الله لهُ فوجود النعمة الفعالة بمقتضى هذا التعريف لم ينكره احد (الّا بعض اصحاب الفلسفة الكاذبة وكلما مرّ في كلامنا على لزوم النعمة للاعمال الخلاصية والفائقة الطبيعة يفند زعمهم) لان مجرد تصورنا فعلاً لهُ استحقاق يفوق طبع الانسان يسوقنا الى ان نتصور ان لابد فيه من شيء يفوق الطبع ليرفعه الى هذه المرتبة والحال اننا لانستطيع ان ننكر وجود اناس اعتقدوا ايمانًا فائقًا الطبيعة وعملوا اعمالاً خلاصية رقتهم الى ما يفوق طبعهم ما لم ننكر الكتاب المقدس برمته فاذًا لابد لنا من التسليم بوجود نعمة فائقة الطبيعة وقد سعى معها البعض وعملوا بها فكانت النعمة فعالة. على ان ايضاح ماهية هذه النعمة وكيفية اصدارها مفعولها لا يتوصل اليه ببرهان العقل والاقيسة الفلسفية بل بالوحي وشرح الكنيسة لمعانيه الحقيقية واذا نظرنا في هذا بعين لم يغشها ظلام الضلال او الاثم راينا ان الله لا ينير العقل فقط وينشي فيه معارف وافكارًا خلاصية بنعمته الفعّالة بل يحرك

الارادة ايضاً بقوة وعذوبة لتسعى مع النعمة وتفعل معها بطواعيتها دون ريب بصدور الفعل الخلاصي وعليه فحسنًا قال اللاهوتيون ان النعمة الفعالة تصدر مفعولها الخلاصي بنوع لا يشوبه ريب ولكن ليس بنوع اضطراري او اجباري

ولنا على وجود هذه النعمة الفعّالة البرهان بايات واضحة من الكتاب المقدس في العهدين القديم والجديد فمن ايات العهد القديم الاية المصدَّر بها كلامنا وهي كلما شآء الرب صنع في السمآء والارض فان كان الله يصنع كلما شآء في السمآء او الارض فبالاولى حجة اذا شاء امرًا خلاصيًا صنعه فان خلاص الناس اول شيء يشاه وبالتالي يصنعه كلما لم يوجد من جهة الانسان ما يقاومه ولا يمكن ان تكون المقاومة دائمة والّا لتعطلت غاية الله ومقصده من النعمة دائمًا فاذًا لابد ان تصدر النعمة مفعولها الخلاصي مرات كثيرة على الاقل وتكون النعمة فعّالة . وقال الله بلسان حزقيال النبي (ص ١١ عد١٩) « واعطيهم قلبًا واحدًا واجعل في حشاهم روحًا جديدة وانزع القلب الحجري من لحمهم واعطيهم قلبًا لحميًا ليسلكوا بوصاياي ويحفظوا احكامي ويعملوا بها ويكونوا لي شعبًا فاكون انا لهم الهًا » فكانهُ يقول انهُ ينزع القلب الحجري اي الارادة الشريرة من الاثمة ليرتدوا اليه ويعملوا بوصاياه ويعطيهم قلبًا لحميًا اي ارادة صالحة تذعن لالهاماته الالهية . وقال في نبوة حزقيال ايضًا (ص ٣٦ عد٢٦) « واضع روحي في وسطكم واجعلكم تسلكون في فرائضي وتحفظون احكامي وبها تعملون » فكيف

يجعلهم الله يسلكون بفرائضه ويعملون باحكامه الاَّ بواسطة روحه اي نعمة روحه الفعَّالة . وبهذا المعنى نفسه قال النبي والملك داود (مزمور ٥٠ عد ١١) «« قلبًا نقيًا اخلق فيَّ يا الله وروحًا مستقيمة جدّد في احشاي »» فكانه يسأل الله لا ان يعطف قلبه اليه فقط ويلينه بالنعمة ليصنع الصلاح بل ان يستبدل قلبه بقلب آخر يخلقه فيه حديثًا ويجدد فيه الروح المستقيم الذي خُلق فيه الانسان الاول فكيف لا يبرهن لنا ذلك سديد البرهان منح الله نعمًا فعالة تغير حركات القلب وتعطفه الى الله

ومن ايات العهد الجديد نكتفي بايراد قول المخلص «« ليس احد يستطيع ان ياتي اليَّ ما لم يجتذبه الاب الذي ارسلني »» (يوحنا ص ٦ عد ٤٤) فاذًا جميع الذين ياتون الى المسيح بالايمان والتوبة يجتذبهم الاب الذي ارسله بالنعمة الفعَّالة وقال المخلص هناك ايضًا «« كلمن سمع من الاب وتعلم يقبل اليَّ »» قال القديس اغوسطينوس مفسرًا هذه الاية (في كتابه في نعمة المسيح راس ١٤) «« ان الله الاب اذ يعلّم لايعلّم بحرف الشريعة بل بنعمة الروح بنوع ان كل ما تعلّمه كل واحد لا يرى نفسه عالمًا بهِ فقط بل يشتهيه مريدًا اياه ويكمله صانعًا لهُ »» وقال الرسول (رومية ص ٩ عد ١٦) «« ان الله هو الذي يفعل بكم ان تريدوا وان تكملوا ما تريدون »» فينسب بقوله هذا للنعمة الفعالة اولاً حركة الارادة الصالحة الاولى ثم تكميل العمل وقال الرسول ايضًا (في رسالته الى العبرانيين ص ١٣ عد ٢٠) «« واله السلام يكملكم

بكل عمل صالح لتعملوا بمشيته وهو يفعل بنا ما يحسن عنده يسوع المسيح »
فيبين ان نعمة الله تجعلنا نعمل بمشيته وهو تعالى يفعل بنا ما يحسن لمشيته
وهل من تصريح أكثر من هذا في التعبير عن النعمة الفعّالة

ولنا اعمال كثيرة ذكرها الكتاب المقدس تدلنا على فاعلية النعمة ولنا قبل كل شيء مثال الرسل فانهم لم يفهموا اشياء كثيرة مما علمهم اياه المسيح قبل يوم العنصرة الذي حلّ فيه الروح القدس عليهم حتى كانوا بعد قيامته ايضاً قلقي الافكار متصورين ان له ملكاً زمنياً في العالم مرتعدين حتى اجتمعوا في محل واحد خوفاً من اليهود كما روى مار يوحنا ص ٢٠ واما بعد حلول الروح عليهم وافاضته نعمته فتبدلت حالتهم واضحوا يعظون بالمسيح علانية ويشجبون اليهود بحضرتهم لصلبهم المخلص الذي كانوا وُعدوا بهِ ويعيرونهم ان الله اقامه من الموت رغم انوفهم بل كانوا يفرحون بالاهانة والضرب وسائر الاضطهادات فهذا التغير العجيب والفجائي في الرسل لا يمكن انتسابه الاّ الى النعمة الفعّالة.

ومما يستحق الذكر ارتداد مار بولس كما رُوي في الابركسيس ص ٩ فان شاول كان متشبثاً بتعليم الفريسيين شديد التمسك بمذهب اليهود مضطهداً المسيحيين كل الاضطهاد الى ان ناجاه الصوت من السماء وأُفيضت النعمة عليه فترك للساعة ضلاله واصبح اشهر رسل المخلص بالتبشير والكدّ وتحمل الاضطهاد فتغيرٌ كذا فجائي ليس مفعول قوة بشرية بل مساعدة فائقة الطبيعة. ونعدل عن ذكر امثلة كثيرة بعضها في الكتاب المقدس وبعضها حققتها التواريخ الصادقة وروايات

الاباء القديسين الذين لا نحتاج الى ذكر اقوالهم اثباتًا لهذه الحقيقة لوضوحها

فقد اتضح اذًا وجود النعمة الفعّالة ونوضح الان ان الارادة تبقى حرّة معها ولا تضطرها من احد الوجوه وهذا من عقائد الايمان وقد انكر هذه العقيدة زعماء البروتسطنت متوهمين كما ذكرنا قبلاً ان اختيار الانسان المطلق باد بالخطية الاصلية ولم يعد الانسان حرًّا بل ان ارادته مضطرة الى اتباع النعمة واللذة وميزوا بين الاغتصاب والاضطرار وقال بعضهم ان الانسان حرٌّ بمعنى ان ارادته لا يكرهها على العمل محرك خارج عنها اي لا تغتصب بقوة خارجية لكنهم لم يسلموا البتة بان الخير والشر في سلطان الارادة فتختار ايًّا شاءت منها بل هي مضطرة ابدًا بقوة داخلية اما نحن فقد برهنا هذه الحقيقة اي حرية الانسان المطلقة الناجية من كل اضطرار واغتصاب في خطبنا الماضية دفعات عديدة ومع ذلك نزيد قولنا على هذه الحقيقة تايدًا لانها من العقائد المهمة كثيرًا

اننا نرى في اعمالنا اليومية مثالاً لتحريك نعمة الله ارادة الانسان لعمل الخير دون انثلام الحرية فانّا نرى العقلاء والفهماء منا يحملون من ساواهم او كان دونهم او اعلى منهم مقامًا ايضًا على عمل ما بواسطة الايضاحات والبرهانات والاقناعات فيصنع ذلك الانسان ذاك العمل مع انه لم يكن يشاء اولاً ان يصنعه او كان يشاء ان يصنع خلافه ويصنعه باختياره ورضاه ولا تمسّ تلك المشورات او البرهانات شيئًا م

من حريته فان كنا نحن الانام الضعفاء نستطيع ان نحمل انسانًا على عمل بالاقناعات دون ان تمسّ حريته فهل الله وحده هو القاصر او العاجز عن ان ينير عقل الانسان ويحرك ارادته ليعمل عملاً خلاصيًا مع سلامة حريته . هذا وكوننا نصنع بحريتنا المطلقة متى صنعنا خيرًا هو امر منزه عن كل ريبة ونشعر بهِ في نفوسنا وشاهده قريب منا بل هو في داخلنا ونوقن صدق شهادته بل لايمكننا ان نكذبها اذا استعملت باستقامة وهذا هو ضميرنا او حسنا الباطن الذي جعله الله في طبعنا شاهدًا للحق ولا ينكر هذا الاّ من بلي بدآء مذهب المرتابين بكل الحقائق

واما شهادات الوحي لهذه الحقيقة فقد اوردنا جانبًا كبيرًا منها في خطبنا الماضية ولاسيما في خطبتنا السنة السالفة في مساعدة الله وحرية الانسان ونورد بعضها الان ايضًا . فقد جآء في سفر التثنية (ص ٢٦ عد ١٧) عن شعب اسرائيل اذ عقد عهدًا مع الرب « قد اخترت الله اليوم ليكون لك الهًا وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه واحكامه وتطيع امره » فلاشك بان من قصدوا هذا المقصد الصالح كانت النعمة الفعالة تساعدهم عليه ومع هذا ينسبه الكتاب الى اختيار ارادتهم المطلق . وقال اشعيا (ص ٥٦ عد ٤) « هكذا قال الرب للخصيان الذين يختارون ما يسرُّني ويتمسكون بعهدي . . . اعطيهم اسمًا ابديًا » فباطلاً يقال ان الناس يختارون الخير ان كانت النعمة الفعالة تضطرهم اضطرارًا اليه ولا يبقى لهم اختيار مطلق . بل قد نصَّ الكتاب صراحة على ان الانسان الذي يعمل العمل الخلاصي بالنعمة

الفعّالة كان يمكنه ان لا يعمله او ان يعمل خلافه ومن ذلك قول ابن سيراخ (ص ٣١ عد ٨) في الانسان البار « الذي كان يمكنه ان يخالف فلم يخالف وان يصنع الشر فلم يصنع » اي ان من يصنع الاعمال الخلاصية بمساعدة النعمة الفعالة كان يستطيع ان يهمل تلك الاعمال وان يرتكب الخطايا وبالتالي كانت حريته سالمة كاملة . وتوءيد ذلك كل الايات التي يستدعي بها الله الاثمة للارتجاع عن اثمهم او الابرار للثبات في برّهم فمن كان مضطرًّا بالنعمة ولا ارادة مطلقة لهُ كيف يُطلب منهُ ان يرجع او ان يشق قلبه بالتقوى او ان يثبت في محبة الله او ان يعمل عمل خلاصه بالخوف والرعدة لعمركم اولادي انهُ ليكون مضحكًا طلب ذلك منه اذا كان مجبرًا على ما يصنعه كما يكون مضحكًا قولنا للاعمى ابصر ولا بصر لهُ او للكسيح امشِ ولا حراك لهُ واكثر صراحة مّما مرّ اقوال المخلص « ان شئت ان تدخل الحيوة احفظ الوصايا ان شئت ان تكون كاملاً اذهب فبع مقتناك واعطهِ للمساكين من اراد ان يحيي نفسه فليهلكها . من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه الخ فاذا كان الانسان لا مشية اي لا ارادة مطلقة لهُ مع النعمة الفعالة فكيف يعلق المخلص هذه الاعمال الخلاصية على مشيته وفعله فلا شك اذًا بان الانسان لا يبرح مع النعمة الفعالة فائزًا باختياره المطلق وحريته التامة وليس مضطرًّا ولا مغتصبًا في اعماله الخلاصية ولم يبد اختياره المطلق بالخطية الاصلية كما زعم لوتاروس وكلوينوس ومن تابعها والحاصل اخيرًا انهُ قد ثبت وجود النعمة

الفعالة مع سلامة الحرية

القسم الثاني

ان كلما مرّ بيانه هو من عقائد الايمان وعليه اجماع اللاهوتيين الكاثوليكيين بلا خلاف لكنهم ذهبوا مذاهب مختلفة في شرح كيفية فهم العقائد المذكورة وإيضاحها فان بينهم جدالاً وخلافاً في كيفية فعل النعمة الفعّالة وسلامة الحرية معها وفي كيف تمتاز النعمة الفعالة عن النعمة الكافية لا بالنظر الى المفعول فقط بل بالنظر الى ماهيتها الداخلية ايضًا وقد دافع كل فريق منهم عما ذهب اليه بجدّة وجدّ وقد عقد بعض الاحبار الاعظمين اجتماعات عديدة للنظر في حل هذه المحاورات الجدلية الى ان اوضح البابا بولس الخامس سنة ١٦٠٦ انهُ يمكن التمسك بامن بكلٍ من هذه المذاهب الى ان يحكم الكرسي الرسولي بخلاف ذلك وأيّد هذا الايضاح البابا اكليمنضوس الثاني عشر سنة ١٧٣٢ ومن ذلك يظهر انهُ يباح اتباع ايّ مذهب شئتم من هذه المذاهب واخصها اربعة مذهب التوماويين ومذهب الاغوسطينيين ومذهب تباع مولينا ومذهب الوفاقيين والفرق بين هذه المذاهب ان مذهبي التوماويين والاغوسطينيين يجعلان النعمة فعّالة من ذاتها اي انها من نفس طبعها قوية وفعّالة بنوع انها لا تسمّى فعالة لان الانسان سعى معها بل ان الانسان يسعى معها لانها فعالة بنفسها . واما مذهبا تباع مولينا والوفاقيين فيجعلان النعمة فعالة عن خارج اي ليس من نفس طبعها بل لسعي

الانسان معها ولعلم الله السابق بان الارادة البشرية ستسعى مع النعمة فتصدر مفعولها

فما من ناكر انهُ يعسر علينا ان نتصور كيف تصدر النعمة والحرية معًا الفعل الخلاصي حتى يُنسب لكلٍ منها فتوفيق ذلك هو من اسرار الديانة التي تفوق العقل البشري واذا كان في العالم الطبيعي والمنظور مفاعيل عديدة لا نستطيع ان نفهم عللها الداخلية ولاان نزكن كنهها فاي عجب من ان تكون مفاعيل كذلك في العالم الادبي الغير المحسوس . على ان معرفة هذا التوفيق وان كانت تفوق العقل البشري فلا تخالفه ولا تضادّه فلاثبات هذا التضاد يلزم ان تكون لنا معرفة جلية واضحة بالامرين حتى نرى ان احدهما ينقض الاخر ولا يتفق معهُ وهذه المعرفة الجلية لا يمكن التوصل اليها فان عقلنا محدود ومتناهٍ لا يمكنه ان يدرك كيف يفعل الله بنفوسنا بواسطة نعمه الفائقة الطبع التي لا يمكننا ان نخضعها لحواسنا ولا ان يدركها عقلنا ومن جهة اخرى يؤكد لنا حسّنا الباطن وجود الحرية فينا دون ان ندرك بالتمام ماهيتها الداخلية خاصة فعل النعمة بها ومن هذا نشأ اختلاف الفلاسفة في تعريف الحرية حتى اننا لو علمنا ان الاسباب والعلل الداخلية والخارجية تؤثر بارادتنا وتبقى مع ذلك حرّة فلا ندرك بالتمام توفيق الحرية مع تاثير العلل الطبيعية والادبية والحاصل اننا لا نستطيع الحصول على تصورات جلية بالتمام من جهة الحرية او من جهة نعمة الله ليمكننا ان نقضي بمنافاة احداهما للاخرى وبكون التوفيق بينهما يضادّ العقل .

على انهُ وان كان هذا التوفيق بين النعمة والحرية من اسرار الدين فلا يحرم على العقل النظر في هذا التوفيق والجدُّ في بيان طريقة لهُ ولا يُلام اللاهوتيون الذين لم يكتفوا بالمدافعة عن العقائد المذكورة بل جدّوا في ايجاد طريقة للتوفيق بينها ببرهان العقل المستنير بالوحي فاوجدوا المذاهب المشار اليها وبها مساعدة كبيرة على ايضاح العقائد خلافًا للبرهانيين الذين انكروا اسرار الايمان كلها وهوذا خلاصة هذه المذاهب

فخلاصة مذهب التوماويين الذين يسمون كذلك لقولهم انهم اتبعوا تعليم مار توما في مذهبهم هي انهم قالوا ان الله لم يخلق كل شيء فقط بل يحفظ ويدبر كل شيء ايضًا وعليه فهو العلة الاولى المحركة كل شيء ومن جملتها الارادات والافعال البشرية بنوع ان الله لا يمنح الاشياء القوة فقط بل لا يمكن احد الاشياء ان يفعل بقوته الخاصة ما لم يفعل بقوة الله ايضًا فاذًا لا يستطيع الانسان ان يستعمل قوة الارادة التي أُعطيها الاَّ بمقدار ما يفعل بقوة الله الذي هو فينا لا علة الارادة فقط بل علة فعلها ايضًا ومثلوا لذلك بقولهم كما ان آلة القطع لا تكفي فيها آلة القطع بل يلزم ان الانسان يستعمل تلك الالة ليحصل القطع هكذا لا يكفي ان يعطينا الله قوة الارادة بل ان يحركها لتريد ايضًا واذا كان هذا التحريك لازمًا للافعال الطبيعية فيكون فباولى حجة لازمًا للافعال الفائقة الطبيعة اي الخلاصية التي لا يمكن الانسان صنعها بقواه الطبيعية ولهذا قالوا ان النعمة فعالة بنفسها وهي تصدر الفعل الخلاصي الذي

اعدّت لهُ من دون خلل وكما ان العلة الاولى لا يمكن ان تتعلق بالعلة الثانية بل الثانية تتعلق بها هكذا فاعلية النعمة لا يمكن تعليقها على رضى الارادة بل رضى الارادة يتعلق عليها

ولكي لا تثلم الحرية بتعليمهم هذا ولكي يوفقوا بين الحرية والنعمة قالوا ان الله لا يريد صنع العمل الخلاصي فقط مجرداً بل يريد ان يكون صنعه بحرية ايضاً فان الله من حيث هو على كل شيء قدير ففعل نعمته لا يوجد الفعل الخلاصي فقط بل يجعله موجوداً مفعولاً بحرية ايضاً فاذاً لا تُنقص النعمة الفعالة ولا تثلم الحرية بل يبقى مطلقاً للانسان ان يقاومها وقد سلّم التوماويون بوجود نعمة كافية عدا الفعّالة وقال بعضهم انها هي التي تمنح القوة الحقيقية على فعل الخير بالاعتزال عن الفعل نفسه ولذلك قسموا الفعل الالهي الى قسمين . الاول ما يمنح القوة . والثاني ما يصدر الفعل وقسموا النعمة على هذا الموجب الى كافية وفعالة ومثلوا بالطعام الذي يمكنه ان يحفظ حياتنا ولكن لا يكفي وجوده بل يلزم ان تشاء الارادة ان نتناوله قائلين وكذا النعمة الكافية تمنحنا القوة على عمل الخير ولكن يلزم فعل الارادة ايضاً ليبرز هذه القوة الى الفعل وفعل الارادة هذا هو ما تصدره النعمة الفعالة فهذه خلاصة تعليم التوماويين

واما الاغوسطينيون الذين يسمون كذلك لانهم يعزون تعليمهم الى القديس اغوسطينوس فقالوا ان ابوينا الاولين اذ كانا في حال البرارة كانا مجمّلين بقوى سامية في العقل والارادة ولم يكونا يحتاجان

في الافعال الفائقة الطبيعة الاّ المساعدة التي هي بمنزلة شرط لا يكون الفعل من دونه اي النعمة الكافية وهذه اذا سعت الارادة معها صارت فعّالة والاّ بقيت غير فعالة واما بعد الخطية الاصلية فضعفت القوى الروحية في الانسان وجرحت اي غشي العقل الجهل وضعفت الارادة بالشهوة وعاد الانسان بعد سقوطه يحتاج الى نعمة الفادي لتدفع الجهل وتنير العقل فيعرف الحق وتردع الشهوة وتميل بها الى الخير فتريده وتصنعه . ولما كانت النعمة بالعموم قائمة في تنوير العقل والحركة التقوية واللذة المقدمة كان الحاصل ان النعمة الفعالة هي ما تؤتي الانسان علمًا اكيدًا ولذة متغلبة في الخير (غير اللذة التي علم بها ينسانيوس وحرّم تعليمه) وهذه اللذة المتغلبة تكون كلما منح الله نعمة فعّالة وبالتالي ان النعمة فعالة بنفسها ولا تكون فعالة لرضى الارادة بها بل يكون رضى الارادة بها لانها فعّالة وبهذا يتفق هذا الراي مع الراي السابق

ونظرًا الى سلامة الحرية مع هذه النعمة الفعالة قالوا ان الحرية تبقى مع النعمة كما شرحوها كاملة بل اكثر كمالاً لان الارادة تميل حينئذٍ الى الخير بلذة ورغبة فلا تكون مضطرة لان الحرية تكون اكثر كمالاً بمقدار ما يعرف العقل الحق وما تميل الارادة الى الخير باكثر كمال والنعمة الفعالة كما شرحوها تزيد العقل معرفة بالحق والارادة ميلاً الى الخير . وكما ان معرفة العقل بالكذب ليست كمالاً للعقل بل نقص فيه هكذا اختيار الشرّ لا يكون كمالاً للحرية بل نقصًا فيها وذلك النقص الذي هو الخطية هو شيء سلبي او عدمي على راي مار

اغوسطينوس وقالوا كما ان المرض يكون خفيفًا او ثقيلاً والشهوة كثيرة الاشتداد او قليلته فهكذا الدواء الذي هو النعمة يكون فعالاً اذا كان مرض النفس ثقيلاً وشهوتها شديدة وخفيفًا اذا كان مرضها خفيفا وشهوتها ضعيفة وبهذا يميزون النعمة الكافية عن النعمة الفعالة قائلين ان النعمة الكافية هي ما تجعل الانسان يستطيع الخير لاان يريده او تجعله يريده ارادة ضعيفة لاتنتصر على الجهل واللذة المضادة واما النعمة الفعالة فهي التي تجعل الانسان يستطيع الخير ويريده ارادة تنتصر على التجارب والمصاعب المضادة لهُ وراي التوماويين وراي الاغوسطينيين يزيدان النعمة أكثر من الحرية وبعكسها راي تباع مولينا والوفاقيين

اما خلاصة راي مولينا فهي ان النعمة الكافية والفعالة نعمة واحدة بنفسها وطبعها ولكن ان سعت معها ارادتنا وعملت بها كانت فعالة وان قاومتها ولم تعمل بها كانت كافية فقط وعلى هذا الراي لاتكون النعمة فعّالة بنفسها بل برضى الارادة المطلق بها ومن الواضح على هذا المذهب ان حرية الانسان تبقى مع النعمة سالمة كاملة لانها ان شاءت سعت مع النعمة وان شاءت قاومتها . الاّ ان في هذا المذهب مشاكل لامحل الان لذكرها او حلها

واما خلاصة راي الوفاقيين فهي ما عمله الاب السواري وغيره لكي يصلحوا راي مولينا ويجانبوا المشاكل الموردة عليه فقالوا ان النعمة قسمان موافقة وغير موافقة . فالموافقة هي ما وافق طبع الانسان وميله

وسائر ظروف حاله ورأى الله بسابق علمه ان الانسان سيسعى معها حتى تكون فعالة ابدًا والغير الموافقة هي ما لا توافق طبع الانسان وأمياله وملكاته ومكانه وزمانه وباقي ظروف حاله ليعمل بها ولهذا لا تكون الاّ كافية وقال السواري ان الله لارادته السابقة بتخليص جميع الناس اعدَّ لجميعهم نعمًا يمكنها مع رضى ارادتهم ان تكون فعالة وكافية للخلاص واذا اراد الله حتمًا فعلاً خلاصيًا اعدَّ الظروف لتكون مطابقة للنعمة التي يمنحها ومنحها في ظروف موافقة لسعي الانسان معها وعرف بعلمه السابق انهُ سيطاوعها ويعمل بها وتكون النعمة فعالة . وليس من ينكر ان الظروف الداخلية والخارجية توثر تاثيرًا بليغًا بارادة الانسان فانا نشاهده يرتكب في ظروف ما يفرُّ منه في ظروف غيرها ونرى كثيرين يرعوون عن شرهم لروءيتهم موت انسان فجاءَة مع انهم كانوا قبله مصرّين على اثمهم ونرى الانسان يغيث المحتاج في حين سروره وينتهره في حين كآبته وحزنه كما نرى بعض المنهمكين بملاذ العالم ينكفون عنها عند حصول الاوبية والمخاوف فالله يعدُّ الظروف لتكون تلك النعم موافقة لميل الانسان وحالته فيسعى معها فتصدر النعمة مفعولها وتكون فعالة وتبقى حرية الانسان كاملة لان فاعلية النعمة تكون من قوتها وموافقة الظروف لها ولا تضطر الانسان لانها لو كانت في ظروف اخرى لبقيت غير فعالة والظروف توثر في الانسان لكنها لا تضطره او تجبره فالتاجر مثلاً يلقي بضاعته في البحر عند خطر الغرق وليس من قائل بان فعله ليس حرًا او مطلقًا والفرق

بين النعمة الكافية والفعالة على هذا المذهب ليس من قبل سعي الارادة مع النعمة او مقاومتها لها فقط بل من قبل الظروف الموافقة ايضًا فهذا هو شرح المذاهب الاربعة وكلها كاثوليكي اذ لم ترذل الكنيسة احدها حتى الان وقد اهتم بعض اللاهوتيين بتاليف مذهب آخر من هذه المذاهب الاربعة اقرب للحق واقل اشكالاً من كل منها فقالوا اولاً انهُ يجب التسليم بنعمتين فعالتين احداهما فعالة بنفسها تجعل الارادة الحرة تسعى معها وهذا يسلم بهِ التوماويون والاغوسطينيون والثانية فعالة بغيرها اي بسعي الارادة معها وهذا يسلّم بهِ تباع مولينا والوفافيون والله يمنح تارة النعمة الفعالة بنفسها وتارة النعمة الفعالة بغيرها فلا تكون النعمة دائمًا فعالة بنفسها ولا دائمًا فعالة بغيرها فيحصل التوفيق . ثم ان النعمة الكافية لا تمتاز بطبعها عن النعمة الفعالة بغيرها فانها تكون فعالة ان سعت الارادة معها وكافية فقط ان قاومتها وهذه النعمة ان أُعتبرت بالنسبة الى الفعل الخلاصي كانت كافية حقيقة عن قرب او عن بعد فان الوصايا واعمال التقوى بعضها سهل لا صعوبة فيه كالصلوة اي ارتفاع العقل الى الله واستمداد عونه والاماتة الخفيفة وافعال المحبة الزهيدة والانتصار على التجارب الغير الشديدة وبعضها عسر كحفظ الشريعة بتمامها والانتصار على التجارب الشديدة والصبر في المصائب المفجعة فالنعمة الفعالة بغيرها هي كافية عن قرب للاعمال السهلة وكافية عن بعد للاعمال الصعبة لان الانسان اذا سعى مع هذه النعمة امكنه الحصول بواسطة الصلوة على نعم اكثر فاعلية يصنع بها

الاعمال الصعبة وقد حقق الكتاب بايات لاتحصى اننا نجد ما نطلب بواسطة الصلوة . وقالوا بالنظر الى سلامة الحرية ان الله اذا منح نعمة فعّالة بسعي الارادة معها بمقتضى راي مولينا فلا اشكال بان الحرية تبقى سالمة واذا منح الله نعمة فعالة بنفسها فان اعتبرنا هذه النعمة من جهة الله كراي التوماويين وجدنا ان فعل الله الكلي القدرة والحكمة لا يصدر الفعل الصالح فقط بل يصدره بحرية فتبقى الحرية سالمة وان اعتبرناها من جهة الانسان بحسب راي الاغوسطينيين وجدنا النعمة تنير العقل وتميل بالارادة الى الخير فلا تثلم بها الحرية بل تزداد كمالاً لقيام الحرية بمعرفة الحق والميل الى الخير وتبقى في الانسان القوة على المقاومة وان لم تبرز للفعل ومن نال تلك النعمة الفعالة بنفسها بواسطة الصلوة فلا شك انهُ يبقى حرًّا في الاعمال الخلاصية كما ان المسافر سريعًا اذا اوقفه انسان عن جريه بالتوسل فيقال انهُ توقف باختياره لا جبرا عليه فهذه هي طريقة التوفيق بين هذه المذاهب عند بعض اللاهوتيين

القسم الثالث

ان كلما مرَّ من كلامنا في النعمة وحريتنا يسوقنا الى فضيلتين كبيرتين ولازمتين جدًّا وهما الرجاء بالله والخوف منه تعالى فاذا تأملنا بان الله اعدَّ نعمه للناس قاطبة وانهُ يريد خلاصهم اجمع وانهُ ضحَّى بحياته لينولهم النعم والسعادة الخالدة الفائقة طبعهم انفتح لنا باب رحب للرجاء بان الله الذي تفضل بهذه الاحسانات السامية على النوع البشري

يمنحنا بلا بد نعمه الكافية والفعالة لندرك الخلاص والسعادة اذا سعينا مع نعمه وعملنا بها ولكن اذا تاملنا بانهُ منَّ على النوع البشري بنعم عظيمة استحقها بدمه وسهل نوالها حتى يجدها كل طالب وجعل بعضها فعالاً حتى خيل للبعض انها تخلصهم جبرًا عليهم وتاملنا من جهة اخرى احتقارنا لهذه النعم واستخفافنا بها ومقاومتنا اياها احيانًا كثيرة لزم ان يعترينا الخوف والرعدة فان الكفران بالجميل يزداد قبحه ما ازداد الاحسان والمطالبة تكون بمقدار العطية ولان اعداد الله النعم لنا وعدم انتفاعنا بها لشرّنا يزيد الله سخطًا علينا ويضاعف عقابنا ولذا كان متحتمًا على كل من الناس ان يكون قائمًا في امر خلاصه بين الرجاء والخوف. الرجاء لاعداد الله نعمه الكافية للجميع ومنحه النعم الفعالة لكل طالب كما ينبغي ان يطلب. والخوف لئلا نقاوم تلك النعم بشرنا ويتضاعف عذابنا وعقابنا. الرجاء لرحمة الله ورافته والخوف لعدله وقوته وكما ان تعظيم قوة النعمة يضعف قوة الحرية وتعظيم قدر الحرية يجحف بحقوق النعمة هكذا افراطنا من الرجاء برحمة الله يضعف خوفنا من عدله فنتوصل الى الجسارة ومنها الى الهلاك وافراطنا من الخوف يضعف فينا الرجاء ويوصلنا الى اليأس ومنه الى الهلاك ايضًا فلهذا كان الطريق المستقيم هو المتوسط بين الرجاء والخوف وهذا هو الذي يجب ان نستطرقه ان رمنا البلوغ الى السعادة ويلزم ان يرجح الخوف على الرجاء لان الرجاء نميل اليه غالبًا طبعًا لانهُ اسهل في امر الخلاص والخوف نكلف نفسنا اليه غالبًا لانهُ اعسر ومضاد لميل الطبع. وهوذا الاسباب

التي تحملنا على الرجآء والتي تحملنا على الخوف بالايجاز

فمن الاسباب التي تحملنا على الرجآء رحمة الله التي هي صفة جوهرية فيه تعالى واحد الكمالات التي لا يمكن الآن تكون جميعها في ينبوع الكمال ومجموعه ثم الجودة والسخآء والمحبة الملازمة ذاته المقدسة فانهُ عزَّ وعلا من حيث هو طبعاً رحوم وجوَّاد ومحب الناس فيحق لهم بكل صواب ان يترجوا نعمه وخلاصهم . ومن هذه الاسباب ارادته تعالى المصرحة في الوحي بانهُ يرغب في خلاص جميع الناس واقبالهم الى معرفة الحق وانهُ لا يريد موت المنافق بل ان يرجع اليه ويحيا . من هذه الاسباب بل اعظمها نزوله الى الارض متجسداً وموته متالمًا على الصليب ليفي عنَّا ويستحق لنا الحيوة الابدية ويعدُّ لنا النعم المبلغة اليها . ومنها وعوده بانهُ لا يخيب جميع المتكلين عليه وانهُ ما من احد ترجى بهِ فخزي . ومنها تحقيقه بان كلما نساله اياه نعطاه وما نطلبه نجده بل امره لنا بان نطلب منه ونصلي ليستجيبنا وتعليمه لنا كيف نصلي ونطلب وتحريضنا بان لا نمل من الطلب وان نساله بلجاجة وتوكيده بانهُ يعاملنا لدى سؤاله معاملة اب لابنه اذا سأله الخبز قدمه لهُ لا معاملته اذا طلب منه شيئًا نفيسًا او ثمينًا لم يكن في وسع الاب تنويله لابنه ومالي اعدّد اسباب الرجآء او اشير الى الايات التي تجرئنا عليه فان الكتاب المقدس برمته يجعلنا قائمين بين الخوف والرجآء فتاملوا بخلق الله الانسان الاول وعنايته بهِ ثم عنايته بالآباء الاولين وبالشعب الاسرائيلي في مصر ثم في افادته في البرية واشفاقه عليه كلما ساله الشفقة ثم اقامة

القضاة والملوك وتوفيقهم كلما لجأوا بهِ وسالوه واقامة الانبياء ليرشدوا شعبه اليه فكل ذلك لم يكن الاَّ لتقوية رجائنا بهِ ولم يكن شعب اسرائيل وعناية الله بهِ الاَّ نموذجاً لمعاملة الله اخصاءه كل هذا في العهد القديم واما في العهد الجديد فكلما فيه عن تجسد المخلص وانذاره وموته وارسال رسله للتبشير انما هو محرضات لنا على الرجاء كما هو واضح

على ان جميع الآيات الواردة في الكتاب للحض على الرجاء بالله تصرح او تفترض بلابدّ انهُ لا يكفينا الرجاء وحده ولا تكفينا الارادة وحدها بل يلزمنا العمل اي ان اساس رجائنا انما هو رحمة الله وجوده واستحقاقه لنا النعم والخلاص ولكن البناء على اساس الرجاء هذا انما هو اعمالنا الصالحة وحفظ وصاياه تعالى المقدسة . نعم ان الرجاء هو المرسى الامين والوطيد كما يقول الرسول ولكن لابد لهذا المرسى مما يتعلق بهِ والاَّ لكان الرجاء جسارة فالله علّق استجابة الرجاء بهِ على العمل بارادته ووصاياه ومع ان السعادة والخلاص من فضل نعمته ورحمته فقد شاء ان يكونا اجرة ايضاً لاعمالنا الصالحة المفعولة بنعمته قال القديس اغوسطينوس ان الذي خلقنا بدوننا لا يريد ان يخلصنا بدوننا . ولا يريد ان يخلصنا بمجرد رجائنا . ليت شعري كيف يحق لنا ان نترجى الرحمة والشفقة ممن نغيظه ونسيء اليه بمخالفة وصاياه والمجاهرة بذلك بعداوته او كيف نترجى نعمته وقد احتقرناها وما زلنا نحتقرها فلم نجاهر بالعداوة فقط بل نصرّ عليها ونتشبث بها فمن منكم يترجّى من عدوٍ لهُ ان يبذل اليه المعروف والاحسان وقد تشكى الله في الكتاب المقدس

ممن يجعل رجاءهُ بهِ وسيلة لاغاظته واوجب اللعنة على من كان كذلك اذ قال ملعون من يخطي متكلاً على الرجاء لعمركم اولادي ان هذا نشعر بهِ بنفوسنا ايضاً فانَّا نغتم من انسان يهيننا معتمدًا على محبتنا لهُ اكثر من انسان يهيننا لانهُ خصم او عدوٌّ لنا لان الاول يجعل معروفنا نفسه وتفضلنا عليه عينه وسيلة لاهانته بخلاف الثاني فيسخط الله ويغضب على انسان يأثم متكلاً على الرجاء جاعلاً رحمة الله وسيلة لاهانته اكثر من انسان يأثم لضعفه او يأثم ويخاف عدل الله فان الخوف يصدُّه عن الاثم فيما بعد واما الرجاء المذكور فيزيده تورطًا وانهماكًا بشره

واما الاسباب التي تحملنا على الخوف من الله فهي عديدة جدًّا وليست اقل من الاسباب التي تحملنا على الرجاء فمن هذه الاسباب واولها حصولنا على الحرية مع فساد طبعنا وضعفه وميله الى الشر فيجمح بنا الى المطامع والملاذ المحرمة حتى اننا نرى الخير ونقضي بوجوب عمله ومع ذلك لانعمله واذا كان الرسول نفسه تشكي من ذلك قائلاً اني اجد في اعضاي سنة اخرى تضاد سنة ضميري وتسبيني الى سنة الخطية وانهُ لم يكن يتيسر لهُ صنع الخير الذي كان يرغب فيه بل الشر الذي لم يكن يريده اياه كان يصنع فكيف لانخاف نحن الذين لم نتوصل الى شيء من النعم او الفضائل التي كان مجملاً بها ماربولس . ثم ان المحسوسات تؤثر بنا اكثر من الروحيات حتى نرى نفوسنا كاننا نطير الى اقل شيء محسوس نراه خيرًا لنا ونبقى كاننا مقعدون عن السعي للخير الروحي بل لارضاء ينبوع الخيرات الروحية ولو اورد على سمعنا

الف برهان سديد مفحم . نري الخطية قبيحة ونشمئز منها ونشناها ونمقت نفوسنا لارتكابها (اذا لم تكن قلوبنا تحجرت) ونبل الارض بدموعنا بسببها ولكن اقل تجربة تعرض لنا بعد ذلك تقوى علينا واقل سبب نضع نفسنا فيه يوهقنا بفخه وقليل من اللذة العابرة او من مطمع حقير يغشي عقلنا ويستحوذ علي ارادتنا فننسى كلما كنا نتصوره من اسباب الخير والرغبة فيه . يمنحنا الله نعمًا وتنويرات وينزل بنا مصائب وخسائر وامراضًا فلا نشعر بها اولا نلتفت اليها بل يعمينا حب العالم وملاذه عن النظر اليها ففي داخلنا اذًا عدوّ قتال لنا وكيف لانخاف وكيف لانجزع . من الاسباب التي تحملنا على الخوف عدل الله فانهُ تعالى ليس رحوم فقط بل عادل ايضًا يجزي كل انسان بعمله وليس ارتكابنا الاثم الاّ عصيان على اوامره ومخالفة لسنته وعدله لا يحتمل ان يبقى عملنا دون عقاب وانتقام والوقوع بيد الله الحيّ لمخيف جدًّا وهو لاتخفى عليه خافية ولايحتاج اجراء عدله الى بينة وشهود ولا يلزم لتنفيذه اكثر من فعل ارادته وعقابه ابدي لا ينتهي ما دام العدل فيه والعدل لا ينتزع منه وكيف لا نخاف

من هذه الاسباب رحمة الله ورافته نفسها التي ابداها نحونا قبل ان نوجد والامه وموته عنا واعداده لنا الاسرار والنعم قبل ان نكون وما برح يتحفنا بكنوز رافته واشفاقه من حين ادركنا التمييز الى الان فكم غفر لنا وكم اطال اناته وكم احتمل منا احتقار نعمه وكم وكم من مرة عصيناه وطلبنا المسامحة فتاب الينا وكم من التنويرات والالهامات والتنبيهات

بالمصائب والخسائر بل بالتوفيقات نفسها كل ذلك من مفاعيل رحمته وقد غمطناها وازدرينا بها وما برحنا على اثامنا فكيف لانخاف من ان الرحمة نفسها المبذلة عبثاً لنا تكون سبباً لتعجيل الانتقام منا بالترك لنا بالاثم الى نهاية حياتنا او بهلاكنا دون تأخر

من هذه الاسباب التي تحملنا على الخوف عظمة العقاب الذي ينزله الله بنا حتى ان القتل مع انهُ اكبر عقاب نخافه ليس هو بشيء بالنسبة الى عقاب الله الذي قال لاتخافوا ممن يقتل الجسد ولا يستطيع ان يقتل النفس انا ابين لكم ممَّ تخافون خافوا ممن يمكنه ان يهلك النفس والجسد في جهنم نعم اقول لكم من هذا خافوا واضف الى ذلك ابدية هذا العقاب اي دوامه ما دام الله موجوداً حتى اذا مرت مليارات من السنين كان هذا العذاب في بدايته غير مائل الى شيء من النهاية

فاذاً تخاف ايها الخاطي الاحمق من عدو لك اقوى منك قليلاً تخاف من حاكم لايمكنه ان يحكم عليك الاَّ ببينة وشهود تخاف من الحبس يوماً واحداً تخاف من مرض يعتريك او من حيوان يضرُّ بك تخاف من كلما يولك او يسقط من شانك او يذهب بكرامتك ولا تخاف من الله الذي بيده الحيوة والموت ولاتخاف ممَّن هو اقوى من كل من في العالم بنوع غير متناهٍ ولاتخاف ممَّن هو القاضي والشاهد والمنفذ الحكم بفعل ارادته فقط ولاتخاف ممن عقابه ابديّ لاينتهي ولاتخاف ممن هو علَّة كل العلل ومحرِّك كل الموجودات التي تخاف منها فيالله ما اجهل الخطاة وما اقبح عماه بصيرتهم فصلُّوا صلوا اولادي لئلا يكون احد منكم

بهذه الحال حاله وحتى اذا كان احد منكم على هذا الطريق المهلك ينير الله عقله بنعمته الفعالة ليعود اليه بالتوبة الحقيقية وكونوا في امر خلاصكم مقيمين ما بين الرجاء والخوف ورجحوا جانب الخوف من الله على الرجاء برحمته لتبلغوا الملك السماوي الذي ارتجاه لي ولكم بنعمة الاب الخ

الموعظة الخامسة

* القاها في ٢ اذار سنة ٧٥ في عيد القديس يوحنا مارون *

في الانتخاب والرذل

ان الذين يحبون الله يعينهم في كل شيء للخير الذين تقدم فدعاهم وعرفهم من قبل ووسمهم بشبه صورة ابنه ... والذين وسمهم من قبل فاياهم دعا والذين دعاهم برّرهم والذين برّرهم مجدّهم. رومية ص٨ عد٢٨ وما يليه. ان كنيستنا المارونية تجعل لنا في هذا النهار عيدًا لابينا القديس يوحنا مارون اول بطاركة طائفتنا على الكرسي الانطاكي وقد اوردت ترجمة هذا القديس المعظم من على هذا المنبر يوم عيده سنة ٧٢ وابنت سمو فضائله وجهاده ولذا اكتفي الان بالقول انهُ خير من صدق عليهم قول الرسول ان الذين يحبون الله يعينهم في كل شيء للخير فان زيادة محبته لله التي تنطبق على مجموع الفضائل جعلته تعالى يعين هذا القديس العظيم في الانتصار للدين القويم خلافًا للمبدعين في عصره وفي ضم شتات شعب البطركية الانطاكية الذي كانت الارطقات

الشرقية قسمته الى مذاهب مختلفة اذ كان في سورية نساطرة واوطاخيون ومونوطيليتيون اي من قالوا بمشيئة واحدة وفعل واحد في المخلص فبالهام الله انتخب الاساقفة الذين استمروا على الايمان الكاثوليكي في هذه البطركية للقديس يوحنا مارون بطريركًا عليهم ليكون بمنزلة قائد جيش باسل في محاربة اعداء الايمان هولاء وفي تشديد السريان الكاثوليكيين وتثبيتهم في الايمان القويم رغمًا عن ملوك القسطنطينية ايضًا الذين كان اكثرهم في ذلك العصر يحامون البدع والمبتدعين وهكذا اعان الله القديس يوحنا مارون في كل شيء لخير الشعب الكاثوليكي في البطركية الانطاكية مذ كان اخص من تقدم فدعاهم عز وعلا وبرّرهم ومجدهم ويمجدهم الى الابد في ملكوته السماوي حيث قديسنا هذا يشفع بشعبه ويعاونه بتوسلاته امام الله حتى بقي هذا الشعب الماروني بنعمة الله متمسكًا في الايمان الكاثوليكي منذ ذلك الحين الى الان بل من ايام انذار الرسل كما شهد له بذلك كثير من الاحبار الاعظمين والعلماء والمورخين المحققين ونساله تعالى ان يحفظ هذا الشعب المبارك متمسكًا ابدًا بعرى الايمان الكاثوليكي المقدس بشفاعة القديس مارون والقديس يوحنا مارون

هذا ولكي نعود الى سياق خطبنا الماضية نقول ان كلامنا السابق في النعمة ولزومها ومجانيتها وشرحنا النعمة الكافية والفعّالة يسوقنا الى الكلام في الانتخاب المعبر عنه بقول الرسول الذي استهللنا به وحيث ان وسم البعض ينتج منه ترك غيرهم دون وسم وهذا ما يعبر عنه بالرذل

فلهذا نتكلم هنا بالرذل ايضًا فيكون كلامنا مقسومًا الى ثلاثة اقسام. الاول في الانتخاب. والثاني في الرذل. والثالث ينطوي على تحريضات ادبية وروحية لتحقيق انتخابنا باعمالنا الصالحة وحيث ان هذه الموضوعات دقيقة ايضًا فاصغوا على حميد عادتكم واستمدوا لي ولكم التنوير من ابي الانوار مستشفعين بالقديس يوحنا مارون صاحب العيد

القسم الاول

لما كان الله بكل شيء عليمًا ولم يكن عنده في ازليته ماضٍ ومستقبل بل كل شيء حاضر كان يرى منذ الازل النعم التي يهبها لكل انسان وكيفية تصرفه بها بسعي معها او مقاومة لها وكيفية انتهاء امره عند آخر حياته فمن علمه بعلمه الازلي انهُ يثبت في البر ويبقى ساعيًا مع النعمة الى وفاته كان يعرفه منتخبًا ومن يقاوم النعمة ويصر على اثامه الى ان يتوفاه كان يعلمه مرذولاً. وعلم الله ومعرفته ازليان لا ينغيران ولا يمسان حرية الانسان بشيء فهذا هو الاساس والاصل لما يسميه اللاهوتيون انتخابًا ورذلاً ولكي نخص كلامنا اولاً بالانتخاب نقول قد عرّفهُ اللاهوتيون تعاريف مختلفة ونكتفي بذكر تعريف القديس اغوسطينوس لهُ في كتابه في انتخاب القديسين (راس ١٠) ان الانتخاب «هو اعداد النعمة» وقد اسهب في تعريفه في كتابه في هبة الثبات (راس ١٤) فقال «ليس الانتخاب الاّ العلم السابق واعداد احسانات الله التي يخلص بها بلا ريب كل من يخلص»

ويقسم الانتخاب الى ما هو للنعمة فقط وما هو للمجد فقط وما هو للنعمة والمجد معًا . فالاول هو اعداد الله نعمًا لبعض الناس فيقاومونها او يسعون معها احيانًا فقط ويموتون بحال الخطية فيهلكون فيكون انتخابهم للنعمة فقط. واما الانتخاب للمجد فقط فلا يوجد حقيقة اذ لا يصل الى المجد الاَّ من كان فائزًا بالنعمة ولكن الكتاب ذكر احيانًا المجد بمنزلة اجرة كقوله تعالى ان شئت ان تدخل الحيوة فاحفظ الوصايا وقوله كل من يترك لاجلي بيوتًا او اخوة او اخوات ينال عوض الواحد مائة ويرث حيوة الابد فالنعمة مضمرة اذ لا يمكن الخلاص دونها . واما الانتخاب للنعمة والمجد معًا فهو منح الله نعمه لمن خلصوا ليستنيروا بها ويبلغوا المجد الابدي ووجود الانتخاب للنعمة دون الانتخاب للمجد بيّن وتثبته ايات كثيرة منها قوله تعالى ما اكثر المدعوين واقل المنتخبين وناخذ الان في اثبات الانتخاب بعمومه

ان الانتخاب موجود ولاشك بهِ ومتى سلمنا بعلم الله السابق لزمنا التسليم في الانتخاب على ان لا شيء اثبت من سابق علمه تعالى بكلما كان ويكون في المخلوقات كلها وقد اوردنا الشواهد والبراهين المثبتة علم الله في خطبة اخرى فاذًا ما يفعله الله في الزمان قد حتم بهِ منذ الازل لانهُ منزه عن التغير وعن ان يطرأ عليه ما لم يكن قبلاً والحال انهُ يعطي النعمة والمجد في الزمان فاذًا قد حتم بذلك واعدّه منذ الازل وهذا هو الانتخاب فهذا البرهان موجز لكنه سديد واضح يكفي وحده مونة الاثبات

وهوذا بعض الايات الكريمة المثبتة الانتخاب فمنها قوله تعالوا يامباركي ابي رثوا الملك المعد لكم من قبل انشاء العالم (متى ص ٢٥ عد ٣٤) فهذا نصٌ صريح في اثبات الانتخاب من قبل انشاء العالم اي منذ الازل ومن هذه الايات ايضًا قوله لتلاميذه «افرحوا ان اسماءكم مكتوبة في سفر الحيوة» (لوقا ص ١٠ عد ٢٠) فكتابة الاسم في سفر الحيوة انما هي عبارة عن الانتخاب للحيوة الخالدة اي المجد الابدي ومنها قول مار يوحنا (رويا ص ٢٠ عد ١٥) «ومن لم يوجد اسمه مكتوبًا في سفر الحيوة أُلقي الى وهدة النار» ونكتفي من اقوال مار بولس الرسول باية الاستهلال التي ذكرناها التي هي نصٌ صريح في الدعوة الى الايمان والتبرير والمجد وبقوله ايضًا (افسس ص ١ عد ٤) «انتخبنا بهِ قبل انشاء العالم لنكون مقدسين» فاذًا لا ريبة بالانتخاب من قبل البرهان العقلي المستند الى الوحي ومن قبل الوحي بنفسه

الاً ان هذا الانتخاب مؤكد من جهة الله وغير مؤكد من جهة الانسان فتوكيده من جهة الله بيّن من ان علمه الالهي لا يُغش ولا يغلط ولنا في ذلك ايضًا ايات كثيرة منها قوله تعالى «هذه ارادة الاب الذي ارسلني بان كل من اعطانيه لا يهلك بل اقيمه في اليوم الاخير» (يوحنا ص ٦ عد ٣٩) وقوله «ان خرافي تسمع صوتي وانا اعرفها وهي تتبعني فاعطيها حيوة الابد ولا تهلك الى الابد ولا يخطفها احد من يدي» (يوحنا ص ١٠ عد ٢٧) ومنها قول الرسول «ان اساس الله ثابت ولهُ هذا الختم والرب يعرف خاصته» (تيموتاوس ٢ ص ٢

عد ١٩) فلا مرية اذاً في توكيد الانتخاب من جهة الله

واما عدم توكيك من قبل الانسان فلانه لا يقدر ان يعلم ما يصيبه وهل يستمر في نعمة الله او يفقدها او يسعى من النعمة او يقاومها وهذا يشعر بهِ كل منا بنفسه ومن الايات الكريمة المثبتة لهُ قوله تعالى « لا يعلم الانسان هل يستحق المحبة او البغضة (ابن سيراخ ص ٩ عد ١) وقول الرسول (رومية ص ١١ عد ٣٠) « وانت القائم بالايمان لا تشا ان تفتخر بل خف » وقوله « ومن كان يظن انهُ قائم فليحذر انهُ يسقط (قرنتية ١ ص ١٠ عد ١٢) وقوله « اعملوا عمل خلاصكم بالخوف والرعدة » (فيلبسيوس ص ٢ عد ١٢) واما سبب الانتخاب او علته فقد جعلها الاراطقة المانيون تبعًا لمبدائهم بكون الناس اما صالحين طبعًا او طالحين طبعًا فالصالحون هم المنتخبون والطالحون هم المرذولون وزعم اوريجانوس ان الانتخاب او الرذل معلق على استحقاق النفوس الثواب او العقاب قبل حلولها في الاجساد بحسب مبدائه ان النفوس البشرية وجدت قبل الاجساد واستحنت في هذه الحالة ثوابًا او عقابًا وهذان المذهبان اراتيكيان يخالفان التعليم الكاثوليكي وللاهوتيين الكاثوليكيين في الانتخاب مذهبان الاول ان الناس بالخطية الاصلية اضحوا جمعًا مشجوبًا ينظر اليه تعالى بعين السخط ومن هذا الجمع اختار الله عدد المنتخبين فيوليهم نعمًا تبلغ بهم الى الخلاص ويترك الاخرين يفوزون بالنعم الكافية فقط فيكون الانتخاب للمجد على مذهبهم هذا مقدمًا على الانتخاب للنعمة ومجردًا عن النظر السابق الى اعمال الناس

كما يكون مجانيًا بكليته وهذا المذهب ردَّه كثير من اللاهوتيين لاوجه كثيرة. منها انهاجه سبيلاً لاعتراضات جمّة ومنها ما ان استشهد لهُ اصحابه من الايات الكريمة يرجع الى الانتخاب للنعمة الذي لامرية بمجّانيته والمذهب الثاني الذي قال بهِ وصحّحهُ اكثر اللاهوتيين هو ان الله يريد حقيقة (بعد الخطية الاصلية ايضًا) خلاص جميع الناس وان المسيح مات وتالم عن جميعهم ولذا اعدَّ لجميع البالغين نعمًا اذا سعوا معها حسنًا وعاشوا مستقيمًا ادركوا الخلاص بالنظر الى استحقاق المسيح ورحمة الله المجانية وحيث ان كل شيء حاضر لديه تعالى انتخب للمجد من تقدم فعلم انهم يسعون مع نعمته ويستحقون السعادة الابدية ويموتون فائزين بالنعمة ورذل من علم انهُ يقاوم نعمته ويصنع الاثم ويموت اثيمًا وعليه فاعمال الناس مقدمة رتبة على رسم الانتخاب والرذل وان تقدمها زمانًا وهذه الاعمال هي علة للانتخاب وليس الانتخاب او الرذل علة لها والانتخاب للنعمة مقدم على الانتخاب للمجد وعليه فالانتخاب تابع وشرطي لامتقدم ومطلق والانتخاب للمجد ليس مجانيًا محضًا كالنعمة الاولى اذ علمنا الكتاب متواترًا ان هذا المجد اي الحيوة الابدية يعطاها الابرار بمنزلة اجر لاعمالهم الصالحة في هذه الحيوة

وقد اورد اللاهوتيون المشار اليهم ادلة وبراهين عديدة تأييدًا لمذهبهم هذا فقالوا. اولاً اننا لم نرَ في الكتاب المقدس اية واحدة تشير الى كون الانتخاب الى المجد الابدي برسم مطلق مجرد عن العلم باعمال الناس بل نرى ايات لاتحصى تصرّح بان المجد الابدي يُعطاه من

يستحقه بالاعمال الصالحة فاذًا هذا الانتخاب للمجد معلّق على اعمال الناس الحسنة وليس على مجرد مرضاة الله بانتخابه بعض الناس وتركه بعضهم كما يقول اصحاب المذهب الاول. ثانيًا ان هذا الانتخاب الذي يدّعيه اصحاب المذهب الاول لم يقل بهِ احد من آباء الكنيسة في اجيالها الاربعة الاولى بل تصوروا جميعهم الانتخاب الى المجد الابدي موسَّسًا على علم الله السابق باعمال الناس الصالحة التي يصنعونها بنعمته تعالى ثالثًا انهُ لا يطابق روح الكتاب المقدس ان يحتم الله حتمًا مطلقًا بالانتخاب دون تعلق على علمه السابق باعمال الناس فالكتاب يعلمنا ان الله حتم ان يفتدي بالمسيح العالم والطبع البشري وبالتالي جميع الناس دون استثناء وانهُ يريد خلاص جميعهم ويمنح الجميع بالمسيح الوسائل المبلغة الى الخلاص الّا انهُ تعالى سبق فرأى ما يصنعه كل من الناس بنعمه فجزم ان يولي السعادة لمن يطاوع نعمه وان ينكرها على من يرفضها ومن سقط من ذلك الانتخاب سقط بذنبه على انهُ لو كان الله اعدّ البعض فقط للسعادة ونوال الغاية بامر مطلق غير متعلق على اعمالهم لما صدق القول ان المسيح مات فداءً عن الجميع او انهُ اصلح الجميع ولما استطاع الناس جميعًا البلوغ الى غايتهم بل يكون الله اعدّ كثيرين منهم للهلاك. رابعًا انهُ لو كان الانتخاب بامر مطلق لما بقي رجاءٌ لمن لم يكن منتخبًا لان الرجاء موسَّس على رحمة الله ووعده من يسعى مع نعمه بالخلاص فاذا لم يكن منتخبًا ولا موعودًا فكيف يترجى السعادة وعلامَ يتأسّس رجاؤهُ خامسًا ان اصحاب المذهب الاول يقولون ان الرذل لا يكون الّا بعد

علم الله السابق باثام الناس فلمَ يكون الانتخاب دون هذا العلم . سادساً ان الكتاب المقدس يعلمنا ان ليس عند الله محاباه ولا اخذ بالوجوه والحال انهُ لو كان اعد بعض الناس بامر مطلق دون تعلق على اعمالهم للمجد السموي وترك بعضهم دون هذا الانتخاب لكان عنده محاباه تنزه الله عن ذلك فبهذه البرهانات وغيرها يثبت اصحاب المذهب الثاني رأيهم بان الانتخاب للمجد معلق على اعمال الناس بعلم الله السابق

وقد استشهدوا لرايهم هذا بايات كثيرة من الكتاب المقدس فنكتفي بذكر بعضها فمنها قوله تعالى (متى ص ٢٥ عد ٣٤) «تعالوا يامباركي ابي رثوا الملك المعدّ لكم من قبل انشاء العالم لاني جعت فاطعمتموني الخ» فلاحظ قوله المعد لكم من قبل انشاء العالم يعني الذي انتخبتم لهُ لاني رايتكم منذ الازل تصنعون افعال الرحمة كاطعام الجياع واسقاء العطاش واكساء العراة الخ . وينتسق في هذا السلك مثل الفعلة الذين ارسلهم رب الكرم الى كرمه وشارطهم على اجرة المراد بهِ الملكوت السماوي المكتسب بالاعمال الصالحة فلم يدفع لهم الاجرة برسم مطلق بل مقيدٍ على اجرة شارطهم عليها بدل اشتغالهم في كرمه . ومن هذه الايات قول الرسول (قرنتية اولى ص ٢ عد ٩) «لم تره عين ولم تسمع بهِ اذن ولم يخطر على قلب بشر ما اعده الله للذين يحبونه» فلاحظ قوله للذين يحبونه ولم يقل للذين احبهم اي ان ما اعده انما هو جزاء لمن سبق فعلم انهم يحبونه ويستحقون هذا المجد الذي لم تره عين الخ ومنها ايضاً قوله «كملت سعيي وحفظت ايماني وقد حفظ لي منذ

الان اكليل البر الذي يجازيني بهِ في ذلك اليوم سيدي الحاكم العادل ليس لي فقط بل للذين احبوا ظهوره ايضاً ،، (تيموثاوس ٢ ص ٤ عد ٧) فكانهُ يقول ان اكمال سعيي وحفظ ايماني جعل سيدي يجازيني بعدله باكليل البر ويجازي نظيري من احبوا ظهوره واستعدوا لهُ باعمالهم الحسنة فذاك جزآء وليس برسم مطلق دون تعلق على الاعمال . ومنها ايضاً قول ماري بطرس الرسول (رسالته الثانية ص ١ عد ١٠) ،، اجتهدوا يا اخوتي ان تحققوا دعوتكم وانتخابكم بالاعمال الصالحة ،، فهذا نص صريح على ان الانتخاب للمجد انما يتحقق بالاعمال الصالحة . ويضاف الى هذه الايات جميع الايات التي ينسب بها المجد والملكوت السماوي الى الاعمال الصالحة بمنزلة اجرة وجزآء كقوله طوبى للمساكين بالروح فان لهم ملكوت السمآء . وكقوله كلمن ترك لاجلي بيوتاً او اخوةً او اخوات . . . ينال عوض الواحد مائة الى غير ذلك من الايات الكثيرة التي تشبه هذه . واما اقوال الاباء المؤيدة ما نحن لهُ مثبتون فاكثر من ان تحصى او تذكر في خطبة كهذه . فقد ثبت اذاً ان الانتخاب للمجد انما هو معلق بعلم الله السابق باعمال الناس الصالحة وان هذه الاعمال والانتخاب المعلق عليها هي علة لعلم الله لا علم الله علة لها وان تقدمها بالازلية التي بها يرى الله كل شيء حاضراً دون فارق بين الماضي والمستقبل

القسم الثاني

* في الرذل *

عرف معلم الارآء الرذل بانهُ علم الله السابق باثم بعض الناس

واعداد الهلاك لهم لذلك فكما ان علم الله السابق باعمال بعض الناس الصالحة هو اصل الانتخاب هكذا علمه تعالى السابق باثام بعضهم الاخر هو اصل الرذل وسببه فالرذل اذًا موجود اذا وجد من هلك ويهلك باثمه والحال ان الكتاب المقدس موعب في العهدين القديم والحديث من الايات والامثلة المثبتة ذلك فاذًا لا ريب في وجود الرذل ولما كان كلما يعلمه الله في الزمان يكون محتومًا منذ الازل فالرذل اذًا بهذا المعنى ازليٌ مسنود الى علمه تعالى منذ الازل بما يصنعه الاثمة من الاثم واستمرارهم عليه الى حين وفاتهم وهذا لا يضاد ارادته تعالى بتخليص جميع الناس لان هذه الارادة مشروطة على ما اذا اراد كل منهم ان يخلص كما انهُ لا يضاد موت المسيح فداءً عن جميع الناس لان هذا الفداء مشروط ايضًا على اشتراك الناس بهِ باعمالهم الصالحة وسعيهم مع النعمة التي كسبها لهم المخلص بهذا الفداء ثم ان هذا الرذل يقوم بشيئين الاول النفي عن مشاهدة الله والثاني العذاب في جهنم وقد اشار تعالى الى ذلك بقوله في بشارة متى ص ٢٥ "اذهبوا عني ياملاعين الى النار المؤبدة فاشار الى الاول بقوله اذهبوا عني والى الثاني بقوله الى النار المؤبدة.

زعم كلوينوس ومَن تبعه ان الرذل لمجرد مسرة الله لا للنظر السابق الى اثم الناس (كتابه الثالث من رسومه) وكذا زعم كلمن قالوا ان الانسان خسر الحرية بالخطية الاصلية اما اللاهوتيون والعلماء الكاثوليكيون فيجمعون دون خلاف على ان اصل الرذل وسببه علم الله السابق باثم الناس ولهم في ذلك برهانات لاهوتية كثيرة واستشهدوا

باياتٍ من الكتاب لاتحصى تأييدًا للتعليم الكاثوليكي اما نحن فنكتفي بالاشارة الى شيء من تلك البرهانات وبذكر بعض تلك الايات المقدسة ففي البرهانات اللاهوتية نقول

اولاً ان الله صالح طبعًا بل هو ينبوع الصلاح الذي لايمكن فصله عنه وكل صلاح في الناس انما هو بمنزلة ظل لصلاح الله وصفة الصلاح في الله هي ذاتية فيه حتى يستحيل على من يكون الهًا ان لا يكون صالحًا وبهذا المعنى قال في الانجيل ليس الصالح الاَّ الله وحيث ذلك فكيف يمكنه تعالى مع صلاحه ان يحكم بهلاك انسان خلقه على صورته ومثاله وافتداه بابنه الحبيب واتحفه بنعم لا توصف واعده للتنعم بمشاهدته بملكه الابدي دون ان يكون هذا الحكم بالهلاك مؤسسًا على ذنبٍ او اثمٍ من قبل الانسان لعمري انهُ تعالى يكون خاليًا على هذه الفرضية والعياذ به من كل صلاح . ثانيًا ان الله عادل والعدل ملازم لذاته المقدسة لا ينفك عنها فكيف يمكنه مع عدله ان يحكم على انسان بعقاب ابدي دون جريمة او زلة ودون ان يكون لذلك الانسان مفرٌ من ذلك الهلاك فاذا كان كلوينوس ومن تبعه لهم الهٌ ينزلونه منزلة نيرون او غيره من الملوك البرابرة القساة فالهنا عادل منزه عن الجور والحيف ولا يعامل احدًا منا الاَّ بالعدل ولنا الكتاب المقدس حجة بيدنا تصرح بعدله كانه في كل صفحة ولنا ارشاد عقلنا المستقيم بانه تعالى عادل بل ينبوع العدالة ومن كان كذلك لا يمكن ان يهلك من خلقه وافتداه بلا مأثم ولاجرم . ثالثًا انهُ تعالى جواد لاينفك عن الجود طبعًا فاي جود

اتصف بهِ اله كلوينوس ومن تبعه وهو يعذب بعض مخلوقاته موءبدًا لمجرد مسرته دون ان يستحقوا العذاب بعلمهِ ودون نظر او علم سابق الى اثامهم او اغاظتهم لهُ . رابعًا ان الخلاص والهلاك في تدبير العناية الصمدانية هما اغراءٌ واقتياد وسوق الى عمل الفضيلة ومجانبة الرذيلة فلو سلّمنا ان الرذل من المجد لمجرد مسرة الله دون علم سابق باثم المرذولين وان الانتخاب كذلك دون علم سابق بعمل صالح للمنتخبين فاين يبقى الاغرآء بالفضيلة او الاقتياد الى مجانبة الرذيلة وما تكون المنفعة على ذلك من الاوامر والنواهي والوصايا والزواجر المحشو بها الكتاب المقدس برمتهِ واذا كانت تلك الاوامر او النواهي ليست حشوًا في الكتاب المقدس فكيف يمكن تأييدها واجبار الناس على العمل بها اذا كان لا نفع ولا ضرّ منها للخلاص او الهلاك بل كلاهما متعلق بمسرة الله لا غير فكلما تقدم واضح ساطع لا سبيل لانكاره او التردد بهِ الاّ ممن لم يكن عقله سليمًا او بُلي بدآء الارتياب في كل شيء

فلنشر الان اشارة عامة الى الايات المقدسة التي تثبت لنا ذلك فمن هذه الايات الايات التي تشير الى ان الله يريد خلاص الجميع وقد تقدم ذكر كثير منها ومنها الايات التي تشير الى ان المخلص قدم نفسه فدآء عن جميع الناس كقوله الذي لم يشفق على ابنه الوحيد بل بذله عن جميعنا وكقوله فاذًا الجميع ماتوا ومات المسيح عن الجميع . ومنها الايات التي يستدعي بها الجميع اليه كقوله تعالوا اليّ يا جميع التعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم ومنها الايات التي يستدعي بها الجميع الخ

التوبة ويوضح انهُ لا يريد ان يهلك احد الاثمة فاذا كان الله يريد خلاص الجميع وكان المسيح مات عن الجميع وكان يستدعي الجميع اليه ليمحوا آثامهم بالتوبة وقد ورد ذلك في الوف من الايات فكيف نجسر ان نقول انهُ يهلك بعض الناس ويرذلهم لمجرد مسرته دون نظر سابق الى آثامهم وكيف يتفق ذلك مع قوله «انهُ لم يصنع الموت ولا يسر بهلاك الاحياء (حكمة ص ١ عد ١٣) ومع قوله «تحب كل موجود ولا تبغض شيئًا مما صنعت (هناك ص ١١ عد ٢٥) ومع الايات العديدة التي يقول فيها انهُ يجازي كل انسان كاعماله ومع قوله «ان هلاكك منك يا اسرائيل وفيَّ معونتك فقط» (هوشع ص ١٣ عد ٩)

فيقول البعض اذا كان الله انتخب بعضًا الى الخلاص وبعضًا للهلاك بسابق علمه الذي هو ازلي وغير متغير فاذًا من انتخبهُ الله الى الخلاص يخلص ضرورة ومن رذله واعده للهلاك يهلك ضرورة فاين تبقى الحرية في الانسان وكيف يمكنه ان يغير سابق علم الله بحاله . والجواب قدمنا مرارًا ان علم الله السابق وان تقدم من حيث الزمان (او الاصح ان نقول من حيث الازلية) على اعمال الناس وخلاصهم او هلاكهم الّا انهُ متأخر رتبةً عن هذه الاعمال التي سوآءٌ كانت صالحة ام طالحة فهي علة لعلم الله لا علم الله علة لها واذا تصورتم انهُ ليس في علم الله الازلي ماضٍ ومستقبل بل كل شيء حاضر تسهل لكم فهم هذه الحقيقة ونزيد ذلك ايضاحًا بقولنا كما ان علمنا الان بخطية ادم لم يجعل في ادم شيئًا من الاضطرار ولم يمس حريته بشيء هكذا علم الله السابق بخطية ادم مستقبلة

كعلمنا بها ماضية وكذا قل في خطية كل اثيم وهلاكه بسببها وفي برارة كل صالح وخلاصه بسببها فتقولون ولكن مع وجود علم الله السابق بان ادم سيخطي او ان بطرس سيجحد او ان يهوذا سيسلمه فما عاد ممكنًا لادم ان لا يخطي ولا لبطرس ان لا يجحد ولا ليهوذا ان لا يسلم معلمه والاَّ فيغش علم الله وهذا مستحيل. فاجيب انكم تقيسون ذلك على افكار الناس لا كما يجب ان نتصور علم الله الازلي الذي يكون فيهِ كل شيءٍ حاضرًا والذي يشبه معرفتنا الماضية فلو لم يكن ادم مزمعًا ان يخطي او بطرس ان يجحد المخلص او يهوذا ان يسلمه لما علم الله ذلك بل علم العكس اي ما كان مزمعًا ان يحصل بنوع ان يبقى علم الله غير متغير وحرية الانسان غير منثلمة وكما ان معرفتنا بتسليم يهوذا للمسيح ما عاد ممكنًا ان تغير الواقع او ان تضطر يهوذا الى تسليم معلمه فهكذا علم الله بهذا الامر مستقبلاً فكانه تعالى يرى هذا الامر بعد وقوعه وكذا قل في هلاك جميع المرذولين فان الله يراهم بسابق علمه يموتون في الخطية ويهلكون كما نعلم نحن هلاكهم ماضيًا ولو كانوا مزمعين ان يتوبوا عن اثمهم ويخلصوا لراى الله ذلك وعلم بخلاصهم لا بهلاكهم وبهذا المعنى قال القديس امبروسيوس في ك ٢ في بشارة لوقا «« يعرف الله ان يغير رايه اذا عرفت انت ان تصلح الاثم »» وقد تكلم هذا القديس هنا بما يطابق نوع التصور البشري بقوله ان الله يغير رايه فالله غير متغير وما يراه كذلك لكنه منذ الازل يرى ما سوف يقع بما انهُ وقع حقيقة والحاصل من ذلك جميعه ان علم الله السابق لا يتغير لكنه معلق على ما يصنعه

الانسان في الزمان ان خيرًا او شرًا وان ذلك لا يمس حرية الانسان من وجه بل يصنع باختياره كأن هذا العلم غير موجود وعليه فان هلك وكان مرذولاً كان ذلك باثمه ولا تاثير للعلم الالهي به وان خلص وكان من المنتخبين كان ذلك بسعيه مع نعمة الله وتحقيق انتخابه باعماله الصالحة

فيتفلسف بعض الجهلة بقولهم تسويغًا لشرهم ان كنت منتخبًا فاخلص ولو مهما اخطأت وان كنت مرذولاً فاهلك ولو مهما صنعت من المبرات فقد رددت هذا القول السفسطي في خطبة سابقة على مسامعكم وبرهنت فساده بامثلة عديدة منها انهُ لو صح هذا البرهان اصح كلما ماثله مثلاً كان يمكن التاجر ان يبرهن هكذا اما ان الله عالم باني اكون غنيًا او لا فان كان الاول فاغتني ولو لم اتجر بشيء وان كان الثاني فلا اكون غنيًا ولو مهما اتجرت او ربحت وهكذا كان يمكن الزارع ان يبرهن اما ان الله علم بانني احصل على غلاتي او لا فان كان الاول فاحصل عليها ولو لم ازرع وان كان الثاني فلا احصل عليها ولو مهما زرعت الى غير ذلك مما يفضي الى بطلان الحركة في العمران والى التوصل الى الغاية دون وسائطها وازيد على ذلك الان انهُ لو صح هذا البرهان لادركه الشيطان قبلنا لانهُ اعلم من الناس فانه كان يبرهن هكذا ان الانسان معد اما للخلاص واما للهلاك فان كان معدًا للخلاص فعبثًا اتعب في تجربتي وان كان معدًا للهلاك فلا حاجة الى تعب ارأيتم اولادي ما ابطل هذا البرهان فحذار من الاعتماد عليه ولو في عمق افكاركم

فبقي علينا رد الاعتراض ببعض الايات المقدسة كقوله احببت يعقوب وابغضت عيسو وقوله اني ارحم من ارحم واتحنن على من اتحنن الى غير ذلك من الايات المشبهة هذه وقد قدمت في احدى خطبي السابقة هذه السنة ان الكلام في هذه الايات الكريمة انما هو على الدعوة المجانية الى الايمان والى نعمة التبرير وبالتالي هذه الايات تلاحظ الانتخاب الى النعمة لا الانتخاب الى المجد ولا تلاحظ الرذل من السعادة والملكوت فان الانتخاب الى المجد يعطى بمنزلة اجرة عن الاعمال الصالحة المصنوعة بنعمة الله والرذل يحصل انتقاماً من الاثام بعلم الله السابق

القسم الثالث

قد اتضح لكم اولادي الاعزاء ان الانتخاب والرذل معلقان على اعمال كلٍ منا دون ان يؤثر رسم الله بشيء من حريتنا بل كما يكون عملنا صالحًا او سيئًا يراه الله بسابق علمه منذ الازل ويعلم ما تكون نهاية كلٍ منا فيكون هذا سببًا لاعداده المجد الخالد او العذاب الابدي لكلٍ بحسب استحقاقه ولكن استعمل بعض الناس حقيقة الانتخاب للطمع برحمة الله سندًا الى انهم منتخبون وبعضهم حقيقة الرذل لليأس سندًا الى انهم مرذولون وان لم يصرحوا بذلك فيخالجهم فكر عميق به يسهل لهم الشر وقد برهنت ما اكثر بطلان هذا السند وانهم بئس ما يصنعون فمن عقائد ايماننا ان خلاصنا معلق على نعمة الله واعمالنا الصالحة فهذا هو المبدأ الصحيح الذي يلزمنا ان نجعله اساسًا لخلاصنا فلنا الحق بان

نتكل على الله ونرجو نعمه ونثق بانهُ لا يبخل علينا بكلما هو ضروري لخلاصنا ولكن علينا الالتزام بان نتعب لاجل الله ونحفظ وصاياه المقدسة ونسلك في طريق الفضيلة نعم ان الله انتخبنا واعدّنا اما للسماء واما لجهنم لكنه علّق ذلك على عملنا الذي هو علة لعلمه دون ان يوثر علمه بنا اكثر من تاثير علمنا بسقوط ادم او جحود بطرس او هلاك يهوذا كما قدمت

قال القديس اغوسطينوس ان من خلقنا بدوننا لا يخلصنا بدوننا اي انهُ اوجدنا من العدم الى الوجود بمجرد تفضل منه وتفضيلنا على مليونات من الناس لم تزل مطروحة في لجة الامكان لكنه لا يريد ان يخلصنا دون ان نستحق الخلاص بسعينا مع نعمه . ان الله مع كونه على كل شيء قدير وحكمته غير متناهية فلا يمكنه ان يجعلنا نرجع عن اثامنا ونقبل اليه بالتوبة دون ان نريد ذلك نعم انهُ يستطيع ان يحمل ارادتنا على التوبة ولكنه لا يستطيع صنع ذلك دون ارادتنا بعد ان حتم بان لا يكون الخلاص دونها ولنا على ذلك امثال كثيرة في الكتاب المقدس والانجيل خاصة فانّا نرى المخلص سأل الاعمى ماذا تشا وكان يعلم انهُ يطلب ان يبصر وكذا سأل المخلع على بركة الضان هل تريد ان تشفى وكان يعلم انهُ يريد ذلك فما هذا الاّ ليوضح لنا انهُ لابد لارادتنا من اشتراك ما بما يريد ان يمنّ علينا بهِ قال القديس اغوسطينوس ايضاً ان الله بمقدار ما يهان بدعوانا ان نرجع من دونه بمقدار ذلك تكون قلة النفع لنا من دعوانا بانهُ يرجعنا الى التوبة دوننا نعم ان نعمة الله تفعل

اولاً ولكن يلزمنا ان نفعل ثانياً بسعينا معها والحاصل اننا كيفما تصورنا هذا الامر فلابد لخلاصنا من اشتراكنا مع نعمة الله بالسعي به ولا يفيدنا شيئاً اعتمادنا على كوننا منتخبين . ويضر بنا كثيراً تصورنا باننا من المرذولين

اننا نرى كثيراً من الناس يقولون بطالع السعد او النحس وينسبون توفيق كثير من الناس الى الاول وتقهقر غيرهم او عدم توفيقهم الى الثاني الا انهم لا يعتمدون على هذا المبدأ بشيء من اعمالهم العالمية فلا يتاخرون عن السعي في طلب مغنم ولا عن الفرار من خطر مفاجئ بل يبذلون كلما في طاقتهم للتوصل الى ما يرغبون او للفرار مما يكرهون فلا اعلم ما السبب الذي يجعلهم يعتمدون على مبدا كهذا في الانتخاب والرذل في امر الخلاص الذي لا يغنينا عنه العالم بكلما فيه من متنى وملاذ ولو جمع كلما فيه لواحد وحده واذا كان لنا حجة في ذلك من جهة الانتخاب والرذل فتكون تلك الحجة اما بكوننا منتخبين اما بكوننا مرذولين فان كان الاول فليس من علامات الانتخاب ارتكاب المآثم والتوحل بالرذائل والاصرار عليها فلا حق لنا وحالتنا هذه ان نحتج باننا منتخبون وان كان الثاني فباي برهان نحصي نفوسنا بين المرذولين حال كوننا نرى كثيراً من الناس كانوا اكثر اثماً منا وادركوا اخيراً الخلاص فهل نحن اكثر اثماً من اللص الذي صُلب من عن يمين المخلص او من مريم المجدلية او من غيرهما من الخطاة المشهورين الذين خلصهم الله بنعمته فيبقى الاغفال والتهامل في امر خلاصنا وترك هذا الامر الذي هو اهم من

كلما سواه دون اهتمام بهِ ابهذا يكون الاغفال وآلهذا يكون الاهمال فتقولون كلا لكننا نريد الخلاص الاَّ انهُ علينا ان نفحص باية ارادة تريدونه وعلى ما ارى في كثيرين منا ولبتني غير صادق انهم يريدون ذلك ارادة باردة ارادة دون تعب ارادة دون قهر اميال اهكذا يريدون كبار الامور اهكذا يريدون البرء من مرض عضال اهكذا يريدون ربح دعوى كبيرة لا لعمري بل يريدون ذلك بارادة فعَّالة واما امر الخلاص فيريدونه بارادة هيهات ان تسمَّى ارادة ان بيلاطس كان يريد اطلاق المسيح ولكن هل كان يكفيه القول اريد اطلاقه لا لعمري بل كان يلزمه ان يجزم بمقتضى حقه باطلاقه من بين ايدي اليهود وهيرودس ايضًا لم يكن يريد ان يقطع راس يوحنا المعمدان وقد غث عليه ذلك ولكن هل كان يكفيه ان يريده باطنه فقط وقد ارسل سيافًا فاتى براسه على طبق ودفعه الى الصبية فلو اراد استحياء يوحنا للزمه ان ينتهر تلك الصبية ويبين لها فظاعة طلبها ثم ان ذلك الشاب الغني كان يريد ان يخلص ولكنه لمَّا قال لهُ المخلص اذهب فبع مقتناك واعطه المساكين رجع حزينًا فلم تكفه تلك الارادة للخلاص وهكذا ارادة من يقولون انهم يرغبون في الخلاص ولكنهم يريدون الفوز بهِ من غير ما تعب بل مع ارتكابهم كلما ينافي الخلاص ويجلب الهلاك باسخاطه الله بفعل الكبائر

فلنوقنن اولادي بان الانتخاب والرذل من جهة الله هما من نظام اعلى منا ولا يتعلق بنا ولا يمس حريتنا بشيء واما من جهتنا فهما معلقان

على اعمالنا فليس لنا اذاً في سفرنا في هذه الحيوة الى الاخرة الاّ طريقان طريق الانتخاب اي جعل نفوسنا منتخبين وطريق الرذل اي جعل نفوسنا مرذولين واذا تصورنا الطريقين وجدنا طريق الانتخاب المودي الى الخلاص وان كان ضيقاً في مدخله فانما هو رحب ماذ بعد الدخول فيه وبعكسه طريق الرذل المودي الى الهلاك فانه وان كان واسع الباب الاّ انهُ ضيق المسلك وعر معذب ولنتبصرن قليلاً في كل من الطريقين

فطريق الانتخاب ضيق لقوله تعالى ادخلوا في الباب الضيق لكنه رحب من بعد ذلك يُسار بهِ بين رياض الفضائل ورياحين التعزية السماوية كتفول المرتل على المرج الخصب احلّني وهذا يشعر بهِ كل منا بنفسه عندما يصنع خيراً او يقمع نفسه عن رذيلة او عندما يعترف اعترافاً نقياً نعم ان طريق الانتخاب هذا يظهر عسراً ولكن على من تشبث في الرذيلة وبهذا المعنى قال المخلص ان ملكوت السماء يُغصب اي لابد من قهر الاميال النفسانية وقمع الاهواء الاّ ان ذلك يستعاض عنه بالعذوبة والتعزيات السماوية فتاملوا حال جنديٍّ نزل الى معركة وخرج منها سالماً منتصراً فلذة انتصاره تحجب تصور الخطر الذي كان فيه فيتعوض تعبه بفرحه مضاعفاً نعم ايضاً ان السالكين في طريق الانتخاب تصيبهم احياناً مصائب لان الرب يجرب خائفيه لكنهم يتحملون تلك المصائب بفرح كانها بارزة من يد الله تاملوا بهذا الشان بحالة ام تربي ولدها باسهارها واتعابها ولطمه لها احياناً وكل ذلك يسرّها

بعكس ما لو كانت مسخرة بتربية ولد اجنبي فهكذا هو الفرق في المصائب بين السائرين بطريق الانتخاب وطريق الرذل . في طريق الانتخاب ثمار شهية تُجنى من الصلوات والتأمل ذوقوا وانظروا ما اطيب الرب زاد هذه الطريق المنّ الذي نزل من السماء لا كالمن الذي اكله اليهود وماتوا شريعة الله نوره الذي لا يُطفى كقول المرتل شريعتك سراج لرجليّ ونور لعينيّ المخلص يتقدم المنتخبين في هذه الطريق كقوله ان مَن اراد ان يكون لي تلميذًا فليحمل صليبه ويتبعني واذا تعب من الصليب اي من مشقة الفضيلة راى المسيح واقفًا يقول تعالوا اليّ ياجميع التعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم وان صادفتهُ صعوبة خففها عليه ولم يدعه يتحمل فوق طاقته كقول الرسول لا يدعكم ان تجربوا فوق طاقتكم رفقاؤه في هذه الطريق الملائكة يقونه العثار كقول المرتل انهُ يوصي ملائكته بك ليحفظوك في طرقك وعلى ذراعيهم يحملوك لئلا تعثر بحجر رجلك لا يخشى فيه المصائب ولا الموت لان قائده يقول لا تخافوا ممن يقتل الجسد وكلما تقدم في هذه الطريق ازداد لذة وسرورًا وقوة كقول المرتل ويجدد مثل النسر شبابك واذا قرب من المعبر اي من نهاية هذه الطريق طار فرحًا واشتاق الى الانحلال والاتحاد مع المسيح كما كان يقول المرتل من يعطيني جناحين كالحمامة فاطير واستريح واشتاقت اليك نفسي يا الله كاشتياق الايل الى المياه او كقول الرسول من يعطيني ان انحل من هذا الجسد واصير مع المسيح واما ما تودي اليه هذه الطريق فمهما قلت فيه او بالغت كان كلامي اقل من الحقيقة فانهُ

لم تره عين ولم تسمع بهِ اذن ولم يخطر على قلب بشر ما اعده الله للذين يحبونهُ وليس محل الان لاعدّد بقدر الطاقة البشرية ما تبلغ اليه هذه الطريق اي السعادة الابدية في السمآء ويكفيني القول بان السائر في طريق الانتخاب ينهي سفره بامتلاك الله مصدر كل خير ولذة وسرور كقوله من يغلب اعطه ان يجلس معي في ملكي وهو تعالى بقدرته القادرة على كل شيء ينعم منتخبيه ويشدّ وسطه ويتكيهم ويتردد في خدمتهم وهم يضيئون كالشمس في ملكوت ابيهم حتى عبر عن ذلك لا بان الفرح يدخل في النفس بل بان النفس تدخل في الفرح كقوله ادخل الى فرح سيدك وهذه الحال السعيدة تكون دائمة مخلدة ما دام الله الهًا فهذه هي طريق الانتخاب وما تودي اليه

واما طريق الرذل فنعم ان بابها واسع كقوله ما اوسع الباب المودي الى الهلاك والداخلون فيه كثيرون واما الطريق بنفسها فضيقة مكربة ولا يراها رحبة الّا من اظلم الاثم عقله فمشى في الظلام لان من يمشي في الظلام لا يدري اين يمضي لان الظلمة اعمت عينيه كقول مار يوحنا الحبيب في رسالته ونعم انهُ يظهر في هذه الطريق ما يغرى الحواس ويلذها لكن ذلك منظور بمرآة مكبرة او لرد نظارة معظمة فميلنا الجسدي وابليس يريانا ملاذ الجسد بهذه النظارة مع ان الحكم على احد الاجرام او على احد الامور يكون اصح واحق بمقدار ما يكون القرب اليه وبعد وقوع التجربة عليه لاقبلها فاسالكم ان تحكموا على ملاذ الجسد ومطامعه بعد ان تكونوا اتبعتم اميالكم بها بل فليلاحظ كل من الاثمة ماذا يرى

من آثامه الماضية الى اليوم واي نفع بقي له منها وهل كان له راحة بها بمقدار ما كانت له لو كان سلك طريق الانتخاب . فاذًا طريق الاثم والرذل في نفس هذه الحيوة مضنك متعب معذب مغروس بشوك حادٍ ومسيج بهِ كقوله سيجت طرقي بالشوك المراد بهِ هنا مناخس الضمير. الطعام في هذه الطريق الخروب وقلما يتمكن منه كما قال المخلص في الابن الشاطر انهُ كان يشتهي ان يملي جوفه من الخروب الذي تأكله الخنازير ولا يمكنهُ منه احد فالخروب يهيج الشهية ولا يشبع وهكذا ملاذ العالم . رفقاء المرذول في هذه الطريق الشياطين الذين يزأرون طالبين من يبتلعونه ولا سلامة للسائرين فيها كقوله لا سلام للمنافقين وان اصابته مصيبة بلغت منه كل مبلغ اذ ليس ما يعزيه كما يتعزى الابرار بتصورهم ان ذلك بارز من يد الله وكلما تقدم الانسان في هذه الطريق ازداد عماء كمن يبتعد عن النور فكلما بعد قلَّ ضوءه حتى يختفي ومتى بلغ المعبر فيهات ان يمكنه ان يعود يرجع عن طريق سلكها عمره فيبتدي يشعر بضلاله ويرى ما ادته اليه هذه الطريق وقد ندر كثيرًا التمكن من اصلاح الغلط اذ ذاك واما ما يصل اليه في منتهى هذا الطريق من التعاسة الابدية والعذاب الخالد فلا محل الان لبسط الشرح فيهما ونكتفي بقولنا ان الهًا على كل شيء قدير قد انتهى وقت الرحمة عنده وحضر وقت العدل فيعذب مخالفيه بنار لا تطفا ودود لا يموت مع اليأس الدائم من امكان اصلاح ما مضى فحينئذٍ يقولون للجبال قعي علينا وللآكام غطينا ولا شيء من ذلك بل تطبق البئر عليهم فاها ويتذكرون

حينئذٍ دون فائدة قول اشعيا من منكم يستطيع ان يسكن مع النار الآكلة من منكم يستطيع ان يجلس على المواقيد الابدية

فهاتان هما الطريقان طريق الانتخاب وطريق الرذل وهذا ما تؤديان اليه فها الماء والنار امامكم فليمدد كل منكم يده الى ايها شاء فالانتخاب من جهتكم انما هو انتخابكم احد هذين الطريقين والرذل انما هو استطراق طريق الاثم المؤدية الى الهلاك فاشفقوا اولادي على نفوسكم وقوها من متاعب طريق الاثم ومن الهلاك فهي نفوسكم لا نفوس اجنبية واذا اهلكتموها فلا يفيدكم العالم كله شيئًا ماذا يفيد الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه او ما الذي يعطيه الانسان فداء نفسه . واساله تعالى ان ينير جميعنا لنسلك بنوره في طريق الانتخاب ونتجنب طريق الرذل والهلاك ونحقق دعوتنا وانتخابنا باعمالنا الصالحة لنفوز بالمجد وننجو من الهلاك المؤبد بنعمة الآب والابن والروح القدس

الموعظة السادسة

القاها في الاحد الخامس من الصوم في ٧ اذار سنة ٧٥

في الاسرار

«تستقون المياه بفرح من ينابيع المخلص» اشعيا ص ١٢ عد ٣

ان سياق كلامي الماضي في ضرورة النعمة ومجانيتها وفي النعمة الكافية والفعالة وفي الانتخاب والرذل يقودني في هذا المساء الى الكلام في الاسرار .

المقدسة فان المخلص جعل الاسرار في بيعته بمنزلة ينبوع نستقي منه النعم الالهية او بمنزلة قناة تجر الينا امواه سخائه المتدفق او بمنزلة الة نكسب بها مواهبه وعطاياه الفياضة فنحقق بذلك انتخابنا الى المجد وننجو من الرذل الابدي فبعد ان كشفنا عن كنز النعم الذي فتحه الله للناس وسهل المخلص طريق التوصل اليه وابنا سعادة المجد التي أعدها لمختاريه كان علينا ان نرشد الى الطريق الموصل الى ذلك الكنز وان نهدي الى السلم الذي يلزم ان نرتقي بهِ الى تلك السعادة الخالدة ولاشك بان الاسرار هي الطريق التي يلزم ان نستطرقها لنتوصل بها الى النعم وهي السلم الذي نرتقي بهِ الى ذري الانتخاب والمجد الخالد. ونقسم كلامنا الى ثلثة اقسام نتكلم في الاول منها على الاسرار في العهد القديم وفي الثاني على اسرار العهد الجديد مبينين وجودها وعددها بحسبما يعلمنا ايماننا الكاثوليكي المقدس وفي الثالث على عظمة رافة الله بابداعه هذه الاسرار وعلى قباحة اساتنا اليه باحتقارها والتقاعد عنها ونحض على معرفة الاحسان واداء الله الشكر وعلى مواظبة التقدم الى سري التوبة والقربان الاقدس خاصة فاصغوا على حميد عادتكم الخ

القسم الاول

ان فادينا الالهي استحق لنا بالامه وموته النعمة المبررة التي نتبرر بها من الاثام ونصير ورثة الملك المخلد والنعم الفعلية التي تنير عقلنا وتميل بارادتنا الى الخير. فهذه المواهب السامية العائدة لخلاص النفس الابدي

يمنحناها الله باساليب متنوعة فانهُ وان استطاع بقدرته وهو على كل شيء قدير ان ينير عقلنا ويميل بارادتنا ويبرر نفسنا من الخطية وينقلها الى حال البرارة بنوع داخلي وغير محسوس فمع هذا قد شهد لنا الوحي انهُ حتم بحكمته الغير المدركة ان يمنح الناس النعم الفائقة الطبع بواسطة خارجية وبعلامات محسوسة ايضًا هي التي نسميها اسرارًا وفيها قال المجمع التريدنتيني (في مقدمة مجلس ٧) انها واسطة لبداية كل بر حقيقي ولزيادة البر المبتدي قبلاً ولارجاعه بعد فقدانه . وهي بمنزلة آنية ثمينة تتضمن دم المسيح واستحقاقاته وهي ينابيع المخلص التي تنبأ اشعيا على اننا نستقي منها المياه اي النعم بفرحٍ . وهي العلاجات للطبع البشري المستحوذ عليه مرض الخطية وهذا يبين كم يكون الكلام فيها مهمًا ونافعًا :

قد عرف اللاهوتيون السر بالمعنى المقصود في كلامنا الان انهُ علامة محسوسة تدل على النعمة الغير المحسوسة وتصدرها في نفوسنا وعرفه كتاب التعليم الروماني بانهُ «شيء محسوس لهُ قوة بموجب رسم الله ان يدل على القداسة والبر وان ينشئها» ولكي نوضح ذلك بمثل نقول ان سر المعمودية مثلاً يقوم في العلامة المحسوسة التي هي صب الماء مع تلاوة المعمد كلمات صورة العماد وهي انا اعمدك يافلان بسم الاب والابن والروح القدس وتلك العلامة الخارجية المحسوسة لها القوة ان تدل على حلول النعمة من جهة وتصدرها في المعتمد من الجهة الاخرى في وقت واحد وتلك القوة ليست لها من نفسها بل من قبل رسم المسيح الذي ابدع هذا السر وعلق تنويل النعمة على صب المعمد الماء على راس الطفل

او تغطيسه بهِ وعلى تلاوته الكلمات المذكورة ويلزم لكل سر من اسرار العهد الجديد التي جل كلامنا فيها اربعة امور. اولها الشيء المحسوس اي الطقس الخارج او العلامة المحسوسة كنضح الماء في المعمودية او الدهن بزيت الميرون في التثبيت او بزيت المسحة في المسحة الاخيرة او تقديم الخبز والخمر في سر الاوخارستيا الخ وهذه تسمى المادة ولابد لها من صورة وهذه الصورة تقوم غالبًا بالكلمات التي يتلوها خادم السر عند صنعه ما هو مادة لهُ . ثانيها ان تكون تلك العلامة المحسوسة موضوعة من المسيح على التابيد اي ان يكون المخلص جعلها لاصدار النعمة وللدلالة عليها في كل وقت والاَّ فلا قوة لها بنفسها على شيء من ذلك وعليه فرسم الصليب وتبريكات الماء او الشمع او الرماد ليست باسرار. ثالثها ان تلك العلامة الخارجة تكون للدلالة على النعمة الداخلة اي على البر والقداسة وتكون مناسبة بين العلامة الخارجة والمفعول الروحي الذي تصدره كالمناسبة بين غسل الجسد الخارج في المعمودية وغسل النفس الروحي من الاثم . رابعها ان تصدر العلامة الخارجة النعمة الباطنة التي تدل عليها وقد قال مار توما ان الاسرار لا تعتبر كعلامة فقط للنعمة بل كالة لها ايضًا من قبل وضع المسيح القوة على تنويل النعمة اذا لم يكن ثمَّ مانع . وبهذا تختلف اسرار العهد الجديد عن اسرار العهد العتيق التي لم تكن لتصدر النعمة بنفس فعلها ولذلك كان يلزم لاسرار العهد القديم الامور الثلثة الاولى فقط

ان الانسان تلزمه العبادة لله لا في باطنه فقط بل في ظاهره ايضًا

ولذلك وجب ان يوجد في الدين الحقيقي علامات محسوسة او افعال خارجة تظهر بها العبادة الباطنة لله وهذا يرشد اليه العقل وقد علمه الوحي ولكن ليس كل علامة خارجة للعبادة سرًّا بل السر في تلك العلامات التي فرضها الله لتدل على النعمة وتصدرها ووضع تلك العلامات يتعلق بمجرد ارادة الله اذ يعنيه وحده تعليق نعمته على علامة خارجة ولا شيء يضطره الى ذلك ولهذا لا يمكن اقامة البرهان على وجود الاسرار من العقل بل لابد من الوحي الالهي لعرفانها واثبات وجودها فاذًا يلزم ان نتبصر باقوال الكتاب في العهدين لنعرف هل وجدت اسرار وما في تلك الاسرار فللدين الموحى ثلث حقبات اي ثلثة اعصار عصر الاباء الاولين وعصر شريعة موسى وعصر شريعة المخلص فلنفحص عن الاسرار في كل منها

فعصر الاباء الاولين يحق لنا ان نقسمه الى ثلاث مدات اي المدة التي من خلق ادم الى سقوطه والمدة التي من سقوطه الى ايام ابراهيم والمدة التي من ابراهيم الى موسى . فهل وجدت اسرار في المدة الاولى اي في مدة بقاء ادم وحوا في حال البرارة قد اوجب ذلك بعضهم ويظهر ان القديس اغوسطينوس يؤيد هذا الراي معتبرًا ان السر كان في شجرة الحيوة اذ قال (في ك ٨ التكوين) ولم يشاء الله ان يعيش الانسان في الفردوس دون اسرار فكان له قوت في سائر الاشجار وسر في شجرة الحيوة وقال هناك ايضًا ان شجرة الحيوة لم تكن علامة للحكمة الغير المنظورة فقط بل كانت تمنح الانسان عدم الميتوتة ايضًا بقوة النعمة الخفية

وان الله اخرجه من الفردوس لئلا يتناول من شجرة الحيوة فتكون له قوة غير محسوسة من شيء محسوس ويكون له سر منظور للحكمة الغير المنظورة ومن ذلك يظهر ان شجرة الحيوة كانت على راي مار اغوسطينوس علامة محسوسة لشيء مقدس وكانت تمنح الجسد عدم الميتوتة وذلك هبة النعمة لاحالة طبيعية للانسان البار لانهُ وان كان بارًّا فلا يبرح جسده بنفسه عرضة للموت والانحلال. وقال بعضهم ايضًا ان زواج ادم وحوا الذي باركه الله كان فيه شيء من السر لانهُ كان علامة لشيء مقدس بالنظر الى كونه يشير الى اتحاد المسيح مع كنيسته بالنوع الروحي الّا ان ماري توما وكثيرين من اللاهوتيين انكروا وجود اسرار حقيقية في حالة البرارة التي كان فيها ادم لعدم الاحتياج اليها اذ كانت قوى الانسان الدنيا خاضعة للعليا ولم يكن الجسد يضاد النفس بل كانت حالة الانسان المذكورة نفسها نعمة وموهبة ولم تكن حاجة لمداواة الخطية قبل حدوثها هذا عدا ان الاسرار مفعول الفدآء وكما ان المسيح لو لم يخطيء ادم لما تجسد على الراي الاظهر هكذا ايضًا لو بقي الانسان في حال البرارة لما وجدت اسرار. ومع هذا كله فاذا لم يكن تناول ثمرة شجرة الحيوة وزواج ادم بحوا من الاسرار فيها بلا ريب رمز على الاسرار واشارة اليها:

واما بعد سقوط الابوين الاولين من حال البرارة فقد وعدا حالاً بالمخلص لهما ولذريتهما وما لا ريب فيه ان الناس بعد خطية ادم لم يكن لهم سبيل الى التطهير من الاثم والى الخلاص الّا بالايمان بالمسيح المتجسد وهذا

مصرح بهِ في الوحي ومن الايات الشاهدة لهُ قول مار بطرس في الابركسيس ص ٤ عد ١٢ «وليس بغيره (اي بغير المسيح) خلاص لانهُ لا يوجد اسم اخر تحت السماء اعطيه الناس يلزم ان نخلص بهِ» وقول مار بولس «اذ لا يقدر احد ان يضع اساسًا غير هذا الموضوع وهو يسوع المسيح» (قرنتية اولى ص ٣ عد ١١) وعليه قال مار اغوسطينوس (في ك ٢ في الزواج والشهوة راس ١١) «ان الايمان بالوسيط كان يخلص الابرار القدماء الصغار مع الكبار لانهُ كما نعتقد نحن ان المسيح اتى بالجسد هكذا كانوا يعتقدون هم انهُ سياتي وكما نعتقد انهُ مات كانوا يعتقدون انهُ سيموت» وكذا يعتقد جميع الكاثوليكيين ان الايمان بالمسيح المقبل كان في العهد القديم لازمًا لتبرير الناس وخلاصهم بل قال بعض الاباء ان هذا الايمان الباطن وحده كان يغنيهم عن الاسرار في العهد القديم حتى كان يكفي لخلاص الاطفال ايمان والديهم ومع هذا قال كثير من الاباء ان الايمان الذي كان يبرر في عصر الاباء قبل وجود الختان لم يكن الايمان وحده عاريًا من كل علامة خارجة بل كان لابد من علامة وان جهلنا ما كانت . قال القديس اغوسطينوس (في ك ٥ ضد يوليانوس) «لا ينبغي ان نظن ان عبيد الله الذين كانوا قبل وجود الختان وكان فيهم الايمان بالوسيط الاتي بالجسد كانوا خالين من سر يلاقون بهِ حالة اطفالهم وان كان الكتاب المقدس اراد ان يخفي علينا ما كان ذلك السر لعلة لازمة» ومار توما بعد ان قال ان الايمان دون اسرار كان يبرر الاطفال

والبالغين في العهد القديم اردف قوله بقوله ،، ولكن من المحتمل ان الوالدين المومنين كانا يقدمان لله بعض صلوات لاجل اولادهم الذين ولدوا وكانت حياتهم على خطر او يستعملون لهم تبريكا ما (كان علامة للايمان) كما كان يقدم البالغون الصلوات والذبائح عن نفوسهم ،، وقد قال بعد ذلك انهُ كان لازمًا قبل مجي المسيح بعض علامات محسوسة يظهر الانسان بها ايمانه بمجي المخلص المقبل وهذه العلامات تسمى اسرارًا فاذًا الاكثر احتمالاً انهُ كان في هذا العصر قبل الختان اسرار وان لم يبين الكتاب المقدس ما هي ولعل تلك الاسرار كانت على ايثار روساء الجماعات والعيال ولم تكن معينة من الله على ما قال بعض العلماء

واما بعد ان اختار الله ابراهيم ليكون ابًا للمومنين فقد جعل الختان بامر الله علامة للعهد لان الله قال لابراهيم ،، هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين زرعك من بعدك يختن منكم كل ذكر فتختتنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم ابن ثمانية ايام يختن منكم كل ذكر . . . فيكون عهدي في لحمكم عهدًا ابديًا واما الذكر الذي لا يختتن في لحمه فتباد تلك النفس من شعبها لانها ابطلت عهدي ،، (تكوين ص ١٧ عد ١٠) فهذه الكلمات نص في ابداع الله الختان لا يحتمل تاويلاً ولكن اختلف اللاهوتيون في مفعول الختان فقال بعضهم ان الختان لم يفرض ليكون دواء للخطية الاصلية بل علامة لعهد بين الله وابراهيم وذريته ليكون الشعب اليهودي ممتازًا عن باقي القبائل خاصة بعناية الله بهِ ومحبته لهُ وبعبادة ذلك الشعب المخصوصة لهُ تعالى

وقد قال بعض الاباء بهذا الراي وقال اخرون ان الختان جعله الله دواء لمحو الخطية الاصلية وبرهنوا رايهم من الكتاب المقدس واقوال الاباء فقالوا ان الله قال « فيكون عهدي في لحمكم عهدًا ابديًا والحال ان الله لا يمكن ان يعقد عهدًا ابديًا مع الاثمة لانهُ اية شركة بين البر والاثم واي اتفاق بين المسيح وبعال كما يقول الرسول ولهذا يشير كلام التكوين الى ان الختان يمحو الخطية الاصلية في الاطفال والخطايا الفعلية ايضًا في البالغين ليمكن وجود العهد بين الله وبينهم وقد قال ايضًا « ان الذكر الذي لا يختن في لحمه فتباد تلك النفس من شعبها لانها ابطلت عهدي » فكانه يقول ان من لم يكن مختونًا لم ينجُ من الهلاك لانهُ يبقى مجرمًا بمعصية ادم وكذا علم من الاباء امبروسيوس (في ك ٢ في لوقا وفي ك ٢ في ابراهيم) وباسيليوس (في خطبة ١٣ من خطبه) والقديس اغوسطينوس في محال عديدة والقديس غريغوريوس الكبير وغيرهم وكذا علم الجدليون من بعدهم باتفاق عام وقال مار توما ان الجميع يسلمون بان الخطية الاصلية كانت تغفر بالختان وقال بعضهم لم تكن النعمة تُعطى بالختان بل كانت تمحي الخطية فقط وهذا لا يمكن ان يكون لان الخطية لا تغفر الاَّ بالنعمة ولكن الفرق بين الختان والمعمودية هو ان النعمة تعطى بالمعمودية بفعل التعميد نفسه بقوة الام المسيح ولا تعطى بالختان بقوة الختان بل بقوة الايمان بالام المسيح التي كان الختان رمزًا لها وعلى راي مار توما هذا يمكن توفيق اقوال الاباء المخالفة له بانهم لم ينكروا الاَّ ان الختان يمحو الخطية بقوة فعله نفسه. ومما قيل يظهر ان الختان كان

سراً حقيقة لانهُ شيء محسوس وقد فرضه الله ليدل على نعمة باطنة ويصدر على الاقل البر الشرعي :

واما في المدة التي من تنزيل الشريعة بواسطة موسى الى ايام المسيح فلا ريب بوجود الاسرار فقد قال المجمع الفلورنتيني في مرسوم الاتحاد „ ان اسرار الشريعة الجديدة تختلف كثيراً عن اسرار الشريعة القديمة ” وقال المجمع التريدنتيني „ من قال ان اسرار الشريعة الجديدة لاتختلف عن اسرار الشريعة القديمة الاَّ لاختلاف الطقوس والرتب فليكن محروماً (مجلس ٧ قانون ٢) فكيف يمكن اباء المجمعين ان يفرقوا بين اسرار الشريعتين اذا لم تكن اسرار في الشريعة القديمة . وقد كان في الشريعة الموسوية طقوس كثيرة وغايتها الاشارة والرمز الى المسيح الاتي ولهذا سمى الرسول (كولوسايس ص ٢ عد ١٧) الشريعة القديمة „ ظل العتيدات ” ولكن اي هذه الطقوس كان سرّاً وايها لم يكن سرّاً فهذا بته غير سهل اذ لم يصرح بهِ الوحي على ان ايمة اللاهوتيين كافة وفي جملتهم ماري توما جعلوا اسرار الشريعة القديمة اربعة اولها ما جُعل دواءً لازالة الخطية الاصلية واخصه الختان الذي امر الله ابراهيم اولاً بهِ ثم جدد سنته على يدي موسى وهذا كان اول اسرار الشريعة القديمة حتى ان من لم يختتن لم يكن يباح الاشتراك بباقي الاسرار فكان بمثابة المعمودية الان . ثانيها ما كان ليجعل الانسان يسير سيرة مطابقة للشريعة ويساعده على نوال بر الشريعة ومن جملته اكل خروف الفصح وخبز التقدمة وذلك رسم ومثال لسر الاوخارستيا . وثالثها ما كان للتطهير من الادناس

الشرعية والمآثم كالذبائح وغسل الايدي ورش الماء والتطهيرات امام الكهنة وكان ذلك مثالاً لسر التوبة . ورابعها كان يشمل الطقوس التي كان يرقي بها الكهنة الى وظيفتهم وهذه كانت مثالاً لرسامة الكهنة وسر الدرجة . ومن ذلك يظهر انهُ لم يكن في الشريعة القديمة مثال لاسرار التثبيت والمسحة الاخيرة والزيجة وقد اورد مار توما وجه ذلك بقوله ان سر التثبيت هو سر ملوء النعمة وكمالها ولا يمكن ان يقابله سر في الشريعة القديمة لانهُ لم يكن اتى وقت الملوء والكمال وسر المسحة الاخيرة هو استعداد لدخول ملكوت السماء عن قرب ولا سر يقابله في الشريعة القديمة لان باب السماء لم يكن فتح بعد واما الزواج فكان في الشريعة القديمة كما كان في فرض الطبيعة لا كما هو سر اتحاد المسيح والكنيسة التي لم تكن وجدت بعد ولذلك كانت المراة تعطى كتاب الطلاق في الشريعة القديمة وهذا يخالف جوهر السر ولعمري ان هذا التعليل لطيف جميل .

القسم الثاني

ولنأتِ الان الى الكلام في اسرار الشريعة الجديدة فقد رايتم ان اسرار الشريعة القديمة كانت رسمًا ومثالاً ورمزًا لاسرارنا وقال مار يوحنا (ص ١ عد ٧) «ان السنة اعطيت بموسى والنعمة والحق صارا بيسوع المسيح» فالمسيح هو مانح النعمة والمواهب السامية وهو غاية الشريعة القديمة ونهايتها وسنته سنة النعمة وسنة الحق والكمال ثم ان كل دين

صحيح لابد لهُ من وسائل خارجة للعبادة عدا الوسائل الباطنة بل انهُ ندر اولم يوجد مذهب صحيحاً كان او غير صحيح لم تكن لهُ وسائل خارجية يبدي بها عبادته لمعبوده للتصور البديهي بان للمعبود السيادة والعبودية على الظاهر والباطن فيلزم ان يكرم بكليهما ولان العبادة الظاهرة تحمل على الباطنة وتكشفها وتويدها وتحافظ عليها بل لا تعرف من الناس الاَّ بها واشتراك القوم باسلوب عبادة واحدة يظهر اكثر تكريم للمعبود ويضمهم بعضهم الى بعض ويزيد الالفة بينهم ويسهل تدبيرهم في تلك العبادة التي لا يمكن المحافظة عليها دون التدبير والسلطة واذا كان ذلك الاشتراك لا وسائل ظاهرة لهُ فكيف يمكن التوصل اليه فهل يمكن اشتراك الناس بعضهم مع البعض بمجرد الافكار وحدها لا لعمري فاذاً اذا كان طبع كل دين يستلزم وسائل خارجة للعبادة واذا كان لم يوجد دين او مذهب في العالم الاَّ وكان لهُ مثل ذلك فهل نقول ان الدين المسيحي الذي هو احق الاديان واكثرها كمالاً خلا وحده عن ذلك حاشا فاذاً قد وجد من لازم الضرورة وسائل وطقوس مقدسة خارجة للعبادة بل يلزم ان نتج ان سنة النعمة والحق والكمال كانت بها وسائل مقدسة خارجة اكثر كمالاً وسمواً وفاعلية لا تشير او تدل على النعمة الباطنة فقط بل تصدرها بنفسها ايضاً وان الدين المسيحي يحوى اسراراً اكثر سمواً وفاعلية من اسرار السنة القديمة قال مار اغوسطينوس (في ك ١٩ ضد فسطوس) ان اسرار الشريعة القديمة نسخت ونسخت لانها تمت وكملت في ما كانت لاجله „ ووجدت اسرار اخرى اعظم قوة

واكثر فائدة واسهل مباشرة"

على ان امر الاسرار ليس مما يطلب برهانه من العقل بل من الوحي وقد أثبت لنا الوحي وجود الاسرار في العهد الجديد بايات صريحة ولما كان كلامنا الان في الاسرار بعموها فلا محل للتطويل في اثبات كل سر على حدته بل نكتفي بايراد ايات قليلة في اثبات كل منها وحيث انهُ يقتضي لكل سر وجود الطقس الخارج والاشارة المحسوسة والامر بهِ ووعد المخلص بمنح النعمة المبررة بواسطة استعمال ذلك الطقس فلهذا نشير الى الايات المثبتة الاسرار.

فسر المعمودية لاجدال فيه فالطقس الخارج صرح بهِ الرسول بقوله في الكنيسة (افسس ص ٢) "ليقدسها ويطهرها بغسل الماء وبكلمة الحيوة" وابداع المخلص هذا السر والامر بهِ مصرح بقوله "من لم يولد من الماء والروح لايمكنه ان يعاين ملكوت الله" (يوحنا ص ٣) وقوله امضوا الان وعلموا جميع الامم وعمدوهم بسم الاب الخ (متى ومرقس في الاصحاح الاخير) والوعد بالنعمة بقوله "من يومن ويعتمد يخلص (متى في الاصحاح الاخير)

وسر التثبيت طقسه الخارج مصرح بهِ في الابركسيس ص ٨ حيث ذكران بطرس ويوحنا ذهبا الى السامرة التي كان امن اهلها واعتمدوا "فصليا لاجلهم ... ووضعا الايادي عليهم فقبلوا الروح القدس" وص ١٩ حيث قيل عن اهل افسس "فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم"

ومفعول النعمة ظاهر من الايتين ايضاً اذ يقال حل الروح القدس عليهم وقبلوا الروح القدس . واما ابداع المخلص وامره فبين من عمل الرسل وان لم يصرح بهِ لانهُ اذا كان المسيح لم يامر بهذا الطقس المولي النعمة فكيف يجسر الرسل ان يصنعوهُ ولم يكونوا يجهلون انهُ ليس للانسان ان يخترع طقساً يعلق عليه نوال النعمة :

وسر الاوخارستيا طقسه مصرح بهِ في بشائر متى ومرقس ولوقا وفي رسالة الرسول الاولى الى قرنتية ص ١١ حيث يقال « اخذ خبزاً وبارك وكسر » الخ والابداع والامر بقوله هناك « اصنعوا هذا لذكري » وبقوله « ان لم تاكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فليس لكم حياة في ذاتكم » (يوحنا ص ٦) والوعد بالنعمة بقوله هناك « من ياكل من هذا الخبز يحيا الى الابد

وسر التوبة مصرح بهِ بقوله « من غفرتم لهُ خطاياه غفرت ومن امسكتموها عليه مسكت » (يوحنا ص ٢٠) وبقوله مهما تربطوه في الارض يكن مربوطاً في السماء ومهما تحلوه في الارض يكن محلولاً في السماء (متى ص ١٦ و ١٨) ففي الايات الطقس المحسوس وهي الحلة القضائية التي هي علامة ما يصنعه الله داخلاً بواسطة الكلمات الخارجة وانشاء السر بيّن بنفسهِ والوعد بالنعمة بقوله غفرت ويكن محلولاً في السماء والامر بقوله « كما ارسلني ابي هكذا انا ارسلكم » (يوحنا ص ٢٠) ولذلك قال الرسول ان الله « اعطانا خدمة المصالحة » (قرنتية ٢ ص ٥ عد ١٨) وقال بعيدهُ « فنحن اذاً سفراء بدل المسيح »

وسر المسحة الاخيرة يبين من قول مار يعقوب في رسالته ص ٥ ،، واذا مرض احدكم فليدعُ قسوس البيعة فيصلوا عليه ويدهن بالزيت باسم الرب وصلوة الايمان تشفي المريض والرب يقيمه وان كان في خطية فتغفر لهُ ،، فالعلامة الخارجة الدهن بالزيت والصلوة والوعد بالنعمة صريح بقوله والرب يقيمه وان كان في خطية فتغفر لهُ وانشاء المخلص السر وامره باستعماله محصل بلا ريب من كلام مار يعقوب لان من يظن انهُ يجسر ان يعد وعدًا مطلقًا بهذا المقدار بالنعمة وبمغفرة الخطايا لو لم يكن علمهم الرب ذلك.

واما سر الدرجة فيبين ايضًا من قول الرسول (تيموتاوس ١ ص٤) ،، ولا تتهاون بالموهبة التي فيك التي اعطيت الك بالنبوة ووضع يد القسوسية ،، وقوله ايضًا (تيموتاوس ٢ ص ١) ،، من اجل هذا اذكرك بان توقظ موهبة الله التي فيك بوضع اليد فالطقس الخارج هو وضع اليد والوعد بالنعمة بقوله ان الموهبة تعطى بوضع اليد وقد صرح بانشاء المخلص هذا السر وامره بالعمل بهِ بقوله (افسس ص ٤) ،، وهو اعطى بعضًا ان يكونوا رسلاً وبعضًا مبشرين وبعضًا رعاة ومعلمين ،، وكيف عرف الرسول ان تيموتاوس اعطي نعمة وموهبة بوضع اليد لو لم يكن اعلمه الله بان تلك الاشارة او العلامة بوضع اليد تمنح النعمة:

فبقي سر الزواج وامره واضح لان الرسول صرح بانهُ سر بقوله (افسس ص ٥) ،، ان هذا السر لعظيم واقول هذا في المسيح وجماعته،، وطقسه الخارج العقد المخصوص بين رجل وامراة وانشاء المخلص للسر

بين من قوله (متى ص ١٩) «وما ازوجه الله لا يفرقه الانسان» ومنح النعمة بهِ متحصل من قول الرسول ايضاً لان اقتران رجل وامراة يشير الى اتحاد المسيح مع كنيسته لا من جهة تجسده فقط حيث اتحد بالطبع البشري كله بل من جهة اتحاده بالنعمة والمحبة ايضاً وهذا الاتحاد مع كنيسته فقط ولكي يدل الزواج على هذا الاتحاد الاخير خاصة يقتضي ان يكون مشمولاً بالنعمة والمحبة:

فاذاً قد اتضح اولادي الاعزاء من ايات العهد الجديد ان لنا في هذا العهد سبعة اسرار لا اكثر ولا اقل وقد انشأ المخلص جميعها بمنزلة ينابيع نستقي منها امواه الحيوة ولهذا قال المجمع التريدنتيني (مجلس ٧ قانون ١) «من قال ان اسرار الشريعة الجديدة لم ينشيء ربنا يسوع المسيح جميعها او انها اكثر او اقل من سبعة اي المعمودية والتثبيت والاوخارستيا والتوبة والمسحة الاخيرة والدرجة والزواج او قال ان احد هذه السبعة ليس سراً حقيقة فليكن محروماً»

ومن الغريب كم خالف روساء الابروتسطنت بعضهم بعضاً وكم خالفوا نفوسهم ايضاً في عدد الاسرار فان لوتاروس قال في مبادي كتابه في السبي البابلي انهُ يوجد سر واحد اذا تكلمنا بحسب عادة الكتاب المقدس ثم قال هناك انهُ يجب ان ننكر الاسرار السبعة ونسلم بثلثة تسليماً موقتاً اي المعمودية والخبز والتوبة وقال في اخر هذا الكتاب اذا تكلمنا بالحصر نقول انهُ يوجد سران المعمودية والخبز وكان قال في وسط هذا الكتاب في الراس في التثبيت انهُ لا ينكر الاسرار السبعة

بل ينكر انهُ يمكن اثباتها من الكتاب المقدس . والذين تابعوا لوتاروس لم يكونوا اقل مخالفة لنفوسهم وبعضهم لبعض فقال فيلبوس وكمنيسيوس وغيرها بسرين وهما المعمودية والاوخارستيا وقال كثير منهم بثلثة اسرار وهي المعمودية والاوخارستيا والتوبة . وقال زوينليوس في كتابه في الدين الصحيح والكاذب انهُ يوجد سران المعمودية والعشآء ثم عند كلامه في الزواج قال انهُ سر فاصبحت الاسرار عنده ثلثة وقال كلوينوس (في ك ٤ من رسومه) ان الاسرار ثلثة لكنه خالف كلاًّ من صاحبيه لوتاروس وزوينليوس بقوله انها المعمودية وعشآء الرب والدرجة . وقال اخرون منهم الاسرار اربعة المعمودية والعشآء والتوبة والدرجة ومن هولآء فيلبوس مع انهُ كان قال اولاً مع لوتاروس بوجود سرين ومن هولآء ايضاً لوقالوسيوس في كتاب تعليمه الذي طبعه سنة ١٥٥٧ وقال اخرون منهم الاسرار ستة فاسقطوا الزواج وممن قال بهذا الراي غوليلموس بوسنلوس (هذا توفي كاثوليكيًّا) وقال علماؤهم الذين اجتمعوا في لبسيك سنة ١٥٤٨ وكان بينهم فيلبوس مالنطون ان الاسرار سبعة ولذلك تشكى مانيا احد علمائهم في كتابه التحريض على الثبات في دين المسيح من ان مجمع ليبسيك اعاد اسرار الباباويين السبعة . فتاملوا بمن ادعوا ويدعي اصحابهم انهم مصلحو الكنيسة فاختلافهم هذا نفسه في عدد الاسرار يبطل مدعاهم ويويد ما اثبتناه من الاسفار المقدسة اي ان الاسرار سبعة لا اقل ولا اكثر فلا اقل لاننا اوردنا اخص الايات المثبتة كل سر ولا اكثر لانهُ لا توجد ايات اخرى تبين

لنا وجود سر اخر واخصامنا انفسهم انفصلوا من الاسرار لم يزيدوا عليها

ونزيد هذه الحقيقة اي وجود سبعة اسرار لا اكثر ولا اقل تأييدًا ببرهانات اخرى واولها البرهان الذي يسمونه برهان الاستحلال ماخوذًا عن اجماع الكنيسة المستمر في كل جيل على الاعتقاد والتعليم بسبعة اسرار فان جميع الكاثوليكيين اعتقدوا وعلموا ابدًا بسبعة اسرار وكان هذا الايمان في كنيسة المسيح مستمرًا الى الجيل السادس عشر الذي شرع بهِ المحدثون يقللون عدد الاسرار كما اقلبوا وافسدوا عقائد اخرى. مع ان ما اجمع عليه الاباء والعلماء في ستة عشر جيلاً بعد المخلص واعتقده جميع المسيحيين ولو منفصلين بعضهم عن البعض بارطقة او انشقاق وبعيدين بعضهم عن البعض ابعادًا شاسعة ومختلفين في عوائدهم ولغاتهم ولم يرَ مجمع رسمه او امر بهِ ولا يعرف لهُ بداية من غير المسيح والرسل لا يمكن ان يكون مصدره الاَّ تعليم المسيح وبالتالي لا يمكن ان يكون الاَّ صحيحًا قال ترتوليانوس بهذا المعنى (في كتاب الاستحلال راس ٢٨) «ان ما كان واحدًا عند كثيرين لا يكون غلطًا بل تقليدًا» وقال القديس اغوسطينوس (في ك ٤ في المعمودية راس ٢٤) ان ما تمسكت بهِ الكنيسة باسرها ولم يفرض في المجامع واستمر التمسك بهِ ابدًا يومن بكل استقامة انهُ ما سلم الى الناس الاَّ بشهادة الرسل» والحال ان الاسرار وعددها كذلك فاذًا هي سبعة لا اقل ولا اكثر

وهوذا تفصيل البرهان المار ذكره ان جميع المسيحيين في المشرق والمغرب اعتقدوا ابدًا وجود سبعة اسرار ومنذ بداية الكنيسة الى الجيل

السادس عشر وجد في كل عصر اراتقة ومنشقون واكثرهم اذا لم نقل جميعهم لم يخالفوا الكنيسة الكاثوليكية بالاسرار وعددها بل وافقوها على ذلك مع مخالفتهم لها في عقائد كثيرة ومع حنقهم الشديد منها ورغبتهم المفرطة في التنديد بها وبتعاليمها وبعض هولاء الاراطقة من الجيل الخامس باقٍ كالسريان اليعاقبة والكلدان النساطرة والارمن البراصمة ما برحوا يعتقدون ويستعملون الاسرار كالكنيسة الكاثوليكية دون خلاف في الجوهر فكيف يمكن ذلك لولم يكن هذا هو المعتقد المسيحي من اقدم الاجيال والاراطقة المذكورون عند انفصالهم عن الكنيسة حفظوا ما كانوا يعتقدونه ويستعملونه قبل الانفصال

ومما يستحق اعتبارًا كبيرًا بهذا الشان اتفاق كنيسة الروم والكنيسة اللاتينية على الاسرار وعددها فان كتب مباشرة الاسرار القديمة جدًا عند اللاتينيين التي ذكرها مرتنيوس (في ك ٤ من مولفه في طقوس الكنيسة القديمة) تذكر سبعة اسرار وكذا اوخولوجيات الروم القديمة جدًا التي ذكرها كثيرون من العلماء لاسيما اسحق هابرت ولاون الاسيوس (في ك ٢ من مولفهِ في اتفاق الكنيستين الغربية والشرقية) لم تذكر الاسرار السبعة فقط بل رتب مباشرتها وتوزيعها ايضًا ولاتختلف عن طقوس اللاتينيين المذكورة الا بامور عرضية وذلك الاختلاف العرضي بينهٌ على ان الروم لم ياخذوا عن اللاتينيين ولا اللاتينيين عن الروم التعليم بالاسرار بل بلغ الى الفريقين بالتقليد الرسولي وهذا يقوي برهاننا كما لايخفى ثم لما كانت المفاوضات مرادًا بشان اتحاد الكنيسة

الرومية مع اللاتينية لم نجد البتة ذكر محاورة في عدد الاسرار وقد تعب فوتيوس وميخائيل شيرولاريوس عمدة كنيسة الروم كثيرًا على الكنيسة اللاتينية حتى في امور طفيفة ومع ذلك لا تجد منها كلمة في عدد الاسرار خلافًا لما تعلم الكنيسة الرومانية وكانت في المجمعين الليوني والفلورنتيني محاورات كثيرة على القضايا الواقع الخلف فيها ولا جدال هناك البتة على عدد الاسرار وقد اعطى المجمع الفلورنتيني ارشادًا للارمن ذكر فيه الاسرار السبعة ولم يكن الروم يجهلون ذلك ولم يعب احدهم المجمع بذلك لا حين الاتحاد ولا بعد العود الى الانفصال وكيف يكون هذا لولا اجماع الكنيستين على عدد الاسرار ويزيد ذلك تاييدًا ما حدث في الجيلين السادس عشر والسابع عشر بهذا الخصوص فان اللوثاريين كانوا يرغبون جذب الروم اليهم فارسلوا اليهم سنة ١٥٧٢ صورة الايمان التي صنعوها في اغوسطا مترجمة الى اليونانية فاجاب ارميا بطريرك الروم القسطنطيني بعد امعان النظر مع جماعة من اساقفته وعلمائه رافضًا اكثر القضايا المنطوية عليها تلك الصورة والمخالفة ايمان الكنيسة الرومانية وفي الراس السابع كتب في الاسرار ما نصه «ان الاسرار في هذه الكنيسة الكاثوليكية الارثوذكسية سبعة اي المعمودية والدهن بالميرون المقدس والمناولة المقدسة والدرجة والزواج والتوبة وزيت المسحة الاخيرة» وفي جوابه الثاني الى اللوثاريين المذكور قال ان اخص الاسرار المعمودية والتناول الالهي ولما وقع كيرلس لوكاريس بضلال كلوينوس في الجيل السابع عشر وتعصب له الكلوينيون فرقوه

بامدادهم ومالهم الى الكرسي الاسكندري ثم القسطنطيني واذاع معتقد الكلوينيين زاعمًا كذبًا ان كنيسة الروم لاتعترف الاَّ بسرين المعمودية والاوخارستيا عقد الروم مجمعًا في القسطنطينية عزلوا فيه البطريرك الاراتيكي ونصبوا عوضه كيرللس الحلبي فاجتمع مع البطريركين الاسكندري والاورشليمي ٢٣ اسقفًا شرقيين واكليروس القسطنطينية سنة ١٦٣٨ في هذه المدينة فحرموا كيرللس لوكاريس ومعتقد الكلوينيي وجددوا ذلك في مجمع اخر سنة ١٦٤٢ وصرحوا بالاعتقاد بالسبعة الاسرار وكذا فعل ديونيسيوس بطريركهم القسطنطيني سنة ١٦٧٢ في مجمع عقده ومالنا والبينات فهوذا نراهم بيننا في كل يوم ما برحوا متمسكين بهذه الحقيقة ومباشرين العمل بها مثبتين وجود سبعة اسرار لا اقل ولا اكثر فهذا الاتفاق مع الكنيسة الرومانية حال كونهم انفصلوا عنها منذ الجيل التاسع بينة قاطعة لما نحن له مثبتون

ان من ينكرون ان السبعة الاسرار انشاها المسيح ويزعمون ان الناس انشأوا بعض اسرار يلزمهم ان يبينوا متى كان ذلك الانشآء وكيف كان وممن كان ولم يستطع الابروتسطنت ان يقدموا بينة على شيء من ذلك خلافًا للاسرار التي ينكرونها واما نحن فنثبت بسهولة انهُ لايمكن ان يدخل في الكنيسة سر مجهولٌ فيها قبلاً ولا تقاومه الكنيسة والناس بمنزلة ابتداع لان الكلام في عمل يومي لايخفى ولايجهل والجميع يعلمون ان المسيح منشي الاسرار والكنيسة لا تستطيع ان تزيد على عددها او تنقص منه ومن حيث انهُ لا اثر لادخال سر في التواريخ فينتج ان

الاسرار السبعة اوجدها المسيح وما برحت الكنيسة متمسكة بها في كل جيل :

قد سال مار توما (قسم ٣ بحث ٦٥ جزء ١) هل يلزم ان تكون الاسرار سبعة واجاب ان اسرار الكنيسة مرتبة لامرين اي تكميل الانسان في ما يختص بعبادة الله ولمعالجة الخطية ويوافق الامرين وجود سبعة اسرار فان بين الحيوة الروحية والحيوة الجسدية مناسبة كالمناسبة بين باقي الروحيات والجسديات والانسان يكمل في الحيوة الجسدية بنوعين اي بالنظر الى شخصه وبالنظر الى عموم الجماعة التي يعيش فيها لان الانسان حيوان من طبعه الالفة . وبالنظر الى شخصه يكمل في الحيوة الجسدية بامرين ايضًا اي ان يكسب بنفسه كمالاً ما وان يكسب بالعرض هذا الكمال بازالته ما يمنع من الحيوة كالامراض وما اشبه ويكمل في الحيوة الجسدية بنفسه اولاً بالولادة اذ يبتدي يوجد ويحيي ولنا مقام هذا في الحيوة الروحية المعمودية فانها تسمى الميلاد الثاني . ثانيًا بتقويته وتشدده ولنا مقام هذا في الحيوة الروحية التثبيت الذي تعطى بهِ نعمة الروح القدس للتقوية . ثالثًا بالقوت الذي يحفظ فينا الحيوة والقوة ولنا مقام هذا في الحيوة الروحية الاوخارستيا وهذا كان يكفي الانسان لو كانت حياته غير متعرضة لالام واوجاع ولكن من حيث انهُ يمرض احيانًا بجسده وروحه بواسطة الخطية فلهذا يلزم الانسان العلاج في مرضه وهذا يكون اما بالشفاء الذي يعيده الى الصحة ولنا مقام هذا في الحيوة الروحية سر التوبة واما برجوع الصحة الاولى بواسطة

الحمية والرياضة ولنا مقام هذا في الحيوة الروحية مسحة المرضى التي تزيل بقايا الخطايا وتؤهب الانسان للمجد الاخير واما كمال الانسان بالنسبة الى عموم الجماعة فيكون بنوعين اما بعنايته بالجمهور وتسلطه فيه ولنا مقام هذا في الحيوة الروحية سر الدرجة واما بتكثير النوع بواسطة الزواج ولنا في الحيوة الروحية مقام هذا سر الزيجة فمن هذا يظهر ان عدد الاسرار سبعة بحسب احتياج الحيوة الروحية بمناسبة احتياجات الحيوة الجسدية

القسم الثالث

فقد اتضح اذًا اولادي الاعزآء اهتمام الله بالناس في كل عصر من ادم الى اليوم في ايام شريعة الطبيعة في ايام شريعة موسى في ايام شريعة النعمة ليوجد لهم ما يحييهم بالنعمة ويقربهم اليه وينولهم المجد الخالد في السمآء وعلى الخصوص قد ظهرت رافته وطيبه ورفقه بنا نحن ابنآء العهد الجديد اذ ابدع لنا اسرارًا كلية الفاعلية سهلة المباشرة ليحيينا بنعمته ولتكون لنا هذه الاسرار بمنزلة مرقاة او سلم نصعد به الى ذرى المجد والسعادة وبمنزلة قوت روحي لنفسنا ودوآء مبريء لامراضنا او بمنزلة ينبوع نستقي منه امواه مواهبه وعطاياه المقدسة وقد دعانا جميعًا الى ذلك قائلاً تعالوا فتستقون المياه بفرح من ينابيع المخلص

فتاملوا بامعان ما اعظم احساناته وما اغزر نعمه وكيف لم يدعْ لنا احتياجًا في اية حالة كانت الاّ وتلافاه بنعم اسراره حتى لا تنقصنا النعمة

في عمر او حال ولا يطرأ علينا احتياج الاَّ وتكون مساعدته حاضرة قريبة سهلة النوال فمنذ ولادتنا بالجسد يلدنا بالحيوة الروحية بواسطة سر المعمودية حذرًا ان نموت دونها فلا نتنعم بسعادته فيولينا بها نعمًا لا توصف ويخولنا حقوقًا على وراثة ملكوت السماء وعلى مشاركته في ملكه ومجده ويمحو منا بها الخطية الاصلية ويقوينا على مجانبة الخطايا الفعلية ويغرس بنا الفضيلة وينشلنا من وهدة الغضب ويحصينا بين بنيه وذلك كله اذ نكون اطفالاً لا ندرك شيئًا ولا نعلم ما نحتاج ولا نعرف ان نشكره ولا استحقاق لنا البتة بل نكون ولدنا بين ابناء الغضب ويرى بنا معصية ابينا الاول ورجاسة الاثم ومع هذا كله ينضحنا بزوفا تحننه فنطهر ويغسلنا من هذه الاقذار بماء المعمودية فنبيض اكثر من الثلج فيالاحسان عظيم الى انسان لم يكن ليستحق حينئذٍ اسم الانسان احسان ينال دون تعب ودون شكر ايضًا فاذا ترعرعنا ودنونا من سن التمييز او دخلنا به من علينا بنعم سر التثبيت لئلا يقوى ابليس او تستحوذ علينا الرذيلة او يغلبنا جسدنا فتولينا تلك النعم ايدًا وقوة وشجاعة لننتصر على العالم والجسد والشيطان ونتشدد في مسيرنا في طريق الفضيلة والخلاص ونتدرع بسلاح الله ونلبس خوذة الخلاص ونقف غالبين تجاه حيل المحال ولا يقدر على مقاومتنا لان الرب معنا ويوصي ملائكته بنا ليحفظونا لئلا نعثر بحجر رجلنا

ومن حيث اننا نحتاج القوت لنفسنا في الحيوة الروحية كما يحتاجه لجسدنا في الحيوة الجسدية فقد اعد لنا في سر الافخارستيا قوتًا روحيًا

واي قوت هو الخبز الذي نزل من السماء لا كالمن الذي اكله بنو اسرائيل في البرية وماتوا وعلى طيبه ولذته لم يقِ آكليه الموت بل خبزًا من اكله يحيى الى الابد واعد لنا وليمة نتنعم بها كل ما شئنا واية وليمة ليست معدة من لحم الطيور او الضان او الثيران بل من لحمانه المقدسة نفسها لناكله ونتحد به عن قرب في هذه الحبوة نفسها ويساعدنا في كل شيء ولم يفرض ثمنًا لذلك بل ناكل مجانًا ودون تعب طعام الملائكة بل ما تخجل الملائك ان تنظر اليه ويحجب هو نحت اعراض الخبز لياتي فيسكن في نفسنا ويتخذها منزلاً له ولابيه وروحه ليوقيها كل ضرر وخطر فياللاحسان الغريب العجيب وهو احسان رب المجد بجسده ودمه نفسها ليكونا ماكلاً حقًّا ومشربًا حقًّا لخليقته الحقيرة لعمري انهُ لاحسان لو كان محل للريب بهِ من احد الوجوه لكان من قبل فووق المحبة ومن قبل افراط تنازل المخلص اليه ولكنه لا يعروه ريب من هذا الوجه ايضًا

ثم من حيث انهُ يمكن ان يعترينا مرض او تشوش في صحتنا الروحية فقد اعدلنا في سر التوبة دواء فعالاً عجيبًا يردنا للحال الى صحتنا نعطاه مجانًا بلا ثمن ونتناوله دون مشقة ولا تعب ولا كرم ولا يكلفنا الا الى شرح مرضنا للطبيب الذي عينه وهو الكاهن والمقت لذلك المرض وعلله والى ما هو اقل مما كلف اليه ذلك الابرص الذي ابراه وهو ان يري نفسه للكهنة ويساوي ما امر بهِ الاعمى الذي ابراه وهو ان يغتسل في عين سيلوحا او ما امر بهِ المخلع الذي سمعتم ذكره اليوم في الانجيل وهو ان يحمل سريره اي يكلفنا الى وفاء قانون خفيف لا يعد

شيئًا بالنسبة الى ثقل اثامنا ويريد في هذا السران يصالحنا معه بعد ان نكون اهناه واغضبناه ويتقدمنا في طلب الصلح كانه يحتاجه ونحن احوج اليهِ من بعوضة عادت ملكًا فيا لهذا الاحسان الاخر العظيم.

ومن حيث انهُ يلزمنا في الحيوة الروحية اباء يخدموننا ويهتمون بنا ومرشدين يهدوننا الصواب ويعلموننا الحق ومدبرين يسهرون علينا ويوقظوننا الى ما يتوجب علينا فقد جعل لنا في سر الدرجة الكهنة والاساقفة وباقي الرؤساء خَدَمة لنا في الروحيات ومهتمين بخلاص نفوسنا يهدوننا الصواب اذا اغفلنا عنه ويعلموننا الحق اذا ضللنا ويسهرون على نفوسنا كاناس يادون الحساب عنها وينبهوننا الى كل ما يتوجب علينا ويودبون برفق من زل منا ومنحهم مساعدات كبرى لاتمام خدمتنا وسلطة وفهمًا لاتقان وظيفتهم في رعايتنا وحرصهم وشددهم ووعدهم وهددهم كي يحسنوا الاهتمام بنا ودرك عليهم كل نفس تهلك منا بتوانيهم فهل اعظم من هذا الاهتمام بنا

وحيث ان حالة الزواج الطبيعي المستلزم لحفظ نوعنا وانتشاره ترافقها مصاعب ومشاق في تربية البنين والصبر على موتهم والقيام باود العائلة وما اشبه فقد رفع عقد الزواج الطبيعي نفسه الى مقام السر ويولي المزوجين نعمة تكبح بهم الاميال الى غيرهم وتساعدهم على مشاق حالتهم وعلى تربية بنيهم بخوف الله وعلى تدبير عائلتهم بنوع انهُ جعل ما تميل اليه الطبيعة سرًّا مقدسًا وساعد على تلطيف مصاعبه وتخفيفها من كل وجه:

وحيث انهُ يخشى علينا عند الانفصال من هذه الحيوة ان تكون لنا بقايا خطايا فتهلكنا او ان ينتهز ابليس عدونا تلك الفرصة الاخيرة فيجربنا فقد اوجد لنا في سر المسحة الاخيرة علاجًا فعالاً يمحو عنا بقايا الخطايا وينصرنا على تجارب ابليس ويشجعنا ويويدنا في ذلك الوقت الاخير

فقولوا لي اولادي الاعزآء هل بقي نوع من المساعدة او الاهتمام او الغوث ولم يبذله مخلصنا لنا باسراره او هل بقيت حاجة ولم يتلافاها بسخآء وافر فمنذ الولادة نعم المعمودية فاذا ادركنا التمييز فنعم التثبيت انقوينا وتشددنا اذا جعنا فجسده نفسه قوت في الاوخارستيا اذا مرضنا فالعلاج حاضر بلا ثمن في سر الاعتراف اذا ضللنا او اثمنا فالاب والمرشد والمدبر حاضر بسر الدرجة اذا اردنا ان نتزوج فالنعمة حاضرة لتقدس مشتهانا وتساعدنا عليه اذا دنونا من الموت فالمعونات حاضرة في سر المسحة فاية نعمة تعوزنا وماذا بقي ولم يصنعه لنا فلو اباحنا ان نشتهي ما نشآء من كنوزه لما خطر على فكرنا اكثر من ذلك فهذا من قبله

ولنبحث من قبلنا ماذا صنعنا بالنظر الى هذه الاسرار ونعمها وهل عرفنا هذه النعم وشكرنا عليها واجهدنا نفوسنا في اكتسابها او اغفلنا عنها ولم نعلم قدرها واعتبارها بل اقمنا لها عوائق وحواجز لئلا تنفذ مفعولاتها بنا وسوف تكون نتيجة فحصنا هذا محزنة ومكدرة لنا ولكل عاقل ومومن ولنبتدي بهذا الفحص من اول هذه الاسرار الى اخرها

فالمعمودية هذا السر الذي يمحو منا الخطية الاصلية وينقلنا من كوننا ابناءَ الهلاك والغضب الى ان نكون ابناءَ الله والخلاص ويولينا الحق على الملكوت السموي نقول فيهِ . ان الفضل والاحسان المحض لنوال النعمة بهِ انما هما لله الذي اراد ان نعطاه ونحن اطفال لم يفسد الاثم بعد قلبنا ولو قبلناه ونحن بالغون لربما عطلنا وابطلنا مفعوله بافامتنا عوائق تصد نوالنا النعمة المبررة بهِ وان ادخلنا في الكنيسة ولربما ايضًا تقاعدنا عن قبوله فالشكر الذي لا ينقضي لله لانه نولنا النعم بهِ قبل وجود استعمال ارادتنا ولا اعلم ان كنا ننتبه لتادية الشكر المفروض لهذه النعمة بداية كل النعم والمواهب ومما ياسفنا اننا نعلم ان كثيرين منا لم يبلغوا سن التمييز الاَّ وشرعوا يضيعون باثامهم النعمة المبررة التي اكسبهم اياها هذا السر مع باقي الحقوق التي يوليهم اياها :

والتثبيت هذا السر الذي يخولنا الايد والقوة والشجاعة على عمل الفضيلة والفرار من الرذيلة عند بداية حصولنا على التمييز والرشد نقبله صغارًا ولذا نتعشم ان اكثرنا يحوز نعمه عند قبوله ولكننا لا نتاخر عن ان نخسرها باثامنا وقل ما نتذكر بهِ ولربما بعضنا لا يعون الان هل ثبتوا او لا فينسون هذه النعمة ولا يخطر لهم على بال الشكر عليها فكانها لم تكن

وسر القربان الاقدس هذا السر العجيب الذي يوحد بين الله والانسان وكانه يأله الانسان بل كانه يجعله فوق الله والعياذ بهِ لانهُ ياكل حينئذٍ المسيح ابن الله والاكل فوق الماكول شرفًا وفضلاً بموجب حكم الطبع ومع ذلك كم وكم منا يتقاعدون عن قبوله وعن نوال نعمه

والفوز بهذا الشرف الباذخ وكم وكم ينتظرون الفصح ليتقدموا اليه مرة في السنة ولربما لاتمام الوصية فرارًا من التاديب ومن اعابة الناس لهم اكثر من ان يكون للعبادة واكتساب النعم وكم وكم ممن يتقدمون اليه دون الاستعداد الواجب او بقلب بارد وشكر لا يكاد يسمى شكرًا وكم وكم ممن يتناولونه من غير استحقاق ومن غير امتحان لنفسهم كما ينبغي فياكلون ويشربون دينونة ونقمة لانفسهم مكان النعمة وهو قوت لنفسنا يكسبها الحيوة الغير الفانية ومع ذلك نوخر تناوله الى اشهر وليته لايكون في قليلين منكم الى سنين ولا نوخر قوت جسدنا الى العشاء في المساء ولا نصغى الى قوله تعالى ان لم تاكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فليس لكم حيوة في ذاتكم .

وسر الاعتراف هذا الدواء الفعال والسهل لابراء الاثام الذي ننصل بهِ من مرض الخطية القتال بمجرد شرح مرضنا والاشمئزاز منه امام الطبيب وهذا الدفة الثانية بعد الغرق في بحار الضلال والاثم التي تعود بها الى مينا النعمة المبررة التي كسبناها بالمعمودية وخسرناها بالخطية فهذا كم وكم منا يتقاعدون عنه ويتركون نفوسهم على حافة الهلاك وشافة الوهدة الجهنمية ويدعونها غرقى في بحر الاثم ويحذفون التمسك بالدفة المنجية لهم لا من ساعة الى ساعة فقط بل من يوم الى يوم بل من شهر الى شهر وبعضنا يوخر ذلك الى تمام السنة في عيد الفصح كان بيده ضمانة بان لا يموت الا في ايام الفصح ثم كم وكم ممن لا يصنعون الاعتراف كما ينبغي فيعترفون اما دون ندامة اما دون عزم على مجانبة اسباب خطاياهم .

اما دون فحص كافٍ عنها اما دون اقرار تام بها فتكون نعمة الله باطلة فيهم ويعطلون الدواء ويفسدونه فيصبح سمًا قاتلاً بدل ان يكون درياقًا مشفيًا بل لربما وجد بيننا من يعيب غيره لانه يكثر الاعتراف ويدعوه موسوسًا او غير متمدن لمعاجلته علاج نفسه وتنجيتها من غرق الخطية فيالله من هذه الغباوة ومن هذا الافتراء فياربِ لاتعاجلنا بغضبك لاننا لانحتقر اسرارك ونتقاعد عن نوال نعمك فقط مع انك كسبتها لنا بدمك بل نحتقرها ايضًا ولا نترك نفسنا بمرض مميت فقط وانت اكسبتها الحيوة بفقدان حياتك بل نبطل نعمك ونهينك بنفس احسانك ايضًا وما هو شر وافظع من ذلك اننا نجعل غيرنا يهينك ايضًا ونعيبه اذا ارضاك وربح نفسه ونجاها

وسر المسحة الاخيرة هذا السر الذي يمنحنا النعم اللازمة في اهم وقت وقت الموت هذا لم يبلغ اليه بعد منا الاّ من اشرف على الموت وناله ثم عاد ولعله بقوة نعمة الله بهِ الى الحيوة ولا نعلم كيف نتصرف بهِ عند حاجتنا اليه والمعلوم بترجيح انهُ تصرفنا بهِ يكون كتصرفنا بغيره من الاسرار فلنصلِ الى الله ليمكننا من نواله عند ساعة موتنا ونشكره على ايجاده واعداده لنفعنا ونحرص على ان نتلافى بهِ من مرض مرضًا ثقيلاً ممن يتعلق امره بنا ولا نصغى الى من يتوهم دون الصواب من منحه لمريضه لان من مفاعيله ان يردنا الى الصحة ان اراد الله

واما نظرًا الى سر الدرجة الذي جعل لنا الله بهِ اباء روحيين ومدبرين ومرشدين يسهرون على نفوسنا بمنزلة نواب لهُ وقهارمة لاسراره

ووسطاء الصلح بيننا وبينه فكثير بيننا من لا يعتبرون ارشادهم ولا يذعنون لاوامرهم ولا يعملون بتنبيهاتهم ونصائحهم مع انهُ قد يكون كلام نسمعه منهم تنبيه من الله بلسانهم وان وجد منهم من تعاب سيرتهم فانهم لا يبرحون بشرًا وقوة منحهم الاسرار لا تتعلق بصلاح سيرتهم بل هي صادرة عن المسيح بل قد كثر بيننا من يضع النظارة المعظمة ليرقب سيرتهم واذا وجد فيها قشة عيب صيرها جسرًا وكثيرًا ما عاب الطغمة كلها بذنب واحد فهذه غاية سوء المعاملة في ان لانحتقر الاسرار والنعم فقط بل نحتقر ايضًا من نالها على يدهم ونهين الله بخدامه بدل احسانه باقامتهم خدامًا لنفوسنا. واما سر الزواج هذا السر العظيم كما سماه الرسول فكثير منكم قبله او يعد نفسه لقبوله كانه ليس بسر وهذه الثمار الناتجة عنه اي الاولاد الممنوحة بهِ النعمة لاحسان تربيتهم وتعليمهم خوف الله والفضائل فكم وكم منا لايسالون عنهم في السيرة الروحية ولا يهمهم كيف يتعاطون ولا من يعاشرون ولا اية كتب يطالعون ولا يحثونهم على ممارسة فروض دينهم كالاعتراف وسماع القداسات والصلوات وحفظ باقي الوصايا فيهلك الآباء والاولاد معًا

فهذه ايها الابناء الاعزاء هي احسانات الله الينا بالاسرار المقدسة وهذه اساءتنا اليه بنفس مباشرة هذه الاسرار او باحتقارها والتغاضي عنها بنوع ان ينابيع المخلص المفتوحة امامنا لنستقي منها مياه النعم بفرح فتارة نموت عطشًا ولا نستقي منها وتارة نمزج ماءها بما يكدره ويزيل نفعه بل يجعله مضرًا أفنبقى على هذه الحال او ما نخجل من المخلص الذي اسرف·

بفيضان نعمه علينا فازدرينا بتلك النعم او ما نرهب غضبه وعقابه فاضرعوا الى الله لينير عقولكم ويميل بقلوبكم الى ان تتخذ الوسائل الفعالة التي اتخذها لخلاصكم وتثابروا عليها لتؤهلوا بذلك للتراقي بسلم نعم الاسرار الى المجد الخالد الذي التمسه لكم وللعالم كله ولحقارتي بنعمة الاب الخ :

الموعظة السابعة

* اعدّها ليلقيها في ٩ ادار سنة ٧٥ الواقع فيه عيد الاربعين شهيدًا *

في كهنوت المسيح وذبيحته والكهنوت في العهد الجديد وذبيحته

ان الرب اقسم ولن يكذب انك انت الحبر الى الابد على شبه ملكي زادق . عبرانية ص ٧ عد ٢١

ان كلامنا الماضي في الاسرار بالاجمال يدعونا الى الكلام في الاسرار بالخصوص ولما كان جميع الاسرار خدامها خدمة الدين اي الكهنة واخصها تقدمة الذبيحة لله التي هي اول العبادات واعظمها راينا ان السياق الذي سلكنا بهِ الى الان يقضي علينا ان تكون مادة كلامنا هذا المساء في الكهنوت والذبيحة في العهد الجديد فنثبت ان المسيح كان كاهنًا بل رئيس احبار وقدم ذبيحة دموية اي انهُ ضحى بنفسه على الصليب لاجلنا واقام كهنة في العهد الجديد يقدمون ذبيحة غير دموية هي سرّ جسده ودمه المقدس فيكون القسم الاول من خطبتنا في كهنوت

المسيح والذبيحة الدموية التي قدمها والقسم الثاني في وجود الكهنة في العهد الجديد والذبيحة التي يقدمونها ثم نبين عظمة احسان المخلص بذبح نفسه على الصليب وبالذبيحة الغير الدموية التي انشاها في كنيسته ونقابل ذلك باساءة الائمة اليه مكان معرفة الجميل والشكر فيكون القسم الثالث فاصغوا على حميد عادتكم الخ

القسم الاول

لم يوجد دين في العالم صحيحًا كان او كاذبًا الاّ وكان لهُ خدمة او كهنة ونوع من الذبائح ولم توجد قبيلة او عائلة خلت من الدين وخلت بالتالي من خدمة لذلك الدين وذبائح تقدم فيه حتى يظهر ان هذا الامر مؤسس على الطبع البشري نفسه او صادر عن الوحي الاول للابوين الاولين فمنذ بداية العالم نجد ان روساء العيال كانوا بمنزلة كهنة يامرون بما يتعلق بعبادة الاله ويقدمون بعض القرابين فنرى في تاريخ الخليقة ان قاين وهابيل قدما لله كل منهما تقدمة او ذبيحة فقاين قدم قربانًا لله من ثمار الارض التي كان يشتغل فيها وهابيل قدم من باكورات اغنامه التي كان يربيها وسمانها فتقبل الله تقدمة هابيل ورذل تقدمة قاين وفي هذا قال الرسول وبالايمان قرب هابيل لله ذبيحة افضل من ذبيحة قاين (عبرانية ص ١١) ولا يمكن الريب بان عملهما هذا كان ناتجًا مما اعلم الله اباهما ادم بهِ هذا وان لم يتفق العلماء على كون ذبيحة هابيل كانت دموية او انهُ قدم من لبن ماشيته ولكن

كيف كان الامر فيظهر انهُ من ذلك الحين اعتبر اول الناس الزامهم بتقدمة القرابين لله ومن بعد قايين وهابيل كان الآباء الاولون الى ايام الطوفان يُعتبرون بمنزلة كهنة في عيالهم ويقدمون القرابين لله ومن بعد الطوفان عند خروج نوح من السفينة ابتنى مذبحًا للرب واخذ من كل الانعام والطيور الطاهرة وقدمها لله (تكوين ص ٨) وقال الكتاب ان الرب اشتم رائحة طيبة ومن بعد نرى الله يطلب من ابراهيم ان يقدم لهُ ابنه اسحق ذبيحة افتداها بالخروف (تكوين ص ٢٢) ونرى الكتاب المقدس يسمي ملكيزادق حبرًا وقد قدم لله خبزًا وخمرًا ونقرأ ان يعقوب ابا الآباء اقام مذبحًا في شخيم وقدم عليه الذبيحة لله وان موسى قبل انزال الشريعة ارشد اليهود ان يقولوا لفرعون اطلقنا لنمضي مسافة ثلاثة ايام لنذبح لالهنا هذا ولا يشك احد العلماء البتة بان الاقدمين جميعًا كانوا يقدمون لله ذبائح دموية من ايام نوح فصاعدًا لمَّا اباح الله للناس كل اللحوم والحاصل انهُ منذ وجد العالم والناس فيه وجد لهم دين وخدمة لهُ اي كهنة كانوا يقربون القرابين لله

ومن بعد تنزيل الشريعة على موسى لا يجهل احد امر الله بان نقدم لهُ الذبائح لا خروف الفصح فقط بل المحرقات ايضًا للتطهير والتكفير الى باقي القرابين التي امر الله اليهود بها كما لا يجهل احد اقامة هارون حبرًا في شعبه الخاص ومن بعد اللاويين برتبهم الى ايام المخلص فهذا ما كان في امر الكهنة والذبائح في شعب الله الخاص وجميعه كان رسمًا ورمزًا لكهنوت المسيح وذبيحة نفسه على عود الصليب وتقدمة كهنة العهد

الجديد الذبيحة غير الدموية فكانت تلك الذبائح والطقوس رمزاً وظلاً للمستقبلات كما يسميها الرسول

ان وجود الكهنة والذبائح لم يكن عند شعب الله الخاص فقط بل كان عند جميع القبائل والامم المعروفة اي عند الاثوريين والفرس والمصريين والفينيقيين وقبائل الصين والهند واليونانيين والرومانيين واذا طالعنا التواريخ فكما لا نجد شعباً دون معبود هكذا لا نجد شعباً دون كهنة وذبائح ونزداد تاكيداً لذلك باثار هذه الشعوب القديمة الباقي بعضها حتى الان وقد كان الفلاسفة انفسهم يقرون بذلك ويغرون الشعب بهِ باقوالهم واعمالهم حتى قدم سقراط نفسه ديكاً كان عنده لاسكولابيوس بل وجدت قبائل يضحي اهلها بنفوسهم او بنفوس اناس اخرين للالهة تعبداً واجلالاً لهم وترضية ولم ينقطع هذا من العالم حتى الان

ان اجماع قبائل العالم باسره على وجود دين وكهنة وذبائح انما منشاه الطبع البشري نفسه او ايحاء الله بهِ للابوين الاولين كما مر فالعقل البشري نفسه يرشد الى وجود اله علة جميع المخلوقات والى كونه محسناً بخلق الناس والعناية بهم وبيده امرهم واليه مرجعهم فكان التكريم له وارضاه بديهيان ولا يمكن اتمام هذا الامر المهم دون اناس ممتازين يُسلَّم اليهم تدبير التعبد لله والاكرام له والمحافظة على ذلك فنتج من هذا وجود دين وتعبد للالوهية ووجود خدمة لهذا الدين يعنون بامر التعبد لله وتدبير الناس بهِ وحيث ان كل خير وكل ما يتنعم بهِ الناس انما هو من فضل

الخالق فكان من اللازم ان يقدم الناس شيئًا من احسن ما يملكون وما يتنعمون بهِ للمعبود ارضاءً لهُ واقرارًا بربوبيته وسيادته فهكذا كان اصل التقدمات لله من باكورات الغلال وثمار الارض ولما كان الحيوان احسن باقي الموجودات فارشدهم العقل او الوحي للابوين الاولين الى تقدمة الذبائح لان اللحم هو اخص ما يقتات الناس بهِ وكان القدما يعتبرون الحيوة قائمة في الدم فلذلك كانوا يريقون دم الحيوانات ارضاءً لله واتصل كثير منهم الى اراقة دم البشر ايضًا اجلالاً لعزة المعبود هذا واننا نجد في تواريخ القبائل القديمة انهم كانوا يتصورون الاله مغضبًا على البشر وانهُ يريد الانتقام منهم وان لا شيء يرضيه نظير اراقة الدم تسكينًا لغضبه وكأَن هذا التصور نشأ من التقليد الملاحظ خطية الابوين الاولين في الفردوس فكان هذا من جملة ما حملهم على تقدمة الذبائح الدموية وهكذا اوجد العقل البشري او الوحي التعبد لله والدين وخدمته اي الكهنة والذبائح عند جميع قبائل العالم

ونزيد ذلك ايضاحًا لقولنا ان وجود الكهنة كان لازمًا من جهة الله لانهُ يرضى بالدين بل لا يمكن ان يخلق اناسًا حاصلين على العقل والحرية دون ان يقيدهم بدين واوامر دينية والاَّ فلا يكون حكيمًا اذ لا ينتظم عمله والدين لابد لهُ من روساءَ يعنون بهِ ويحافظون عليه كما كان لازمًا من جهة الناس لان الدين امر كبير متسع الدائرة يشترك بهِ جميع ذويه باعمال كثيرة لا يباح الاختلاف فيها فلابد لهُ من خدمة اي كهنة اصحاب سلطة وامر للمحافظة عليه واما الذبائح والقرابين

فيريدها الله بل يطلبها لانهُ لا يريد ان يكون تكريم مخلوقاته لهُ باطنياً فقط بل خارجياً ايضاً واعظم التعبد الخارجي هو تقدمة الذبائح والتقادم اقراراً بعزة الله وتفضله على الناس الذين يرون ايضاً انهُ لابد لكل من كان خاضعاً لاخر ان يبدي لهُ شعائر الخضوع الخارجية ايضاً واخص هذه الشعائر تقدمة الذبائح والتقادم فاذاً منذ وجود الانسان في الارض قد لزمه دائماً معبود ودين يُعبد بهِ وخدمة لهذا الدين وذبائح وتقادم فاجمع العالم كله على ذلك دون فارق بين دين صحيح وفاسد هذا في العهد القديم

فلننظر الان في العهد الجديد هل كان فيه كهنة وذبائح اتظنون اولادي الاعزاء ان الله الذي ارشد الناس اجمع بالعقل او بالوحي منذ البدء الى اقامة الكهنة وتقديم الذبائح وانزل على موسى الشريعة وكان اخصها رتب خدمة الكهنة وتقدمة الذبائح بتفصيل تام مع ان ذلك كان ظلاً ورمزاً للمستقبلات غير رايه في العهد الجديد ولم يشا ان يكون فيه كهنة ولاذبيحة لا لعمري ولااظن احداً منكم يتردد في ايجاب ذلك ولنبحث قبل كل شيء هل كان المخلص نفسه كاهناً وهل قدم لله ذبيحة فنقول . ان الكاهن او الحبر هو من أُقيم ليرشد الشعب الى حفظ وصايا الله ويقدم الصلوات والذبائح ولذلك قال الرسول ان كل عظيم احبار متخذ من الناس انما يقدم بدل الناس في الاشياء التي هي لله ليقرب القرابين والذبائح عن الخطايا . وهذا يطابق المخلص كثيراً فهو حبر او عظيم كهنة ونفس تسميته المسيح اي الممسوح من الله

تبين ذلك وقد قضى حياته في الارض معلمًا العبادة لله ومبشرًا الشعب بالخلاص ومرشدًا اياه طريق التوصل اليه واصرف اوقاتًا كثيرة بالصلوة لله عن الشعب وعن تلاميذه وعن صالبيه ايضًا وقدم اخيرًا نفسه ذبيحة لله ابيه واذا اردتم ان تسمعوا الايات الكريمة بذلك فننتخب منها اولاً ما صدرنا كلامنا بهِ من قول الرسول الذي اخذه عن مزمور ١٠٩ ان الرب اقسم ولن يكذب (في اللاتينية لن يندم) انك انت الحبر الى الابد على شبه ملكيزادق وقال الرسول ايضًا (عبرانية ص ٣ عد ١) «انظروا الى هذا الرسول يسوع المسيح رئيس احبار اعترافنا» فيسميه رسولاً اي معلمًا مرسلاً من الله ورئيس احبار للايمان الذي نعترف بهِ وكذا قال (عبرانية ص ٢ عد ١٧) «ليكون رحومًا ورئيس احبار امينًا فيما هو لله» وقال ايضًا (هناك ص ٤ عد ١٤) «من حيث ان لنا عظيم احبار عظيمًا وهو يسوع المسيح» ومن اقواله في الاصحاح السابع من هذه الرسالة «فمثل هذا الحبر كان ينبغي لنا اذ هو زكي بغير شر ولا دنس بعيد عن الخطايا» وقال في الاصحاح الثامن «ان لنا رئيس احبار قد جلس بيمين عرش العظمة في السماء» وقد قابل في الاصحاحات الخامس والسابع والثامن من هذه الرسالة كهنوت المسيح بكهنوت العهد القديم وفضل كهنوته على كهنوت هارون وغيره من كهنة العهد القديم من اوجه. اولها ان كهنوت هارون كان بدون قسم واما كهنوت المسيح فبه خاصة لانهُ كان دائمًا الى الابد. ثانيها ان كهنوت العهد القديم كانت الذبيحة والتقدمة فيه غير المقدم وفي كهنوت المسيح

هو المقدم والتقدمة ولذلك قال لم يدخل بدم الجدى والعجول بل دخل بدم نفسه . ثالثها ان كهنوت العهد القديم لم يكن يطهر الخطايا بنفسه ،، لانهُ لم يستطع دم الثيران والجدى ان يطهر الخطايا واما المسيح فقرب ذبيحة واحدة عن الخطايا وبقربان واحد اكمل الذين يتقدسون بهِ الى الابد ،، رابعها ان كهنة العهد القديم كانوا يحتاجون ان يقدموا عن نفوسهم اولاً ثم عن الشعب والمسيح لاحاجة لهُ بذلك . خامسها ان اولئك كانوا بشرًا وهو اله . سادسها هم كانوا في الارض ويتوارثون وهو كان في الارض وما برح في السماء يقدم ذبيحته لابيه ويشفع فينا . سابعها هم انما كانوا احبارًا كثيرين لانهم مائتون وممنوعون من ان يدوموا واما هذا فمن اجل انهُ دائم الى الابد فكهنوته لا يزول ويقدر ان يحيي الى الابد من يتقربون الى الله على يدهِ لانهُ حيٌّ دائمًا ويصعد الصلوة عنهم فكل ذلك من اقوال مار بولس في الاصحاحات المشار اليها وماذا تريدون اكثر صراحة من هذا فقد اتضح اذًا ان المسيح لهُ المجد كان كاهنًا بل عظيم احبار ولننظر الان في الذبيحة التي قدمها

ان خطية ادم في الفردوس كانت سببًا للخطايا التي حصلت بعدها في العالم ولما كان شر الخطية غير متناهٍ لانها مخالفة لاله غير متناه فلم تكن تضرعات الناس وذبائحهم كافية لاصلاح الاهانة الملحقة بهِ عز وعلا بل كان مستلزمًا تقديم ترضية من اقنوم غير متناهٍ وليس غير متناهٍ الاَّ من كان الهًا فلهذا وعد الله الابوين الاولين بعد اثمهما بارسال الفادي الذي يسترضي الله عنهما وعن ذريتهما ويمحو الخطية ويفتح

للناس ابواب السماء التي اغلقتها فكان الاباء الاولون والانبياء والشعب اليهودي ينتظرون هذا المخلص والفادي ويقدمون الذبائح والقرابين لله تكفيرًا وتطهيرًا من الخطايا الآن تلك الذبائح والقرابين لم تكن كافية ولم تطهر بنفسها الخطايا بل كان مقدموها يتطهرون بالايمان بالمخلص الموعود بهِ اذ لا خلاص الاَّ بهِ كما يقول مار بطرس الرسول (ابركسيس ص ٤ عد ١٢) وكانت تلك الذبائح ظلاً ورمزًا لذبيحة المسيح في العهد الجديد الى ان حضر ملء الزمان كما يقول مار بولس فارسل الله ابنه الوحيد اي الاقنوم الثاني من الثالوث الأقدس متجسدًا في حشاء مريم العذراء فصار الكلمة جسدًا وحل فينا وحمل خطايانا ومسحه الله كاهنًا ورسولاً ومعلمًا للشعوب فبشر وانذر وعلم واجترح الايات والعجائب اثباتًا لكونه ابن الله ومرسلاً منه ولم يكتفِ عدل الله ولا حبه للناس بصيرورته بشرًا نظيرهم وتقدمته الصلوات والتضرعات عنهم ترضية لابيه السماوي مع كون ذلك كافيًا ممن هو اله واستحقاق صلواته واعماله غير متناهٍ بل اراد الاب ان يكمل ابنه وظيفة الكهنوت التي مُسح بها بسائر انواعها اي اراد ان يقدم ذبيحة ايضًا لكن هذه الذبيحة لم تكن دم الجدى والثيران والعجول ولا الخراف ولا اليمام او الحمام بل كانت ان يقدم نفسه ضحية لابيه فدية عن الناس وان يكون حملاً لله يحمل خطايا العالم وان يُساق كالنعجة الى الذبح فارتضى المخلص بتقدمة نفسه ذبيحة طائعًا راضيًا فقدم نفسه لانهُ اراد ومات في بحر من الاوجاع على خشبة الصليب عن جميع الناس موفيًا العدل الالهي الوفاء

الغير المتناهي عن شر الخطية الغير المتناهي

ان ذبيحة الصليب ليس من المسيحيين من يتردد بالايمان بها على اختلاف المذاهب والبدع والانشقاقات التي لم يخلُ منها عصر من اعصر الكنيسة من ايام المخلص حتى الان وان انكرها بعض الكفرة او الغير المومنين او لم يصدقوها فانما كان ذلك خاصة لغرابة هذا الامر ولعدم ادراكهم ان الهًا غير متناهٍ ينزل من سمائه الى الارض ويصير بشرًا كالناس ويتالم ويُصلب ويموت من اجل عبيده ومخلوقاته فغرابة الامر حملتهم على عدم تصديقه مع وجود البينات التي لا ترد ولا تُنكر على حقيقته على ان ما لم يمكن الكفرة ان يصدقوه وما لم يكن يجسر الناس جميعًا ان يترجوه او يطلبوه وما لم يكن يخطر على فكر احدٍ ان يتصوره قد صنعه فعلاً مخلصنا فوفى العدل الالهي عنا وفتح لنا كنوز ملكوته السموي وغمرنا بنعمه واحسانه ومحا بدمه صك خطايانا ونقض السياج المتوسط وابطل العداوة بين الله وبيننا بصليبه وكان بمنزلة حمل حمل الله عليه خطايانا وذبحه محرقة عنها فصالح بهِ النوع البشري ورده الى المرتبة التي كان قد سقط منها بالخطية

فاذًا قد اتضح اولادي الاعزاء ان الكهنوت كان في العالم مذ وجد الناس فيه لا عند شعب الله الخاص فقط بل عند قبائل المسكونة قاطبة وان المخلص نفسه كان كاهنًا بل رئيس كهنة وقدم لله نفسه ذبيحة على عود الصليب فلننظر الان اذا كان اراد من بعده ان يبطل الكهنوت والذبيحة في العهد الجديد او اراد ان يبقي كهنة وذبيحة وهذا ما

نوضحه في القسم الثاني

القسم الثاني

قلت آنفًا ان الله ارشد الناس بالعقل او الوحي منذ اول العالم الى اقامة الكهنة وتقدمة الذبائح وبرهنت انهُ جعل ابنه كاهنًا بل رئيس كهنة العهد الجديد وقدم نفسه ذبيحة فهل تظنون انهُ اراد انقطاع الكهنوت والذبيحة من بعده في عهد النعمة والكمال فاي سبيل لنا الى معرفة ذلك واثباته اقوم من مراعاتنا ما علمه هذا المخلص بفمه الاقدس اذ كان متردداً في العالم وما علمه من بعده رسله وتلاميذه الذين خلفهم له ثم الكنيسة من بعدهم فالكاهن هو من اقامته سلطة شرعية لتعليم الشعب وانذاره وحثه على عبادة الله وارشاده كيلا يتبع الضلال وتقدمته الصلوة والذبيحة عنه وتوزيعه الاسرار عليه فاننا نرى المخلص من حين بدايته في التبشير استدعى رسلاً فعلمهم بمدرسته الالهية واملى عليهم شريعته المقدسة وارسلهم في حياته ايضًا الى كل بلد ومدينة ازمع ان يدخلها ثم قال لهم قبل صعوده من هذا العالم كما ارسلني ابي هكذا انا ارسلكم امضوا فعلموا جميع الامم حفظ كلما اوصيتكم بهِ وعدوهم وها انا معكم كل الايام الى انقضاء العالم وقد اعطاهم سلطانًا على تقديس جسده ودمه قائلاً بعد ابداعه الاوخارستيا ومناولتهم جسده المقدس ودمه الطاهر اصنعوا هذا لذكري وبهذا بالخصوص رسمهم كهنة واولاهم سلطان الحل والربط بقوله اقبلوا الروح القدس من غفرتم لهُ خطاياهُ غفرت ومن امسكتموها

عليه مسكت ومهما حللتموه في الارض يكن محلولاً في السمآء ومهما ربطتموه في الارض يكن مربوطًا في السمآء وليس هذا فقط بل اولاهم السلطة على عمل العجائب بقوله اشفوا المرضى طهروا البرص اقيموا الموتى وساواهم بنفسه واراد ان العالم يستمع كلامهم ويقبله ولا يجسر على اهانتهم اذ قال من سمع منكم فقد سمع مني ومن قبلكم فقد قبلني ومن اهانكم فقد اهانني والحاصل انهُ ما من احد يتلو الانجيل ويمكنه ان يتردَّد اقل تردد في اقامة المخلص كهنة بل احبارًا ياون امر العبادة وحفظ وصايا الله وتقدمة الذبيحة الغير الدموية وتعليم الشعب وتوزيع الاسرار عليه وما هي وظيفة الكهنة غير ذلك

ان المخلص لم يكتف بجعل رسله احبارًا ورئيسهم مار بطرس رئيس احبار بل اختار تلاميذ للانذار والتبشير واتمام الخدمة الروحية وامر رسله ان يبشروا اهل المسكونة كلها بعد صعوده ويقيموا كهنة في مدينة فمدينة لاتمام الخدمة المقدسة كما نرى في عمل الرسل انفسهم فانهم كانوا يرسمون اساقفة وكهنة وشمامسة لخدمة المومنين في الروحيات ومن ذلك انتخابهم السبعة الشمامسة اسطفانوس وفيلبوس والباقي حيث اوقفوهم بين ايدي الرسل ولما صلوا وضعوا عليهم الايدي وكذلك نرى مار بولس الرسول يعيّن الصفات التي يلزم ان يكون متصفًا بها الاسقف او الكاهن حيث قال (تيموتاوس ١ ص ٣) «ينبغي ان يكون الاسقف من لا يوجد فيهِ عيب بعل امراة واحدة ومن كان ضميره صاحيًا وعفيفًا ومهذبًا ومحبًّا للغربآء ومعلمًا وغير مدمن شرب

الخمر ولا تسرع يده الى الضرب بل فليكن متواضعاً غير مخاصم ولا محباً المال ومحسن تدبير بيته وضابط بنيه بالخضوع بكل طهارة لانهُ ان كان لا يعرف ان يحسن تدبير بيت نفسه فكيف يقدر ان يدبر كنيسة الله وينبغي ايضاً ان تكون لهُ شهادة حسنة من الخارجين „ ثم انتقل الى ذكر الصفات اللازم اتصاف الشمامسة بها وهذا ما يدل على ان كلامه السابق يشمل الاساقفة والكهنة او القسس فقال „ وكذلك الشمامسة ايضاً فليكونوا عفيفين لاذوي لسانين ولا مائلين الى الاكثار من الخمر ولا محبين الارباح النجسة بل فليتمسكوا بسر الايمان بنية خالصة وليمتحن هولاء اولاً ثم يخدموا وهم بغير معيب . . . ولتكن الشمامسة من كان لهُ امراة واحدة وقد احسن تدبير بيته وبنيه فان الذين خدموا حسناً يكتسبون لانفسهم درجة حسنة واسفرار وجه كثيراً في ايمان يسوع المسيح „ وقد كتب هذا الرسول الى تلميذهِ تيموتاوس الذي كان كاهناً او اسقفاً قائلاً (تيموتاوس ١ ص٤ عد ١٣) „ واظب على القراءة الى حين قدومي وعلى الطلب والتعليم ولا تتهاون بالموهبة التي فيك التي أُعطيت لك بالنبوة ووضع يد القسوسية „ الى ان قال في الاصحاح الخامس عد ١٧ „ واما القسوس الذين يتدبرون حسناً فيستحقون الاكرام المضاعف ولاسيما الذين يتعبون في الكلمة والتعليم . . . لا تقبل الشكوى على قسيس الاَّ من فم شاهدين او ثلاثة . . . لا تعجلنَّ في وضع يدك على احد ولا تشاركنَّ في خطايا اجنبية „ فكانه يقول لهُ اياك ان ترسم اسقفاً او كاهناً او شماساً قبل التفحص والتدقيق في معرفة سيرته

وإيمانه وأهليته لذلك فان رسامنك من ليس باهل توجب عليك المخالطة في خطاياه الاجنبية عنك وقال لهُ في رسالته الثانية ص ١ عد ٦ ،، من اجل هذا اذكرك ان تيقظ موهبة الله الذي فيك بوضع اليد ،، وفي اللاتينية التي فيك بوضع يديّ وقال هذا الرسول مرات ان الله جعل في بيعته رسلاً ومعلمين ورعاة ومبشرين الى باقي الخدم الملازمة الكهنوت وقال في رسالته الى طيطوس ص ١ ،، اني انما خلفتك في قريطش لهذا اي لتصلح الامور الناقصة وتقيم قسوساً في مدينة مدينة كما اوصيتك ممن لا عيب فيه وكان بعل امراة واحدة ولهُ اولاد مومنون غير شتامين وغير خاضعين للدعارة فان الكاهن يلزم ان يكون بغير لوم مثل وكيل الله وغير سائر براي نفسه وغير حقود ولا مكثر شرب الخمر ولا تكون يده مسرعة الى الضرب ولا محباً للارباح النجسة بل يكون محباً للغرباء ومحباً للصالحات وعفيفاً باراً طاهراً ضابطاً نفسه عن الشهوات ومعتنياً بتعليم كلمة الايمان ليقدر على ان يعزي بتعليمه الصحيح وعلى ان يوبخ الذين يمارون ،، الى غير ذلك من الآيات العديدة التي نطق بها هذا الرسول وهي نص في وجود الكهنة ووظائفهم وصفاتهم وليس هذا الرسول فقط بل غيره من الرسل صرّحوا بهذه الحقيقة فمنهم مار يعقوب الرسول بقوله ،، وان كان احدكم في شدة فليصلِ وان كان مريضاً فليدعُ قسوس البيعة وليصلوا عليه ويمسحوه بالزيت باسم ربنا فصلوة الايمان تشفي ذاك المريض وربنا ينهضه وان كان لهُ خطايا تُغفر لهُ ،، ومنهم مار يوحنا الرسول الذي مثل لنا في روياه الكهنة

وذبيحة العهد الجديد بالخروف المذبوح والاربعة وعشرين شيخًا الذين سجدوا امام الخروف ومعهم القيثارات والجامات المملوة بخورًا وهي صلوات القديسين وكانوا يقولون مستحق الخروف الذي ذبح ان ياخذ القوة والحكمة والجبروت الى غير ذلك من الايات الكريمة في العهد الجديد المصرحة بوجود الكهنة فيه والتي انكف عن ايراد باقيها خشية مللكم

فقد اتضح اذًا وجود كهنة في العهد الجديد من ايات الكتاب كما هو واضح وبين في التواريخ ومشاهد عيانًا من اول اعصر الكنيسة الى الان لا في الكنيسة الكاثوليكية فقط بل في الكنائس المنشقة عنها ايضًا واننا نرى الكهنة والاساقفة في الكنائس الشرقية التي كان انشقاقها منذ الجيل الخامس كاليعاقبة والنساطرة كما في الكنيسة الكاثوليكية ونرى مثل ذلك في كنيسة الروم التي انفصلت منذ الجيل التاسع بل ان بعض بدع الابروتسطنت نفسهم قد استبقت الكهنة ايضًا وباقيهم او اكثرهم الذي ينكر وجود الكهنة في العهد الجديد لا ينكرهم من حيث التعليم والتبشير وتقدمة الصلوات فان عند جميعهم اصحاب هذه الوظائف الدينية بل ينكرون ذلك من وجه تقدمة الذبيحة لانكارهم الذبيحة الغير الدموية التي سنبرهن وجودها ونرد اعتراضاتهم على ذلك وهل تحتاجون الى ان اورد اقوال الاباء القديسين لاثبات وجود كهنة في العهد الجديد فاية حاجة الى ذلك وجميعكم تعلمون ان اكثر هولاء الاباء من المتقدمين والمتاخرين كانوا اساقفة او كهنة فيكون ايرادي

افوالهم بهذا الشان تطويلاً في امر واضح

فلنثبت اذاً وجود ذبيحة غير دموية في العهد الجديد يقدم بها لله جسد المسيح ودمه تحت اعراض الخبز والخمر فهذه الحقيقة هي من عقائد ايماننا وقد انكرها من انكر من المحدثين وجود جسد المسيح ودمه في الاوخارستيا وهذا اثبته في خطبتي السنة الماضية في عيد القربان الاقدس والان اثبت وجود الذبيحة غير الدموية كما ترون فاذا ثبت ان وجود الذبيحة في العهد الجديد تقدم رسمه في العهد القديم وتنبأ عليه الانبياء وابدع المسيح هذه الذبيحة وصنعها الرسل ثم الكنيسة من بعدهم منذ بدئها الى الان فهل يبقى لاحد ريب بحقيقة وجود هذه الذبيحة غير الدموية لا لعمري وهوذا اثبات كلما تقدم

لاشك بانهُ كان في العهد القديم قرابين وذبائح بعضها دموي وبعضها غير دموي والرسول يسمي الشريعة القديمة ظل المستقبلات (كولوسايس ٢ ص ٢ عد١٧) ويقول انها كانت مرشدة لنا الى المسيح (غلاطية ص ٣ عد ٢٤) فاذاً كما كان في الشريعة الحديثة ذبيحة دموية بموت المسيح على الصليب اتمامًا لرسمها في العهد العتيق هكذا من الضرورة ان يكون في العهد الجديد ذبيحة غير دموية ايضًا لئلا يكون رسم دون حقيقة ورمز دون مرموز ولا ذبيحة في العهد الجديد الاَّ ذبيحة القداس التي كان رسمها بذبيحة ملكيزادق وبالخروف الفصحي الى غير ذلك من القرابين غير الدموية

ان ابراهيم بعد انتصاره على الملوك الاربعة ،، اخرج ملكيزادق

ملك سالم خبزًا وخمرًا لانهُ كان حبرالله العلي وبارك عليه وقال مبارك هو ابرام لله العلي خالق السمآء والارض ومبارك الله العلي الذي اوقع اعداك في يديك ” (تكوين ص ١٤ عد١٨) فتقدمة ملكيزادق كانت قربانًا حقيقيًا او ذبيحة غير دموية لانها تقدمة شيء خارج محسوس وهما الخبز والخمر وقدمت من خادم شرعي للذبيحة وهو ملكيزادق حبرالله العالي شكرًا لله على انتصار ابراهيم كما هو واضح بالاية الكريمة ومبين بالظروف التي قارنت ذلك فان ابرهيم كان من عادته ان يقدم لله ذبيحة كلما نال احسانًا مخصوصًا ولا نجد بعد انتصاره هذا قدم ذبيحة كعادته فما ذلك الاَّ لاكتفائه بتقدمة ملكيزادق بما انهُ حبر الله العليّ ولا نجد في الكتاب المقدس ان ملكيزادق قدم ذبيحة غير هذه التي كانت رسمًا لذبيحة المسيح الغير الدموية وقد خصَّ الرسول ذلك بالمسيح اذ قال ان الرب اقسم ولم يكذب انك انت الحبر الى الابد على شبه ملكيزادق لانهُ قدم ذبيحة كذبيحته اي خبزًا وخمرًا في العشآء السري ولانهُ امر رسله والكهنة بان يصنعوا ذلك لذكره اي ان يقدموا دائمًا ذبيحة جسده ودمه الغير الدموية

ان ذبح الخروف الفصحي امر بهِ الله بني اسرائيل بقوله (خروج ص ١٢ عد٣) ” في اليوم العاشر من هذا الشهر فليأخذ كل واحد من بني اسرائيل خروفًا لقبائلهم وبيوتهم وتحفظونه الى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر وليذبحه جميع بني اسرائيل وقت المسآء ” ولا شك بان ذبح هذا الخروف الفصحي كان ذبيحة حقيقية وامر بهِ الله ليكون ذكرًا لنجاة

بني اسرائيل من عبودية فرعون ورمزًا وصورة للذبيحة الغير الدموية في العشاء السري خاصة وهذا يتضح اولاً من ان الانجيل ذكر ان الرسل قبل آلام المسيح تناولوا جسد المسيح ودمه اي الخروف الفصحي الحقيقي الذي هو المسيح ومن اللازم ذبح الذبيحة قبل مناولتها والمسيح لم يكن ذبح حينئذٍ الذبيحة الدموية فاذًا ذبح الخروف الفصحي كان مثالاً لذبيحة المسيح الغير الدموية . ثانيًا ان المسيح بعد اكمال رتبة الخروف الفصحي باشر دون تأخر ذبيحة الاوخارستيا ولم يؤخرها الى زمان اومكان آخر كما هو واضح من ايات الاناجيل المقدسة فاقتران ذبح الخروف الفصحي مع ابداع الاوخارستيا يبرهن انهُ كان مثالاً لها . ثالثًا ان ظروف الحال حينئذٍ تبرهن واضحًا ان المسيح لم يكمل صورة من صور العهد العتيق بنوع اوضح من تكميله ما يشير اليه الخروف الفصحي اذ ابدع سر الاوخارستيا في الرابع عشر من الشهر عند المسآء . رابعًا ان الخروف الفصحي كان يذبح ويؤكل بمنزلة زاد للسفر ولهذا كان ياكله اليهود ومناطقهم مشدودة وعصيهم في ايديهم الخ وما هي ذبيحة الاوخارستيا الاَّ زاد السفر الى الموطن الحقيقي اي السماوي والخروف الفصحي لم يكن يتناوله الاَّ المختونون والاطهار وكذا الاوخارستيا لايتناولها الاَّ المعمدون والانقيآء وفي الجملة ان كل الظروف تبين ان ذبح الخروف الفصحي وتناوله انما كان صورة ورمزًا لذبيحة المسيح الغير الدموية في القربان الاقدس وكذا فهم ابآء الكنيسة ذلك من الاجيال الاولى فصاعدًا كما كان صورة لها خبز التقدمة وغيره من القرابين الغير الدموية فاذًا قد

اتضح ان ذبيحة المسيح الغير الدموية كان لها مثال ورمز في العهد القديم

فلننظر الان اذا كان تنبأ عليها الانبياء ايضًا اننا نرى الروح القدس يقول في سفر الامثال ص ٩ عد ١ «ابتنت الحكمة لها بيتًا واقامت له سبعة اعمدة وذبحت ضحاياها ومزجت خمرًا واعدت مائدتها» وقد فهم المفسرون بالحكمة الكلمة المتجسد بحسبما دعاه الكتاب المقدس وبالبيت الكنيسة كما يدعوها الرسول وبالاعمدة الرسل كما يدعوهم الرسول ايضًا وبالضحايا لا الذبيحة التي قدمت على عود الصليب بل ذبيحة القداس ايضًا بشاهد قوله ضحايا بالجمع لا بالمفرد وذبيحة القداس تقدم في كل زمان ومكان ويمزج فيها الخمر وهكذا تعدّ المائدة الربانية وقد فسر هذه الاية بهذا المعنى القديس كبريانوس في رسالته ٦٣ والقديس اغوسطينوس في ك ١٧ في مدينة الله وغيرهما كثيرون ثم جاء في نبوة اشعيا ص ١٩ عد ٢١ «ويكون الرب معروفًا في مصر ويعرف المصريون الرب في ذالك اليوم ويعبدونه بذبائح وقرابين» وقد فسر هذه الاية اوسابيوس والقديس ايرونيموس وغيرهما بان المراد بها ذبائح العهد الجديد ولا عبرة في اعتراض كلوينوس على هذه الاية بان النبي تكلم على الذبائح الروحية التي يقدمها المسيحيون جميعًا لانهُ ورد في الاصحاح المذكور نفسه عدد ١٩ «انهُ يكون مذبح للرب في وسط ارض مصر» والذبائح الروحية لا تحتاج مذبحًا منظورًا وجاء في ارميا ايضًا ص ٣٣ عد ١٨ لا يباد من وجهي رجل من الكهنة واللاويين يقرب الوقود ويحرق الذبيحة ويذبح الذبائح جميع الايام» وقد فسر

القديس ايرونيموس وناوادوريطوس هذه الاية بان المراد بها كهنة المسيح الذين يذبحون الذبائح كل الايام اذ بطلت الذبيحة الموسوية

والاوضح من هذه النبوات جميعها نبوة ملاخيا في ص ١ عد ١٠ و ١١ „ ليس لي ارادة فيكم يقول رب الجنود وقربانًا لا اقبل من ايديكم لانه من مشرق الشمس الى مغربها اسمي عظيم في الامم وفي كل مكان يذبح و يقرب لاسمي قربان مطهر„ فمعنى النبوة واضح اي ان الله يرذل و يبطل ذبائح اليهود ويقيم في الشريعة الجديدة ذبيحة نقية طاهرة تقدم لله في كل مكان وزمان . ولا صحة لقول المحدثين ان المراد بالذبيحة التي ذكرها ملاخيا ذبيحة المسيح على الصليب لان النبي يتكلم على ذبيحة تقدم في كل زمان ومكان وذبيحة الصليب قدمت مرة واحدة في مكان واحد ولا طائل لقولهم ايضًا ان المراد بالذبيحة التي ذكرها ملاخيا الذبائح الروحية التي هي الصلوات والشكر والاعمال الصالحة لان اللفظة العبرانية قربان الموردة في الاية يراد بها في الحصر تقدمة خبز وخمر بنوع منظور والكلام هنا حقيقي لا مجازي مسبوق بذكر ابطال ذبائح اليهود وتقدمة ذبيحة طاهرة عوض الذبائح المدنسة التي كان يتشكى الله منها على لسان ملاخيا نفسه بقوله في هذا الاصحاح نفسه عد ٧ „ انكم تقدمون على مذبحي خبزًا نجسًا وتقولون بمَ نجسناك„ الخ فاذًا التقدمة النقية والطاهرة التي يقابلها ملاخيا بذبائح اليهود الدنسة انما هي ذبيحة جسد المسيح ودمه . قد اتضح اذًا انه ورد في العهد القديم نبوات ايضًا على ذبيحة العهد الجديد الغير الدموية اي تقدمة جسد

المسيح ودمه في القربان الاقدس

فلننظر الان في اثبات هذه الحقيقة بابداع المخلص نفسه لها في العشاء السري فقد ورد في الانجيل ان المخلص في ذلك العشاء الاخير «اخذ خبزًا وشكر وكسر واعطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم تكونون تصنعون هذا لذكري وهكذا ايضًا قال على الكاس من بعد ان تعشوا هذه الكاس هي العهد الجديد بدمي التي تراق من اجلكم» (لوقا ص ٢٢ عد١٩ و ٢٠) (وكلمة التي على موجب النسخة اليونانية نعت للكاس وفي السريانية واللاتينية يحتمل ان يكون الاسم الموصول نعتًا للدم او للكاس) فالكاثوليكون اجمع يعترفون ان المسيح بعمله هذا قدم ذبيحة غير دموية لله ابيه لانهُ بقوة كلامه المقدس جعل جسده ودمه موجودين حقيقة تحت شكلي الخبز والخمر المنظورين وقال في جسده انهُ يبذل عنهم وقد جاء في رسالة قرنثية (١ ص ١١ عد ٢٤) بحسب النسخة اليونانية يكسر عنكم وعن الدم بحسب هذه النسخة يراق من اجلكم وفي بشارة متى (ص ٢٦ عد ٢٨) «الذي يسفك عن الكثيرين لغفران الخطايا» فهذه الكلمات يبذل ويكسر ويراق في الزمان الحاضر ليس المراد بها ذبيحة الصليب بل ذبيحة اخرى غير دموية قدمها حينئذٍ ولو كان المقصد مجرد الانباء بذبيحته الدموية المستقبلة لما كانت حاجة الى اخذ الخبز ومباركته والشكر عليه واعطائه لهم وكذا الخمر فكان يكتفي بالقول اني سابذل جسدي عنكم واريق دمي لاجلكم واضف الى ذلك ان المخلص لم يقل يبذل ويكسر ويراق لكم

بل عنكم ومن اجلكم ولو كان المقصد ان يوزع عليهم خبزًا وخمرًا مباركين
فقط دون ذبيحة لله ابيه لقال يكسر ويراق لكم وماذا نصنع بقوله
جسدي ودمي وبالحقيقة انهُ لم يقدم حينئذٍ جسده ماكلاً ودمه مشربًا
الاَّ للرسل الحاضرين مع انهُ يقول انهُ يراق عن الكثيرين لمغفرة الخطايا
فالمعنى الواضح اذًا هو ان جسدي يبذل ودمي يراق عنكم وعن كثيرين
أي ذبيحة غير دموية استغفارية اي لمغفرة الخطايا . وقد كان في هذه
الذبيحة كل ما يقتضي للذبيحة الحقيقية اي تقدمة الشيء المحسوس وهو
تقدمة جسد المسيح ودمه تحت اعراض الخبز والخمر المحسوسة ثم الخادم
الشرعي وهو المسيح الذي كان كاهنًا كما برهنا وهذه التقدمة كانت لله
وحده للاقرار بسيادته على جميع الاشياء المخلوقة فانا نرى الانجيليين
يقولون شكر وكسر وقال خذوا فكلوا الخ واخذ الكاس فشكر واعطاهم
الخ فهذه العبارات نصٌّ صريح بان المخلص باشر عمله تكرمة لابيه السماوي
ولهذا لم يقل (كما لاحظنا آنفًا) عن جسده ودمه يبذل و يراق لكم بل
عنكم ومن اجلكم اي يبذل و يراق تكرمة للاب الازلي عنكم ومن اجلكم
ارضاءً لعدله ولنوال غفران الخطايا برحمته. ثم انهُ بقوة كلمات التقديس
يوجد تحت شكل الخبز جسد المسيح وحده وتحت شكل الخمر دمه وحده
حتى كأن سيف كلمات التقديس (كما يتكلم اللاهوتيون) يفصل جسد
المسيح عن دمه ويذبح ذبحًا سريًا المسيح الموجود تحت اشكال الخبز
والخمر حقيقة وهذا الذبح السري يتم بنوع خارج ومحسوس وهذا يكفي
لجوهر الذبيحة؛ وتقديس الشكلين احدهما بالانفصال عن الاخر يدل

على انفصال دم المسيح عن جسده كما حصل في موت المسيح فاذاً قد قدم المسيح في العشاء السري ذبيحة غير دموية ولم يكتفِ بذلك بل امر الرسل وخلفاءهم ان يصنعوا نظيره كقول الرسول (قرنتية ١ ص ١١ عد ٢٤) «اصنعوا هذا لذكري وكذلك من بعد ان تعشوا ناول الكاس وقال هذه الكاس هي العهد الجديد بدمي فافعلوا هكذا كلما شربتم لذكري فكلما اكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكاس تذكرون موت الرب حتى مجيئه» فاذاً قد جعل ذبيحة غير دموية تدوم في العالم الى مجيئه للدينونة ويقدمها الكهنة في كل يوم

والحاصل من ذلك ان المخلص لما كان مزمعاً ان يقدّم نفسه ضحية على الصليب بذبيحة دموية وكان امر الذبائح مستلزماً لارضاء الله وقد اوحاه او ارشد اليه عقول جميع الامم وكانت شريعة المسيح اكمل جميع الشرائع فلم يشأ ان تبقى دون ذبيحة دائمة لكنه جعل هذه الذبيحة اكثر كمالاً بابداعه سرّ الاوخارستيا حيث يذبح في كل يوم على المذابح فيتناوله الكهنة والمؤمنون فكانت ذبيحته هذه تكراراً لذبحه على الصليب وذكراً له واكمل من سائر الذبائح ولو سلم البروتسطنت ان تحت اشكال الخبز والخمر جسد المسيح ودمه لتيسر لهم التسليم بالذبيحة الغير الدموية وقد برهنت في خطبتي المشار اليها آنفاً حقيقة وجود جسد المسيح ودمه تحت اعراض الخبز والخمر ومتى أفترض ذلك مبرهناً فلا يبقى البتة محل للريب بالذبيحة الغير الدموية في العهد الجديد وليت شعري ماذا نسمي عمل المسيح في هذا الافتراض اي تقدمة جسده ودمه في العشاء

السري وفي كل يوم على المذابح لله الاب الاّ ذبيحة : ولننظر الان كيف فهم الرسل ما عمله المسيح في العشاء السري وامرهم بان يصنعوا كذلك لذكره ونرى هل عرفوا ان في ذلك ذبيحة غير دموية وصنعوها بتواتر او لا

اننا نقرأ في الابركسيس (ابركسيس ص ٢ عد ٤٢) ان المومنين «كانوا مواظبين على تعليم الرسل واشتراك كسر الخبز والصلوات» فما هذا الاشتراك بكسر الخبز والصلوات الاّ التقدم الى الذبيحة الغير الدموية وقد ورد في الابركسيس ايضاً (ص ١٣ عد ٢) ان العلماء الذين كانوا في انطاكية ومنهم برنابا وسمعان «فيما هم يخدمون الرب ويصومون ففي النسخة اليونانية بينما هم يذبحون للرب وكذا ترجم الكلمة ارازموس وغيره على ان لنا ما هو اكثر وضوحاً من هذا فان مار بولس الرسول اوضح لنا هذه الحقيقة ايضاحاً جليّاً بقوله (قرنتية ١ ص ١٠ عد ١٦ فصاعداً) «فكاس الشكر التي نباركها اليست هي شركة في دم المسيح والخبز الذي نكسره اليس هو شركة في دم المسيح ... انظروا الى آل اسرائيل الجسديين اليس الذين كانوا ياكلون الذبائح كانوا شركاء المذبح ... الاّ ان ما يذبحه الحنفاء انما يذبحونه للشياطين لا لله فلا اريد ان تكونوا شركاء الشياطين فانكم لا تستطيعون ان تشربوا كاس ربنا وكاس الشياطين ولا تقدرون ان تشتركوا في مائدة ربنا ومائدة الشياطين» فهل اوضح من هذا التصريح بوجود ذبيحة في العهد الجديد وتقدمة الكهنة لها واشتراك المومنين بها و يزداد ذلك وضوحاً اذا نظرنا

الى ان مقصد الرسول هو ان يبرهن ان من كانوا ياكلون من الذبائح المقدمة للشياطين كانوا يشتركون حقيقة مع الشياطين كما ان من يشرب من المسيحيين الكاس المقدسة ويتناول الخبز المقدس يشترك حقيقة بجسد المسيح ودمه وكما كان عند اليهود من ياكلون الذبائح يشتركون حقيقة بالذبيحة والمذبح فمن الواضح اذًا ان ذبيحة الاوخارستيا كانت موكدة ولا ريب بها عند مار بولس حتى اتخذها بمنزلة مبدأ مسلم بهِ للبرهان فانهُ يقابل مذبح المسيحيين ومائدتهم بمذابح اليهود والوثنيين والحال ان المائدة والمذبح دلالة على الذبيحة فاذًا الرسول يقابل ذبيحة المسيحيين بذبائح اليهود والوثنيين وقد اقر البروتسطنت انفسهم انهُ كان عند اليهود ذبائح حقيقية وذبائح الوثنيين وان كانت للالهة الكاذبة فكانت ذبائح حقًا فاذًا يتضح من كلام الرسول اولًا دون ريب ان عند المسيحيين ذبيحة حقيقية

ثم ان هذا الرسول قال ايضًا في رسالته الى العبرانيين ص ١٣ عد١٠ « ان لنا مذبحًا لا يحق لاولئك الذين يخدمون في القبة ان ياكلوا منه » فللمسيحيين اذًا كاليهود مذبح ياكلون منه ومن حيث ان المسيحيين لا ياكلون من المذبح الّا الاوخارستيا فينتج من ذلك نتجًا صريحًا ان الاوخارستيا ذبيحة والّا لما كان معنى لذكر المذبح لو كان ما يوكل عليه ليس هو ذبيحة مقدمة لله فقد اتضح اذًا ان الرسل ايضًا كانوا يصنعون الذبيحة الغير الدموية و يرشدون المومنين اليها ولنرَ ما كان اعتقاد المومنين وعملهم بعد الرسل ايضًا

اذا نظرنا الى التقليد وجدنا بينات لاتحصى لما نحن لهُ مثبتون من اقوال الاباء القديسين وليتورجيات اي نوافير القداس ورسوم المجامع وعمل الكنائس فنورد من الاباء في الاجيال الثلاثة الاولى مقال القديس اندراوس الرسول المورد في اعمال استشهاده فانه يخاطب الوالي هكذا ،، انا اقدم على المذبح الحمل النقي الذي بعد ان يغتذي جميع شعب المومنين بلحمانه يستمر الحمل الذي ذبح كاملاً حياً ،، والقديس اغناطيوس الشهيد قال (في رسالته الى فيلادلفيا) ،، ان جسد سيدنا يسوع المسيح واحد هو والكاس واحدة والمذبح واحد كما ان الاسقف واحد ،، وقال في رسالته الى اهل ازمير ان الاراطقة ،، لا يسلمون بالاوخارستيا والقرابين لانهم لا يعترفون ان الاوخارستيا جسد مخلصنا يسوع المسيح ،، وقال القديس يوستينوس في خطابه مع تريفون ،، اننا ذرية كهنوتية لله كما شهد الله نفسه اذ قال انهُ يقدم لهُ في كل مكان في الامم ذبائح نقية وطاهرة ولا يقبل الله ذبيحة الا بواسطة كهنته وقد شهد الله ان الذبائح التي تقدم لهُ كما امر يسوع المسيح اعني الخبز والكاس في الاوخارستيا هذه الذبائح جميعها مقبولة لديه ،، وقال القديس ايريناوس (في ك ٤ ضد الاراطقة) بعد ان اورد كلمات المخلص هذا هو جسدي وهذا هو كاس دمي ،، ان المخلص علّم ابناء العهد الجديد تقدمة جديدة تقدمها الكنيسة في العالم كله متسلمة ذلك من الرسل ،، وهكذا باقي اباء الاجيال الثلاثة الاولى ومثلهم في الجيل الرابع والخامس اوسابيوس القيساري في كتابه الاول من الايضاحات

الانجيلية والقديس كيرلوس الاورشليمي في التعليم ٢٣ والقديس غريغوريوس النزينزي في خطبته الثانية والرابعة والقديس غريغوريوس نيصص في خطبته الاولى في قيامة المخلص والقديس يوحنا فم الذهب في تفسير مزمور ٢٣ ومثلهم سائر الآباء في الجيلين المذكورين وفي باقي الاجيال حتى ان العالم غراب الانكليزي الشهير بين علماء البروتسطنت اقر في حواشيه على تأليف القديس ايريناوس (ك ٤ راس ١٧) ان جميع اباء الكنيسة سواء كانوا في ايام الرسل او بعدهم اعتبروا الاوخارستيا بمنزلة ذبيحة في العهد الجديد وذكر منهم اكليمنضوس الروماني والقديس اغناتيوس والقديس يوستينوس والقديس ايريناوس وترتوليانوس والقديس كبريانوس واقر بان هذا التعليم لم يكن راي كنيسة خاصة او راي بعض العلماء ولكن معتقد الكنيسة كلها وجار عليه استعمالها واورد البينات من النوافير القديمة وقال ان لوتاروس وكلوينوس اساءا بتحريمها وتمنى كثيرون من علماء الانكليز ان يرد استعمال الذبيحة تمجيدًا لله . انتهى . وموسهيم نفسه اقر في تاريخه الكنائسي ان المسيحيين اعتادوا منذ الجيل الثاني ان يعتبروا الاوخارستيا ذبيحة وكذا صرحت بذلك نوافير القداس القديمة جدًا ومن جملتها نافور كنيسة اورشليم المنسوب الى مار يعقوب الرسول حيث يقال ايها الاله الذي افتقدتنا برحمتك ومنحتنا نحن عبيدك الغير المستحقين ان نتقدم بدالة الى مذبحك المقدس ونقدم لك هذه الذبيحة غير الدموية عن خطايانا " وعلى هذا المثال باقي الليتورجيات القديمة شرقية كانت او غربية ومن المجامع

نذكر القانون الثامن عشر من المجمع النيقاوي الاول الذي التأم سنة ۳۲٥ حيث نهى الشمامسة عن الادعاء بان يناولوا الاوخارستيا للكهنة لانهُ «لا يوجد قانون ولا عادة سلمت الينا ان من لا سلطان لهم على التقديم يناولون جسد المسيح لمن يقدمونه» فاذاً قد حكم بان للكهنة السلطان على تقديم جسد المسيح اي على تقدمة الذبيحة غير الدموية والمجمع الافسسي (الذي عقد سنة ٤٣١) قال في الحرم الثالث عشر «اننا نقدم في الكنيسة الذبيحة المقدسة والمحيية والغير الدموية الجسد الذي يقدم والدم الثمين» وهلمَّ جرًّا في باقي المجامع كلما وجد محل لذكر الذبيحة الى المجمع التريدنتيني الذي قال في مجلس ۲۲ راس اول قانون اول «من قال انهُ في القداس لا تقدم لله ذبيحة حقيقية وخصوصية او ان ما يقدم ليس هو المسيح الذي اعطانا جسده لناكله فليكن محرومًا» وقال في القانون الثاني من قال ان المسيح بقوله اصنعوا هذا لذكري لم يجعل الرسل كهنة او لم يامرهم بان يقدموا هم وباقي الكهنة جسده ودمه فليكن محرومًا» واضيفوا الى ذلك جميعه اتفاق جميع الكنائس على هذا منذ مبادي النصرانية حتى الان لا عند اللاتينيين فقط بل عند الروم ايضًا وعند جميع الاراطقة والمنشقين في الشرق الباقي بعضهم حتى الان وكهنتهم يقدسون الذبيحة الغير الدموية نظير كهنتنا ومن هولا السريان اليعاقبة والكلدان النساطرة والارمن البراصمة (الذين انشقوا منذ الجيل الخامس) بل انه لم يوجد نصارى قبل الجيل السادس عشر الاَّ وكان لهم مذابح يقدس كهنتهم عليها ونوافير قداس

لتقدمة الذبيحة ونذكر بالخصوص ما رسمه روساء الروم في المجمع القسطنطيني الذي عقدوه سنة ١٦٧٢ في القانون الثاني والثالث حيث قالوا « اننا نومن ان في سر الاوخارستيا المسيح كاملاً وهو الذي يقدم ويُقدم ويتناوله كل واحد كاملاً بنوع غير دموي » وفي مجمعهم الاورشليمي الذي عقدوه تلك السنة قالوا « ان في الاوخارستيا ذبيحة حقيقة استغفارية تقدم عن جميع المومنين احياء واموات » حتى ان البروتسطنت نفسهم لاينكرون البتة ان المسيحيين صنعوا في كل وقت الاوخارستيا اي العشاء المقدس ولكن نحن نقول انه يلزم ان يتداركوا ايضاً ان المسيحيين اعتقدوا دائماً في الاوخارستيا تقدمة ذبيحة حقيقية وبحصر اللفظ كما ينتج مما اوردناه حتى الان من البراهين والاَّ فليوضحوا لنا اي متى ابتدا هذا الاعتقاد واي متى جرى ادخال الذبيحة في العهد الجديد ففي هذا لايمكنهم ان يجيبوا جواباً راهناً بل يوردون بعض اعتراضات نشير اليها اشارة هنا لضيق المقام

فيقولون ان مار بولس قال في رسالة العبرانيين (ص٧ عد ٢٣) عن كهنة العهد القديم « وهم انما كانوا احباراً كثيرين لانهم كانوا مائتين وممنوعين عن ان يدوموا فاما هذا (اي المسيح) فمن اجل انه دائم الى الابد كهنوته لا يزول . . . وليس له حاجة كل يوم مثل رئيس الاحبار الى ان يقرب ذبائح اولاً عن خطاياه ثم عن الشعب لانه فعل هذا مرة واحدة في تقريب نفسه » وانه قال في ص ٩ عد ١٢ « انه دخل بدم نفسه بيت المقدس مرة واحدة » وفي عد ٢٦ « والاَّ للزم

ان يتالم مرارًا كثيرة منذ ابتداء العالم اما الآن فقرب نفسه مرة واحدة بذبيحته في آخر الزمان . وقال في ص ١٠ عد١٤ «« انهُ بقربان واحد اكمل الذين يتقدسون بهِ الى الابد »» فاذًا الرسول لا يقرّ بكهنوت في العهد الجديد ولا بذبيحة فيه الاَّ بكهنوت المسيح وذبيحته على الصليب وقالوا انهُ اذا كان ورد ذكر الذبائح في العهد الجديد فانما المراد به ذبائح مجازية اي تقديم الصلوات والتسبيح والشكر لله كما قال الرسول نفسه (في ص ١٣ عد ١٥ من هذه الرسالة) «« ولنرفع على ايديه ذبائح الحمد في كل وقت الى الله التي هي ثمار الشفاه المعترفة باسمه »» وكما فسّر ذلك ماربطرس (في رسالته الاولى ص ٢ عد ٥) بقوله «« كونوا هياكل روحانية وكهنة قديسين لاصعاد ذبائح روحية مقبولة قدام الله بواسطة يسوع المسيح »» فهذا اخص ما يعترض بهِ البروتسطنت على مالوف عادتهم بان يجمعوا آيات الكتاب التي يظهر لهم انها تناسب مدعاهم ويتركوا جانبًا منها ما يضاده او يفنده ويتمسكون بالمعنى الحرفي متى وافقهم ويعدلون عنه الى غيره متى لم يناسب مقصدهم

فنجيب على ذلك جميعه اننا اثبتنا ان الرسل كانوا كهنة وان المسيح امرهم لا بالصلوة فقط بل بغيرها ايضًا واخص وظائف الكهنة تقدمة الذبائح فاذًا كهنوتهم لا يقوم بتقدمة الصلوات وحدها ونرى في الرؤيا ان الشيوخ الذين خرّوا امام الحمل الذبيح قالوا لهُ «« انت صيرتنا ملوكًا وكهنة لالهنا »» وهذا ليس الكهنوت الذي يستعمله جميع المومنين اي تقدمة الصلوات بل كهنوت حقيقي واذا كان المسيح قد صنع الفدا

بتقدمة واحدة واكمل تطهيرنا الى الابد فما الحاجة الى صلاته وشفاعته بنا امام الله ابيه كما يقول الرسول نفسه (عبرانية ص ٧ عد ٢٥) «ويقدر ان يحيي الى الابد الذين يتقربون الى الله على يده لانهُ حيٌّ دائمًا ويصعد الصلوة لاجلهم» وهذه الاية هي في وسط الايات التي استشهدوها لزعمهم ولماذا اعطى رسله السلطان على مغفرة الخطايا واية حاجة للذبائح والقرابين الروحية التي يشير اليها مار بطرس الرسول فاذًا قد ضل مار بولس اذ حرَّض المومنين على ان يطهروا نفوسهم من كل دنس (قرنتية ٢ ص ٧ عد ١) فان كل شيء قد تم وكمل على الصليب فيجيب البروتسطنت ان كل هذا ضروري لنشترك باستحقاق ومفاعيل ذبيحة الصليب قلنا وهذا كلما نقوله نحن في ذبيحة الاوخارستيا فهي تكرار ذبيحة الصليب بنوع غير دموي وذكر لها وهذا التكرار والتذكار لازمان للاشتراك باستحقاقات المسيح ومن الغريب ان يقال ان تناول الخبز والخمر هو اشتراك بذبيحة الصليب اذ ليس هناك لا خبز ولا خمر والبديهي ان يقال ان ذلك اشتراك بذبيحة الاوخارستيا القائمة بجسد المسيح ودمه تحت اعراض الخبز والخمر

واذ تقدم ذلك فيسهل عليكم ان تعرفوا المعنى الحقيقي للايات التي يوردونها من رسائل مار بولس فمن المحقق كل التحقيق ان المسيح وحده هو الحبر الاسمى في العهد الجديد وله وحده الكهنوت الابدي وهو يباشر وظائف هذا الكهنوت الى الابد دون ان يحتاج ان يجدد كل يوم بنوع دموي الذبيحة التي قدمها على الصليب ولكنه

بشفاعته دائمًا بنا امام ابيه يكرر تقدمة ذبيحة جسده ودمه الغير الدموية واستحقاقاته لتخليص الناس ومن حيث انهُ الحمل المذبوح منذ ابتدا العالم (رويا ص١٣ عد٨) فيكون دائمًا كذلك بالمعنى نفسه الى نهاية العالم لا في السمآء فقط بل على الارض ايضًا فبهذا يقوم كهنوته الابدي الذي يباشر وظائفه بالسمآء بنفسه وعلى الارض بواسطة الكهنة وهو الذي دخل بدم نفسه بيت المقدس لا المصنوع بايدي الناس بل السمآء المرموز اليها بقدس الاقداس مرة واحدة بعد اراقة دمه على الصليب لا كرئيس كهنة اليهود الذي كان يدخل بدم الجداء والعجول ليكسب التطهير عن سنة واحدة وقد اكمل بذبيحته الدموية الواحدة اي بقربان واحد تقديس من يتقدسون بهِ الى الابد دون ان ينفي اختصاصهم بهذه الذبيحة الدموية بواسطة تقدمة الذبيحة الغير الدموية عنهم وليس من الصحة في شيء ان ذبيحة الاوخارستيا تبطل او تنقص ذبيحة الصليب لانها تكرار وتذكار لها واشتراك بها فلا تنقص من اعتبار هذه الذبيحة اكثر ما تنقص صلواتنا من اعتبار صلوات المسيح واكثر ما تنقص الاسرار والذبائح الروحية التي يقر البروتسطنت بلزومها من صلوات المسيح وشفاعته بنا ونعم ان ذبيحة العشآء السري وذبيحة الصليب كانت كل منها كافية لارضآء الاب ولفداء الناس كما ان كلًّا من اعمال المخلص هو ذو اعتبار غير متناهٍ كافٍ لما تقدم لكنه اراد لفرط حبه للناس ولاتمام ارادة ابيه السموي ان يصنع كل ذلك فمن يحاجه بهِ

فيقولون ايضاً ان مار بولس يقول حيث يكون غفران الخطايا فلا يحتاج الى قربان عن الخطايا (عبرانية ص ١٠ عد ١٨) قلنا ان البروتسطنت يقرّون ان تقدمة الذبائح الروحية لازمة وان الله لا يعفي منها الائمة الذين انخلوا من اثامهم بل هم اكثر التزاماً بها من الابرار فاذاً يحتاج الامر الى قربان عن الخطايا ولو روحياً ويقولون ايضاً ان مار بولس قال هناك (عد٢٦) « ان اخطأ انسان بهواه بعد ان حصل على معرفة الحق لم يبقَ الآن ذبيحة تقرّب عن الخطايا » ولكن فليطالعوا كمالة هذه الاية التي هي « لانهُ ان كان الذي يتعدّى شريعة موسى كان يموت على فم شاهدين او ثلثة بدون رحمة فكم احرى تظنون ان يستوجب اشد العقاب ذاك الذي داس ابن الله وحسب دم ميثاقه الذي تقدس بهِ كدم الناس وتهاون بروح النعمة » وليطالعوا ايضاً الاصحاح السادس عد ٤ حيث يقول « ولكن لا يقدر الذين اصطبغوا مرة وذاقوا الموهبة السماوية وقبلوا الروح القدس ... ان يخطئوا ايضاً ليتجددوا للتوبة » فاذا طالعوا هذه الايات ظهر لهم كالشمس في رابعة النهار ان الرسول يتكلم على من جحدوا الدين المسيحي ورفضوا استعمال كل واسطة للتطهير من خطاياهم وان هذا لا يضاد ذبيحة الاوخارستيا من احد الوجوه بل معناه ان الذبيحة لا تعود نافعة لهم بعد ان عرفوا الحق اي المسيح وامنوا بهِ ثم احتقروه واستخفوا بدمه واصروا على كفرهم فكانه لم تبقَ ذبيحة بالنظر اليهم

فاذاً قد اتضح اولادي الاعزاء ان الكهنوت كان في العالم منذ

وجوده ومثله الذبيحة وان المخلص نفسه كان ولم يزل كاهنًا بل عظيم كهنة وقدم نفسه ذبيحة على الصليب وابدع ذبيحة غير دموية يقدم بها جسده ودمه كل يوم تحت شكلي الخبز والخمر بواسطة كهنة العهد الجديد لله ابيه مغذيًا لنا بها كل ما شئنا وهذا من عقائد ايماننا ولا اخال احدًا منكم يشك بهِ وانما برهنته لتوطيد اعتقادنا وانعاش ايماننا وهذا نظري فلننظر الان بالعمل

القسم الثالث

فلنتاملنَّ قليلاً بما عمله الله لاجلنا بالذبيحة الدموية والغير الدموية وبما نصنعه نحن مقابلة لذلك ليظهر الفرق الكبير بين العملين ونعرف غلطنا ونصلحه فتاملوا برافة الله الاب ومحبة ابنه الحبيب وحكمة الروح القدس في ان احد الاقانيم الالهية يخفي مجده ويتنازل من سمائهِ الى الارض فيصير انسانًا ليفتدي عبيده بل من نسبتهم اليه احط من نسبة العبيد الى الموالي وليفتح لهم باب الملكوت السماوي ليكونوا له شركاء في مجده وقد كان يكفي مجرد هذا التجسد لفداء النوع البشري بل مليونات من الانواع لو وجدت فلم يكتفِ الاب بهِ ولم يرضه الابن وحده بل ارادا ان يتحمل اكثر من ذلك على ان كل عمل من اعمال المسيح لاتحاد اللاهوت بناسوته هو غير متناهٍ وبالتالي كافٍ لفدا الناس وارضاء عدل الله فختانه نقدمته للهيكل او شيءٌ من صلواته او من اتعابه او من غسل ارجل تلاميذه الى باقي اعماله لخلاصنا كل منها

على حدته كان كافيًا وبالحري حجة كانت تقدمته الذبيحة الدموية ولو مرة واحدة كافية لفداء النوع البشري وارضاء الاب لكنه حبًا بنا لم يكتف بذلك جميعه بل اراد ان تكرر هذه الذبيحة بنوع غير دموي في كل مكان وزمان وفي كل يوم واقام كهنة وامرهم بتقدمتها عنا ويقيتنا كل ما شئنا بجسده المقدس ودمه الطاهر فيتحد الانسان بالله اتحاد الاكل بالاكل ويتناول البشر طعام الملائكة بل من لم تجسر الملائكة ان تنظر اليه وليس هذا فقط بل اراد ايضًا ان يضحي بنفسه على خشبة الصليب حبًا بنا وتاملوا قليلاً بالنوع الذي اراد ان يقدم نفسه بهِ ذبيحة فكان يمكنه ان يوجد انواعًا لا تحصى لتكملة هذه الذبيحة وكان يكفي نقطة واحدة تراق من دمه لاجل الناس لتخلصهم وتسترضي الاب لكنه اراد ان يموت في بحر او في طوفان من الالام فالطوفان الاول غرق النوع البشري كله الاَّ ثمانية اشخاص نجوا بسفينة وهذا الطوفان الثاني غرق حيوة اله الناس اذ جعل تنفجر عليها ميازيب الحزن وميازيب الالام والاوجاع وميازيب الشتائم والاهانات وكما كانت امواه الطوفان قسم من جوف الارض وقسم من البحر وقسم من السماء هكذا كانت عذابات المخلص في تقدمة هذه الذبيحه اي بعضها من قلبه الاقدس اذ سمح للكابة والحزن ان يستوليا عليه وبعضها من بحر تعذيبات اليهود وانواع الالام الكثيرة التي اخترعوها لهُ حتى لم تبقَ حاسة من حواسه الاَّ واحتملت المًا ووجعًا من الراس الى القدم كله جراحات نظرناه اذ ليس هو احصوا اي عدوا كل عظامي كما تنبأ عليه الانبياء

فانتثرت لحمانه بالجلد وتجن راسه باكليل من اشواك حادة وزادوا على جراحاته جراحاً بحمل الصليب ثم ثقبوا يديه ورجليه عليه ولم يبقوا على شيء من الاهانات والشتائم الاَّ وانزلوه به كالبصاق في وجهه ولطمه ونتف شعر لحيته وعراه والسخرية به وهز رووسهم واضف الى ذلك البرد والعطش والتعب وخيانة تلميذ له فانما ذلك يمثل لنا البحر الذي انفجر على الارض ايام طوفان نوح وبعض هذه الشؤون من السماء ايضاً اي من قبل العدل الالهي اذ جعل من لم يعرف خطية ان يصير خطية من اجلنا (قرنتية ٢ ص ٥ عد ٢١) اي جعله يعاقب كانه نفس الخطية حتى اضطر ان يهتف الهي الهي لماذا تركتني كانه يقول لماذا تركتني فريسة للاوجاع واوجاع الجحيم احدقت بي كما تنبأ المرتل هذا مع معرفته بان المستفيدين من هذه الالام الذين يموتون مرضين لله ابيه هم قليلون وان اباه يبقى مسخطاً على كثيرين لاثامهم فلا ينتفعون بذبحه فيهم لكون فبالحقيقة اولادي انهُ لو حق لنا الارتياب بما صنعه ابن الله لاجلنا لما كان لنا وجه لهذا الارتياب الاَّ من قبل افراط المحبة التي عاملنا بها لكنه لا وجه لنا البتة لهذا الريب لان ما ذكرناه هنا هو من اخص عقائد ايماننا المصرحة في الكتاب المقدس ولان محبة الله تكون سامية كالله

هذا ما عمله واحتمله ابن الله حباً بنا فلننظر الان في ما عملناه حباً بهِ وبِمَ قابلنا محبته هذه المفرطة فليفحص كل منا ضميره فيرى انهُ يصح بهِ ما قيل كافوني بدل الخير شراً وبغضاً عوض حبي لهم نرى ان لذة

عابرة تنسينا كلما صنعه لاجلنا ونفضل الوصول اليها على مرضاته نرى شيئًا قليلاً من حطام الدنيا يحملنا طمعنا بهِ لا الى نسيان ما صنعه لاجلنا بل الى الاهانة لهُ ايضًا نرى ان حركة غضب تثور بنا تجعلنا نجدف على اسمه وان كنتم في ريب من ذلك فاخرجوا الى الازقة واسمعوا اي اسم يجدف عليه ويحلف بهِ كذبًا اكثر من اسم الله انفردوا في الزوايا قليلاً وابصروا من يهان اكثر من الله تجولوا في الاسواق قليلاً ولاحظوا معاطاة الكثيرين وكذبهم وطمعهم واقراض مالهم حتى للفقرآء بافحش الربا ادخلوا البيوت وانظروا ما يرتكب فيها ولاحظوا ايضًا اهمال الوالدين اولادهم دون تربية ودون تعليمهم خوف الله وارشادهم الى تقويم افعالهم كما تقتضي محبة المسيح لهم وليتهم لم يكونوا لهم مثالاً للشر ادخلوا الكنائس وانظروا ما اقل المثابرين على عبادة الله فيها وقلة المتناولين الاسرار والمشتركين بفوائد الذبيحة الدموية والغير الدموية وتجدون ايضًا من لم يعترفوا ولم يتقدموا الى الاشتراك بالذبيحة الغير الدموية منذ سنين وليتكم لا ترون من يتقدم الى مائدة الرب بالريا او دون استحقاق او استعداد كما ينبغي فياكل ويشرب دينونة لنفسه اذ لم يميز جسد الرب

آمَا يعلم هولآء جميعًا انهم باثامهم المميتة يصلبون ابن الله ثانيةً في ذواتهم كما يقول الرسول وقوله ثانية لا يراد بهِ المرة الاولى وقوله في ذواتهم ينفي ان يكون المراد بذلك صلبه على الجلجلة وصلب هولآء لهُ في ذواتهم شر واشنع من صلب اليهود لهُ لاوجه . الاول ان المخلص عندما صلبه اليهود كان يريد الصلب والان يمقته . والثاني ان الصلب

على الجلجلة كان محتوماً بهِ من الاب وتجديد صلب الخطاة لهُ ينتقم الاب منهُ . الثالث ان ذلك الصلب خلص العالم وهذا يهلك من يجسر عليه . الرابع ان في ذلك الصلب كان المسيح قابلاً الالام والان هو في المجد . الخامس ان اليهود لم يكونوا يعرفونه كما تعرفه انت أهذه هي المكافاة او هذا هو عرفان الجميل وهكذا تبادي من ضحى حياته لاجلك وقدم لك جسده ودمه لتتناول وتتحد بهِ كلما شئت مالي اقول هذا أهذا ما يقتضيه خلاصك أهذا ما تذخره الى الاخرة أهذا ما يستلزمه تعقلك وأنسانيتك وتمدنك فانتبهوا انتبهوا اولادي الى هذا الفرق الكبير بين ما صنعه المخلص حباً بنا وما نصنعه بغضة بهِ واهانة لهُ انتبهوا الى ان اغفالكم هذا عن مكافاة حبه بل مقاومة ارادته في خلاصكم يلقي بكم اخيرًا الى دركات الجحيم وتخسرون نفوسكم وكل مفاعيل الذبيحة الدموية والغير الدموية لاجلكم ويكون كلما صنعه الله من العناية بنفوسكم بايجاد كهنة وذبائح ووسائل للخلاص آئلاً لزيادة عذابكم في الجحيم نجانا الله وإياكم جميعاً والعالم كله منهُ باستحقاقات سيدنا يسوع المسيح وبنعمة الاب الخ



* تنبيــه *

لما كانت الخطبة في سر الاوخارستيا التي يشير سيادة المؤلف اليها في الموعظة السابقة من جملة خطبه التي لم تطبع بعد اثرنا ضمها الى هذه المواعظ تعميمًا للفائدة منها ولالتحامها مع كلامه في الموعظة السالفة بل لاسناده بعض البرهانات اليها

الموعظة الثامنة

* القاها في ٤ حزيران سنة ١٨٧٤ الواقع فيهِ عيد القربان الاقدس *

في وجود جسد المسيح ودمه حقيقة في سر الاوخارستيا

جسدي ماكل حقًا ودمي مشرب حقًا . يوحنا ص ٦ عد ٥٥

ليس اشكال بان مادة كلامي ستكون في هذا النهار في سر القربان الاقدس سر وجود جسد سيدنا يسوع المسيح ودمه حقيقة تحت اعراض الخبز والخمر في الاوخارستيا فاية مادة اولى من هذه بالكلام عليها في هذا النهار الذي نعيد بهِ لهذا السر العجيب ونزيح فيهِ جسد مخلصنا بما نقدر عليه من التكريم لتنازل مخلصنا المدهش والفائق طور العقول الذي بهِ تناهى حب الله لعبيده بل فات النهاية فان ابن الله صنع ثلثة اسرار كلها عجيب جدًا في فرط محبته للناس سر تأنسه وهو اله وسر الامه وموته من اجلهم وسر اعطاء جسده ودمه تحت اعراض الخبز

والخمر فنعم ان الاول اساس للثاني والثالث ومقدم عليها زمانًا ووضعًا الّا ان الثاني اكثر اظهارًا للمحبة من الاول والثالث قد تفاوت الغلو والاغراق في المحبة في الاول ظهر الاله في جسد بشري متحدًا بهِ وفي الثاني مات حبًّا بالناس بيد صالبيه واما في الثالث فيكرر موته واراقة دمه كل يوم للشفاعة بهم ويخفي نفسه تحت اعراض الخبز والخمر لينتعموا بذبيحته الغير الدموية في الاول رافق الاله الانسان بالانسانية ووجد في الشكل مثل البشر وفي الثاني مات من اجلهم دفعة واحدة واما في الثالث فيكرر ذبح نفسه (وان بنوع غير دموي) كل يوم ليقيت الناس بجسده والانسان افضل من القوت فيالمحبة ففي هذا السر العجيب يكون كلامي الان على عادتي السالفة بان يكون بعض كلامي اعتقاديًّا غايته تقوية الايمان في قلوب المومنين والمدافعة عنه من تمويهات المضادين ورد الضالين اليه وبعضه عمليًّا يلاحظ الاعمال الصالحة وما يتوجب لله على عبيده ولذا تكون خطبتي الان منقسمة الى ثلاثة اقسام اثبت في اولها على وجه الاستقامة وجود جسد المسيح المقدس ودمه الطاهر تحت اعراض الخبز والخمر بعد تقديسها بايراد الشواهد المبني عليها اعتقادنا هذا واثبت ذلك في ثانيها على غير الاستقامة اي برد اعتراضات من يخالفوننا في هذه الحقيقة ليكون كلامي اكثر تأييدًا لها وابين في القسم الثالث عظم محبة المخلص لنا بهذا السر ووجوب مكافاة الحب بالحب والابتعاد عن مباداة الاحسان بالاساءة وانوسل الان الى روح القدس ليمنحني واياكم نعمة التنوير ليمكني ان اعبّر بقدر الامكان عن

حقيقة هذا السر ومحبة الله لنا بهِ ولتفهموا كلامي وتحصل منه الفائدة المطلوبة

القسم الاول

ان هذه العقيدة الدينية اي حقيقة وجود جسد مخلصنا ودمه المقدسين في القربان الاقدس استمرت الكنيسة كلها شرقًا وغربًا تعتقدها منذ ابدع المخلص هذا السر الى القرن الحادي عشر دون مقاوم ولا مخالف مع وجود كثير من الاراطقة والمشاقين الذين خالفوا الكنيسة في عقائد اخرى غير هذه واول من انكر الحقيقة التي نحن لها مثبتون بارنغاريوس من طور في مملكة افرنسا الاَّ انهُ ارعوى عن تعليمه قبل موته في مدينة بوردو وتوفاه الله اخيرًا وهو على المذهب الكاثوليكي ولكن لحق بتعليمه الالبيجازيون وجدد هذا الضلال بعض المحدثين في الجيل السادس عشر ولكن لم يتفق كلهم على انكاره لان بعضهم انكره مطلقًا وبعضهم سلَّم انهُ يوجد تحت اعراض الخبز والخمر جوهرها مع جوهر جسد المسيح ودمه سوية ومن جملة هولآء الاخرين كان لوتاروس المشهور قوله بان جسد المسيح في الخبز ومع الخبز كالنار في الحديد المحمى وهوذا برهانات هذه الحقيقة خلافًا لهم جميعهم

الاَّ اني افترض في اثباتي هذه الحقيقة اني اخطب في اناس نصارى يعتقدون الوحي الالهي والكتاب المقدس ولذا لا يلزمني ان ابتدي من الف العقائد مقيمًا البرهان على الوحي ولزومه وصحته ولمَّا

كانت هذه الحقيقة فائقة طور العقول ولم يكن ليخطر على قلب بشر ان يطلب جسد المسيح لياكله فلم يكن لها برهان عقلي محض بل برهاناتها لاهوتية موسسة على الوحي والتقليد الرسولي

ولناخذ بالبرهان ان من عادة المخلص ان ينبه افكار رسله وتلاميذه الى الاسرار الاكثر اعتبارًا التي يكون جزم على ابداعها او عملها كما نراه انبأ تلاميذه بموته وقيامته وصعوده وارساله الروح القدس اليهم قبل اوقاتها ليعدّ نفوسهم للايمان بها وكذا نراه صنع بالنظر الى الاوخارستيا الاعجوبة نعمته الفائقة والسرّ العجيب المدهش فقد ذكر متى ومرقس ولوقا ابداع المخلص هذا السرّ الّا انهم لم يذكروا انبأ المخلص تلاميذه بهِ قبل حينه لكن مار يوحنا الانجيلي على فووقه بالمحبة للمخلص لم يذكر ابداع الاوخارستيا اكتفاءً بما ذكره الانجيليون الثلثة الباقون وتصدى لذكر الانباء بهذا السرّ والوعد بهِ في الاصحاح السادس من بشارته الانجيلية على الاقل من عد ٥١ وصاعدًا فنبرهن اولاً هذه الحقيقة من كلام مار يوحنا الرسول في الاصحاح المذكور الملاحظ وعده باعطا جسده لناكله واثباته ان جسده ماكل حقًا ودمه مشرب حقًا ثم نبرهن ذلك من كلام الانجيليين الثلاثة في ابداع هذا السر ثم من كلام مار بولس الرسول على هذا السر المقدس ثم من تعليم الكنيسة وعملها في كل جيل

ان مار يوحنا الحبيب بعد ذكره في الاصحاح المذكور اعجوبة المخلص في تكثير الخبز روى كلامه في سرّ الاوخارستيا بالفاظ صريحة

نابى كل تاويل فانه استطرد من الكلام على الخبز المادي الى الكلام على الخبز الروحي قائلاً عد ٢٧ اعملوا لا الطعام الزائل بل الطعام الباقي للحيوة الابدية الذي يعطيكموه ابن البشر وانتقل من هذا الكلام العام الى الكلام الخاص في خبز جسده بقوله عد ٥٢ « والخبز الذي ساعطيه انا هو جسدي الذي اعطيه من اجل حياة العالم » فاي كلام اوضح من هذا « الخبز الذي ساعطيه انا هو جسدي » وقد فهمه اليهود بمعنى انه يعطيهم جسده لياكلوه اذ روى الانجيلي عد ٥٢ « فخاصم اليهود احدهم الاخر قائلين كيف يمكن هذا ان يعطينا جسده لناكله » ولو لم يفهموا المعنى بحقيقته لما كان محل لمخاصمة احدهم الاخر ولتعجبهم ولو كان المعنى غير ما فهموا لاوضحه لهم المسيح لا محالة لئلا يتركهم على الضلال بفهم كلامه بغير معناه كما نراه صنع مرات معهم واما هنا فاثبت رايهم مزيداً اياهم بهِ تايداً اذ روى الانجيلي عد ٥٤ « قال لهم يسوع الحق الحق اقول لكم ان لم تاكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فليست لكم حيوة في ذاتكم » وليس هذا فقط بل انه في جوابه لهم يامرهم امراً بما كان ذكره في كلامه السابق خبرياً ويتهددهم بانهم لا تكون لهم حيوة في ذاتهم ان لم ياكلوا جسده ويشربوا دمه كما رايت في قوله السابق ثم يعدهم بالثواب واي ثواب لمن يتمم امره بتناوله جسده ودمه اذ قال في العدد التابع « من ياكل من جسدي ويشرب من دمي فله الحيوة الابدية وانا اقيمه في اليوم الاخير » واردف ذلك لزيادة التاكيد والتحقيق ونفي كل شبهة والتباس بقوله الذي استهللت بهِ « لان جسدي ماكل حقاً

ودمي مشرب حقًا ومن ياكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وانا فيه"
فبعد قوله جسدي ماكل حقًا ودمي مشرب حقًا من يجسر ان يقول
ان ليس في الاوخارستيا جسده ودمه او ان يقول ان جسده ماكل
ودمه مشرب صورةً او مثالاً او بركة كما يزعم اخصامنا في هذه الحقيقة
التي ما زال المخلص يكرّر تاكيده لها باساليب مختلفة اذ روى الانجيلي
انهُ قال بعد ذلك "فمن ياكلني فانهُ يحيا من اجلي هذا هو الخبز
الذي نزل من السمآء لا كالمن الذي اكلهُ اباؤكم وماتوا من ياكل من
هذا الخبز يحيا الى الابد" وزاد الانجيلي ذلك توكيدًا بقوله عد٥٩
"هذا قاله في المجمع وهو يعلم في كفرناحوم" فكانه يقول ان المخلص
قال هذا لا سرًّا ولا في الزوايا بل جهرة في المجمع امام الكهنة والكتبة
والشعب والجمع يشهد به ثم قوله وهو يعلم كانهُ يقول بهِ ان يسوع
قال هذا بمنزلة معلم للشعب ولا يسوغ ان يكون التعليم ملتبسًا

هذا وان الرسل انفسهم فهموا ان المعنى الحقيقي هو انه يعطيهم
جسده لياكلوه كما هو ظاهر من قوله عد٦٠ "وكثير من تلاميذه لما
سمعوا قالوا هذه الكلمة قاسية من يمكنه استماعها اي من يمكنه او من
يجسر ان ياكل لحم سيده او جسده فاذًا عرفوا ان المراد اكل جسده حقيقة
الّا انهم اشتبهوا في طريقة التوصل اليه اي كيف يعطون لحمًا بشريًّا
لياكلوه كما بين هذا بقوله (عد ٦١) "وعرف يسوع ان تلاميذه
يتخامرون لهذا" فازال شكهم وريبهم في طريقة ذلك مبينًا لهم انه اله
على كل شيء قدير وقد نزل من السمآء وسيصعد اليها وبالتالي لا يعسر

عليه ان يعطي جسده ودمه بطريقة اخفاء جوهرها تحت اعراض الخبز والخمر اذ روى الانجيلي انهُ « قال لهم هذا يشككم فكيف اذاً ان رايتم ابن البشر يصعد الى حيث كان اولاً » كانهُ يقول الا تزدادون حينئذٍ تاكيدًا اني اله وهل تعودون تشكون باني قدير على هذا اي على ان اعطي جسدي ودمي تحت اعراض الخبز والخمر للناس لياكلوه او المعنى على ما فسّر ملدوناتوس ان كان يشككم اكل جسدي وانا حاضر بينكم بالجسد فكم يشككم اكل جسدي وانا بعيد عنكم في السماء لكن ثقوا باني اله على كل شيء قدير وليس في قصدي اطعامكم جسدي كما يباع اللحم في المجزر بل اني اخفي جوهره واحجبه تحت اعراض الخبز والخمر التي تتناولونها ولا ينبغي فهم كلامي بمعنى كثيف بل بمعنى روحي اي لا ينبغي ان تفهموا كلامي بمعنى انكم تاكلون لحمي كلحم الضان بل بمعنى انكم تاكلون جوهر جسدي وتشربون جوهر دمي تحت اعراض الخبز والخمر فاللحم اي الجسد وحده من حيث هو لحم او جسد لا يفيد شيئًا بل الافادة بالروح المتحدة باللاهوت وجوهر الجسد والدم وهذا معنى قوله عد ٦٣ « ان الروح هو الذي يحيي والجسد لا يفيد شيئًا ان الكلام الذي كلمتكم بهِ هو روح وهو حيوة » وقد فسّر هذه الاية القديس كيرلّوس وغيره بان المعنى كانه يقول ان جسدي وحده لا يفيد في حفظ من ياكله للحيوة الابدية فان الجسد بتجرده عن الروح لا يمنح الحيوة والقيامة بل الروح اي لاهوتي المتحد بالجسد يحيي النفس والجسد كما يقال بهذا المعنى ان العين لا تنظر والاذن لا تسمع بل الروح اي النفس هي التي

تنظر بالعين وتسمع بالاذن . وفسّر فم الذهب وغيره ان المخلص لما كان يجيب اهل كفرناحوم ايضاً الذين تذمروا لقوله انهُ يطعمهم جسده مظنين انهم ياكلونه كلحم الثيران اراد المسيح بالجسد الفهم الجسدي فكانه يقول ان فهمكم الجسدي الذي تظنون بهِ انكم تقطعون جسدي وتاكلونه كلحم الضان لا يفيد شيئاً في الحيوة الابدية بل الروح اي الفهم الروحي الذي تفهمون بهِ انكم تاكلون جسدي متحداً بلاهوتي في تناولكم اعراض الخبز والخمر هو الذي يحيي النفس والجسد ولذا قال ان ماكلمهم بهِ هو روح وحيوة فهو روح يعني يلزم فهمه بنوع روحي وسري وحيوة يعني يمنح الحيوة لمتناوليه فيكون ذلك على حد قول الرسول (قرنتية ٢ ص ٣ عد ٦) " الحرف يقتل والروح يحيي " وقول المخلص (متى ص ١٦ عد ١٧) " لا جسد ولا دم اوحى اليك ذلك وقوله (يوحنا ص ٣ عد ١) المولود من الروح هو الروح والمولود من الجسد هو الجسد "

ويجمل بنا هنا ان نورد كلمات القديس اغوسطينوس (في مقالة ٢٧ في يوحنا) في تفسير هذه الاية حيث قال " ياربي يا ايها المعلم الصالح كيف تقول ان الجسد لا يفيد شيئاً وانت القائل من لا ياكل جسدي ويشرب دمي ليس له حيوة في ذاته فهل الحيوة لا تفيد شيئاً ولاية غاية نوجد نحن الاَّ لتكون لنا الحيوة الابدية التي تعد بها من يتناولون جسدك فما معنى قولك اذاً ان الجسد لا يفيد شيئاً المعنى انهُ لا يفيد شيئاً كما فهموا هم اي انهم فهموا الجسد كما يقطع من الجثة او يباع في المجزر لا كما هو حيٌّ بالروح ولهذا قيل ان الجسد لا يفيد شيئاً كما قيل

ان العلم ينفخ فهل يلزمنا اذاً ان نحتقر العلم ونشناه حاشا فما المعنى اذاً بالقول العلم ينفخ فالمعنى بهِ العلم وحده دون المحبة والود ولهذا اعقب قوله بقوله والود يبني فاضف اذاً المحبة الى العلم فيكون العلم نافعاً لا بنفسه بل بالمحبة وهكذا يقال هنا ان الجسد لا يفيد شيئاً الاَّ ان المعنى بهِ الجسد وحده فاذا اضيف الروح الى الجسد كما تضاف المحبة الى العلم فيفيد كثيراً لانهُ لو كان الجسد لا يفيد شيئاً لما صار الكلمة جسداً وحل فينا ››

انهُ من القواعد المسلَّم بها في تفسير الكتاب المقدس انهُ لا يُعدل عن المعنى الظاهر والحقيقي الى معنى مجازي الاَّ لمانع كبير كالتناقض بين آيتين او استحالة حمل الاية على معناها الظاهر والاَّ فلا تبقى اية في الكتاب على حقيقتها وكان يمكن تاول قول المسيح انا هو جواباً لقايافا عظيم الكهنة اذ سالهُ قائلاً آنت هو المسيح ابن الله المبارك (مرقس ص ١٤ عد ٦٣) الى غير ذلك من الايات الواضحة واذا كان الامر كذلك فكيف يمكن تخريج جميع الايات الصريحة التي اوردناها هنا من قول المخلص جسدي ماكل حقاً ودمي مشرب حقاً وقوله الخبز الذي انا ساعطيه هو جسدي الى اخر ما اوردناه من هذه الايات فاية عقيدة من عقائد الايمان مصرَّح بها اكثر من هذه وليقل لنا من يخالفوننا بهذه العقيدة اية الفاظ كان يمكن للمخلص ان يستعملها لايضاح هذه الحقيقة اصرح من قوله جسدي ماكل حقا ودمي مشرب حقاً ولماذا نعدل عن معنى كل هذه الايات الحرفي والظاهر الى معنى مجازي اي الى معنى اننا

تتناوله بالصورة او البركة او ان المراد باكل جسده ودمه الايمان بهِ وماذا نصنع بايات ابداع هذا السر الاتي ذكرها

قد روى ماري متى الانجيلي في ص ٢٦ عد ٢٦ ابداع المخلص سر الاوخارستيا العجيب بقوله ان المخلص بعد اكماله تناول الخروف الفصحي وشرب كاس الفصح «واخذ يسوع خبزًا وبارك وكسر واعطى تلاميذه قائلاً خذوا فكلوا هذا هو جسدي واخذ كاسًا وشكر واعطاهم قائلاً خذوا اشربوا منه كلكم هذا هو دمي العهد الجديد الذي يسفك عن الكثيرين لغفران الخطايا» وروى مرقس (ص ١٤ عد ٢٢) «واخذ يسوع خبزًا وبارك وكسر واعطاهم قائلاً لهم هذا هو جسدي واخذ كاسًا وشكر وبارك واعطاهم فشربوا منها كلهم وقال لهم هذا هو دمي سر العهد الجديد الذي يسفك من اجل الكثيرين» ولوقا ص ٢٢ عد ١٩ «واخذ خبزًا وشكر وكسر واعطاهم قائلاً هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم تكونون تصنعون هذا لذكري وهكذا ايضًا قال على الكاس ... هذه الكاس هي العهد الجديد بدمي التي تراق من اجلكم اي ان المخلص اكمل حينئذٍ وعده الذي ذكره مار يوحنا باعطاء جسده ماكلاً حقًا ودمه مشربًا حقًا لتلاميذه ثم لكنيسته وكانهُ يقول هذا الذي في يدي هذا الذي اقدمه لكم لتاكلوه والذي هو تحت شكل الخبز هو جسدي نفسه الذي يبذل عنكم والذي يسلم الى الموت ويعلق على الصليب وهكذا في كلمات تقديس الكاس فكانه يقول اشربوا من هذه الكاس لان الذي فيها والذي اقدمه لكم لتشربوه والذي هو تحت شكل

الخمر هو دمي نفسه الذي يراق لمغفرة الخطايا والذي به يثبت ويتأيد العهد الجديد فنسال من ينكرون هذه الحقيقة هل المخلص قادر ان يجعل جسده ودمه تحت اعراض الخبز والخمر او لا فيجيبون انهُ قدير عليه مهما شآء الرب صنع في السمآء والارض وليس عند الله امر عسير ولكنه ربما لم يشأ ان يفعل ذلك فنقول لو شآء ان يفعله فاي كلام اصرح من هذا في الدلالة على ارادته اذ قال بعد اخذه الخبز ومباركته هذا هو جسدي وبعد تناوله الكاس والشكر عليها هذا هو دمي العهد الجديد الذي يهرق عن كثيرين فان كلامه واضح يابى كل تاويل الاَّ انهُ اعطى تلاميذه تحت اعراض الخبز جسده وتحت اعراض الخمر دمه وامرهم ان يصنعوا كذلك الى حين مجيئه فيقولون ان هذا كلام مجازي فنقول نحن اذاً ليس كلام حقيقي في الكتاب اذ يمنعنا من حمل هذا الكلام على المعنى المجازي اولاً وضوحه والقاعدة المنوه بها اعلاه في تفسير الكتاب المقدس . ثانياً القوة التي للالفاظ خاصة في النسخة اليونانية فان قوتها هذا هو دمي ذاك في ذاك العهد الجديد ذاك الذي يراق . ثالثاً قرائن الحال المرافقة هذا الكلام لان المسيح يعقد عهداً جديداً مع كنيسته في ذلك المسآء ويبدع سرًّا دائماً الى منتهى العالم فلو استعمل في هذه الحال كلاماً مجازيًّا لافضى الى مخادعة كبرى ومكر بتلاميذه وبالمومنين وبالكنيسة كلها (تنزه الله عن ذلك) وخاصة اذ لم يستدرك كلامه هذا بتفسير او ايضاح لغير المعنى الظاهر منه ظهور الشمس . رابعاً الصعوبة في حمل كلامه على معنى مجازي حتى ان

البروتسطنت الذين ينكرون هذه الحقيقة غيروا بهذا المعنى مائتي تفسير
من سنة ١٥٧٠ الى الان ولم يتفق رايهم على معنى يخرجون به هذه الايات
عن معناها الحقيقي ولذلك اضمحلت هذه الآراء ولا ترى فيها الى الان
تفسيرًا راهنًا . خامسًا من اتفاق الانجيليين الثلثة على ايرادهم جميعًا قول
المخلص بمعنى واحد وكانه بالفاظ واحدة دون اشارة من احدهم الى ان
المعنى مجازي لا حقيقي وزد على ذلك انك لا ترى في سائر كتب العهد
الجديد اشارة الى ان معنى كلمات ابداع الاوخارستيا مجازي فكيف
يمكن ان يكون ذلك كله لولا ان الكلام المروي هو حقيقة وليجبنا
الابروتسطنت باية واحدة نثبت كون كلامه مجازيًا ليدفعوا كل ما
نورده نحن من الايات الصريحة . سادسًا ما من ناكر ان الالفاظ التي
تذاع بها الشرائع يلزم ان تكون واضحة وان تفهم بمعناها المألوف والحرفي
لتكون الشرائع واضحة ولا يكون محل بها للّبس او التاويل والكلوينيون
نفسهم يقرون بان الشرائع الالهية في كلا العهدين اوردت بالفاظ واضحة
ويلزم فهمها بمعناها الخاص والحرفي والحال ان المسيح عند ابداعه
الاوخارستيا سنّ شريعة تمارسها الكنيسة دائمًا اذ قال اصنعوا هذا
لذكري فاذًا الكلمات التي قيلت في الاوخارستيا يلزم فهمها بمعناها
الحقيقي والحرفي لا بمعنى مجازي وايضًا ليس من ينكر ان الوصايا التي
تبين بها الارادة الاخيرة يلزم ان تكون جلية واضحة عرية عن الالتباس
والكلام المجازي والاستعاري لئلا تنشأ الخصومات بسببها ومن قواعد
الناموس وجميع المحاكم ان تفهم كلمات الموصي بمعناها الحرفي والحال ان

كلام المسيح في العشاء الاخير وابداعه الاوخارستيا عند آخر حياته على الارض كان بمنزلة وصية ترك لنا بها جسده ودمه تحت اعراض الخبز والخمر وعبر عن ذلك بعهدٍ بينه وبين الكنيسة الى نهاية العالم اذ قال هذه الكاس هي العهد الجديد بدمي وكلمات العهد نفسه ينبغي فهمها بمعناها الحرفي والحقيقي فاذًا كلامه في سر الاوخارستيا كان كذلك اي بمعناه الحرفي والحقيقي ولاسبيل الى المجاز فيهِ والحاصل انهُ لامحل للريب بان المخلص بقوله هذا هو جسدي وهذا هو دمي قد اوضح ان جسده ودمه موجودان حقيقة تحت اعراض الخبز والخمر وناولهما لرسله فتناولوا جسده ودمه حقيقة وامرهم ان يصنعوا هذا لذكره فصنعوا ولم تزل الكهنة تصنعه الى الان

ولننظر الان كيف فهم الرسل كلام المخلص في ابداع الاوخارستيا وكيف عملوا وعلموا الكنيسة بعده ونكتفي بهذا الشان بايراد كلام مار بولس الرسول في رسالته الاولى الى اهل قرنتية فانه قال (في ص ١٠ عد١٦) «فكاس الشكر التي نباركها اليست هي شركة في دم المسيح والخبز الذي نكسره اليس هو شركة في جسد المسيح وكما ان ذلك الخبز واحد هكذا نحن كلنا جسد واحد لاننا كلنا نتناول من ذلك الخبز الواحد» فهل اوضح في هذه الايات في الدلالة على ان الرسل والمومنين بعد موت المخلص كانوا يمارسون سرّ الاوخارستيا في تقديس الخبز والخمر وتناولهم لهما معتقدين ان فيهما جسد المسيح ودمه وانهم يشتركون بهما نعم انه يوجد اوضح من ذلك وهو قول هذا الرسول في ص ١١

من هذه الرسالة عد ٢٣ وما يليه وهو «لان ما تسلمت من الرب قد سلمته اليكم ان ربنا يسوع المسيح في تلك الليلة التي أُسلم فيها اخذ خبزًا وبارك وكسر وقال خذوا فكلوا هذا هو جسدي الذي يكسر لاجلكم افعلوا هذا لذكري وعلى مثال ذلك بعد ان تعشوا ناول الكاس وقال هذه الكاس هي العهد الجديد بدمي فافعلوا هذا كلما شربتم لذكري ... فان من ياكل خبز ربنا ويشرب من كاسه وهو لا يستحقه فانه يذنب الى دم ربنا وجسده فمن اجل هذا فليمتحن الانسان نفسه وحينئذٍ ياكل من هذا الخبز ويشرب من هذه الكاس لان من ياكل ويشرب منه وهو لا يستحقه فياكل ويشرب دينونة لنفسه اذ لم يميز جسد الرب» فلمَ امتحان الانسان نفسه قبل الاكل ولمَ يذنب الى دم ربنا وجسده من تناولها دون استحقاق ولمَ ياكل ويشرب دينونة لنفسه من ياكل ويشرب دون استحقاق ايضًا لو لم يكن هناك جسد ربنا ودمه حقيقة وهو لم يميز جسد الرب عن باقي الاطعمة وان لم يكن هناك الّا صورة جسد الرب ودمه او مثال لها فلمَ الحكم بالذنب والهلاك على من يتناول منها وهو غير مستحق ولو فرضنا مجاراةً كلام الانجيليين المشار اليه انفًا مجازيًا فماذا نصنع بكلام الرسول هنا وهل يخطر على بال احد ان مار بولس يخالف هنا ما ورد في الانجيل لا لعمري فاذًا لا مناص البتة من الاعتقاد بان في الاوخارستيا جسد المسيح ودمه حقيقة . واما تعبير الرسول عن ذلك بكلمة خبز وكاس فليس من يشك بانهُ محمول على الظاهر الذي هو خبز وخمر وعلى ما كانا عليه قبل التقديس

وبالنسبة الى الاعراض وقد ورد مثل ذلك في الكتاب المقدس مرات منها ما قيل في ماء قانا المستحيل الى خمر « فلما ذاق رئيس التكاة ذلك الماء » مع انهُ كان قد استحال خمرًا فسماه ماء ومنها قوله فابتلعت عصا هرون عصيهم (خروج ص ٧ عد ١٢) مع انها كانت قبلاً عصا فاستحالت افعى وهذا مستفيض في الكتاب المقدس وغيره ويسمى تسمية الشيء باسم ما كان عليه هذا وان قول مار بولس فكاس الشكر التي نباركها اليست هي شركة في دم المسيح بالاستفهام يدل دلالة واضحة على ان كلامه في شيء معلوم عند الجميع ومسلم بهِ فاذًا كان المومنون يعلمون ويعتقدون ان في الاوخارستيا جسد المسيح ودمه حقيقةً : ولننظر الان كيف فهم المومنون وآباء الكنيسة كلام المسيح بعد الرسل وما كان علمهم واعتقادهم في سر الاوخارستيا

اذا اردنا ان نورد كلما قاله اباء الكنيسة وعلمته مجامعها في شان الاوخارستيا احتاج الامر الى مجلدات لا الى خطب ولذا اكتفي بايراد شيء يسير على سبيل المثال من اقوال اباء الكنيسة في الاجيال الاولى قال القديس اغناطيوس الكبير في رسالته الى الرومانيين عد ٧ « لا افرح بالقوت الفاسد ولا بملاذ هذه الحيوة اريد خبز الله الذي هو جسد يسوع المسيح المولود من نسل داود وابتغي مشربًا دمه الطاهر » وقال تلاميذ القديس اندراوس اي كهنة اخائيا في رسالتهم في استشهاد هذا الرسول ان من كلامه « انا اقدس في كل يوم واقدم ذبيحة الخروف الذي لا عيب فيهِ لله القادر على كل شيء ... الذي بعد ان

يكون ذبح حقيقة وتناول الشعب جسده حقيقة فيبقى كاملاً " وقال القديس ايريناوس في كتابه الرابع ضد الاراطقة عد ٦٦ في بعض الاراطقة الذين كانوا ينكرون ان المسيح هو ابن الله الخالق " كيف يظهر لهم ان ذلك الخبز الذي تقدس هو جسد الرب وان الكاس هي كاس دمه اذا كانوا لا يقولون انهُ ابن الله خالق العالم " وقال ضد هولآء في الراس الثامن عشر ليبرهن ردًا عليهم قيامة الاجساد " وكيف يقولون ايضًا ان الجسد يعود للفساد دون ان ينظروا الى الحيوة التي يقيتها جسد الرب ودمه " وقال ترتوليانوس في كتابه في قيامة الاجساد راس ٨ " ان الجسد يتناول جسد المسيح ودمهُ كما تقتات النفس ايضًا بالله " وقال اوريجانوس في خطبته السابعة عد ٣ " كان قبلاً المن قوتًا بالرمز او باللغز . واما الان فجسد كلمة الله صار قوتًا حقيقيًا كما قال لان جسدي ماكل حقًا " فكل هولآء الاباء كانوا في الاجيال الثلثة الاولى واوجزنا كثيرًا في ذكر العبارات الموردة عنهم واهملنا ذكر اقوال كثيرين غيرهم

ومن كلام اباء الجيل الرابع نذكر ما قالهُ اوسابيوس القيصاري كما روى يوحنا الدمشقي في الكتاب الثالث " ان الكثيرين من الخطاة مع كونهم كهنة يصنعون التقدسيات ولا يضادّهم الله فان التقدمات تتقدس بواسطة الروح القدس ويصير الخبز جسد الرب الثمين والكاس دمه الكريم " وقال القديس ايلاريوس في الكتاب الثامن في الثالوث " لذا كان الكلمة صار جسدًا حقيقة ونحن نتناول جسد الكلمة حقيقة في القوت

الرباني فكيف لا نعتبر انه يثبت فينا طبعاً من اخذ طبع جسدنا ولا ينفصل عنه اذ ولد انساناً واقرن طبع جسده مع طبع اللاهوت في سرّ اشتراكنا في جسده ولهذا نحن جميعنا واحد لان الاب في المسيح والمسيح فينا . . . لا نتكلم بنوع بشري او بمعنى عالمي في امور الله لان المسيح نفسه قال لان جسدي ماكل حقاً ودمي مشربٌ حقّاً فلم يبقَ محل للبس او التردّد في حقيقة جسد المسيح ودمه ” وقال القديس كيرلوس الاورشليمي في التعليم ٢٢ بعد ان اورد كلمات ابداع المخلص الاوخارستيا ” فاذاً اذ قال هو عن الخبز هذا هو جسدي فمن يجسر ان يرتاب او يتردد بعد ذلك واذ قال هو نفسهُ مكرراً هذا هو دمي فمن يرتاب او يقول ان ذلك ليس بدمهِ ” والقديس باسيليوس اورد عليهِ سوال باي خوفٍ وباي ايمان يلزم ان نتناول جسد المسيح ودمهُ فاجاب ” اما الخوف فعلمناه الرسول اذ قال من ياكل ويشرب دون استحقاق فياكل ويشرب دينونة لنفسهِ . واما الايمان فمن ايقاننا بقول الله هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم اصنعوا هذا لذكري ” ومن الجيل الخامس القديس يوحنا فم الذهب في خطبة ٨٣ في بشارة متى ” تامل اي غضب تغضب على من سلم المسيح وعلى من صلبوهُ فاحذر اذاً لئلا تكون انت مذنباً الى جسد المسيح ودمه فاولئك اماتوا الجسد المقدس وانت تقبله بعد كل هذه الاحسانات بنفس مدنسة . . . فاية طهارة اذاً تقتضي لمن يتنعم بهذه الذبيحة . . . تامل اي شرف حصلت عليهِ واية مائدة تتنعم بها فما ترتعد الملائكة من النظر اليهِ ولا يجسرون ان يروهُ دون خوف للضياء

المنبعث منهُ فهذا ما نقتات نحن بهِ وما نتحد معهُ " ومن الجيل السادس وما يليه نذكر القديس غريغوريوس الكبير الذي قال في خطبة ١٤ في الاناجيل " ان الراعي الصالح بذل نفسهُ عن خرافه ليجعل في السرّ جسده ودمهُ الى جسدنا ويشبع خرافهُ التي افتداها بقوت جسده " وقال القديس ايسيدورس في كتابهِ الاول في الفروض " الخبز الذي نكسره هو جسد المسيح الذي قال انا هو خبز الحيوة الذي نزل من السماء والخمر هو دمه وهذان الاثنان (اي الخبز والخمر) هما محسوسان ولكن اذا تقدسا بالروح القدس استحالا الى سر جسده الالهي " وقال القديس يوحنا الدمشقي في الكتاب الرابع في الايمان الارثودكسي راس ١٤ " اذا كانت كلمة الله حية وفاعلة وكلما شاء الرب صنع واذا كان قال فليكن النور فكان وليكن الجلد فكان واذا كانت تشددت السماوات بكلمة الله وجميع قوتها بروح فمه فهل لا يستطيع ان يجعل الخبز جسده والخمر والماء دمه " وقال القديس انسلموس في تفسيره رسالة قرنتية ١ ص ١١ مفسرًا قول المخلص هذا هو جسدي " كلوا ما اوزعه عليكم لان هذا هو جسدي ففي الحواس الخارجة يظهر انهُ خبز ولكن اعلموا في الحواس الداخلة ان هذا هو جسدي " ونكتفي بهذا القليل اختصارًا ومجانبة للملل

هذا ولنا بينات كثيرة وواضحة من مجامع الكنيسة العامة والخاصة ومن نوافير القداس القديمة المنسوب بعضها الى الرسل وحبًّا بالايجاز لا نورد منها الاّ قول المجمع الاسكندري في ايام القديس كيرللوس في

رسالة المجمع الى نسطور ،، فلنقترب الى البركات السرية ونقدس نفوسنا بهذا النوع لاننا نشترك بجسد المسيح المقدس ودمه الكريم لاننا لا نتناول ذلك الجسد كعامة القوت بل بما انهُ محيي حقيقة وبما انهُ جسد الكلمة نفسه ،، وقول المجمع النيقاوي الثاني في عمل ٦ ،، فاذاً قد ثبت واضحاً انهُ لم يقل الرب ولا الرسل ولا الاباء ان الذبيحة الغير الدموية التي يقدمها الكاهن هي صورة بل انها نفس جسد المسيح وذات دمهِ ،، وقول المجمع التريدنتيني جلسة ٢٣ قانون ١ ،، من انكر انهُ يوجد في سر الاوخارستيا الاقدس جسد سيدنا يسوع المسيح ودمه حقيقةً وجوهراً مع نفسه ولاهوته وبالجملة المسيح كله بل قال انهُ يوجد بهِ بمنزلة علامة او صورة او قوة فليكن محروماً ،، ومن نوافير القداس لا نذكر الا قول نافور كنيسة اورشليم المنسوب الى ماريعقوب الرسول ،، نسالك ان ياتي الروح القدس ويحل على هذه التقدمة المقدسة والمجيدة ويجعل هذا الخبز جسد المسيح المقدس وهذه الكاس دمه الكريم ليكون لمغفرة الخطايا لكل من يتناولون منهُ ،، ولنا ايضاً بينات لا ترد من عمل من انفصلوا عن الكنيسة ولم تزل منهم بقايا حتى الان ومع مخالفتهم لها في عقائد دينية فهم يوافقونها في اعتقادهم ان في الاوخارستيا جسد المسيح ودمه حقيقة ويقدسه كهنتهم نظير كهنتنا ومن هولاء اليعاقبة ومن اشبههم المنفصلين منذ الجيل الخامس والروم الذين انفصلوا منذ الجيل التاسع وكما تقدمنا فقلنا ان هذا الاعتقاد كان عاماً في كنائس المغرب والمشرق الى الجيل السادس عشر الذي انكر فيهِ الاراطقة المحدثون هذه الحقيقة ولكن

اتظنون اولادي ان الرسل والمسيحيين اجمع كانوا من ايام المخلص الى الجيل السادس عشر على ضلال وكانوا يقدمون لله عبادة وثنية وكان تعليم المسيح الحقيقي مخفيًا على كنيسته التي وعدها بان يكون معها كل الايام حتى انقضاء العالم ولم يكشف هذه الحقيقة المهمة مدة خمسة عشر جيلاً الى ان اوحى بها الى بعض اراطقة الجيل السادس عشر فقط فمن يصدق ذلك ومن يراه معقولاً لعمري انه لا يقول بهذا الا مخدوع او خادع ومع هذا فلننظر ما يعترضون به على هذه الحقيقة التي برهناها من وعد المسيح باعطاء جسده ومن انجاز وعده هذا بابداع الاوخارستيا ومن تعليم الرسل خاصة مار بولس للمومنين ومن اجماع الكنائس كلها عليها مدة خمسة عشر جيلاً ونرد هذه الاعتراضات كي لا يبقى مفر من الاقرار بهذه الحقيقة ولا مجال للمخالفين لها على مخادعتكم بشيء من التمويه

القسم الثاني

ان جل ما يعترضون به اولاً انه لا يمكن ان يوجد جسد واحد في امكنة كثيرة معًا والحال ان جسد المسيح الواحد يكون في وقت واحد بموجب المعتقد الكاثوليكي في محلات كثيرة اي في السماء والارض وفي كل ناحية منها بمقدار ما تكون الاجزاء المقدسة وهذا مستحيل وينطوي على تناقض بين. فنجيب على ذلك مقرين بانه لا يمكن بالقوى الطبيعية ان يوجد جسد واحد في محلات كثيرة معًا الا ان هذا ممكن بالقدرة الالهية القادرة على كل شيء لان من يمكنه ان ياتي من العدم الى الوجود

بما لم يكن موجوداً يمكنه ان يوجد ما هو موجود في محال كثيرة معاً وهذا ايسر من الاول وكما اننا لا ندرك بفهمنا القاصر كيف ينتقل الغير الموجود الى الوجود ومع ذلك لا ننكر قدرة الخالق هكذا اذا جهلنا النوع الذي يمكن بهِ وجود جسد واحد في محلات عديدة معاً لا يمكننا ان ننكر البتة ان الله يستطيع على ذلك فمن يفهم اولادي كيف يوجد الله الروح الكلي البساطة في كل مكان بل كيف لا يظهر التناقض لكل واحد في ان من خلا من كل امتداد يملأ السماء والارض ويكون كله في كل محل ومع هذا نعتقد جميعاً لا بقوة الوحي فقط بل بنور العقل وحده ايضاً ان الله موجود في كل مكان فكيف ننكر اذاً ان المخلص يمكن ان يوجد في محال كثيرة (لا في كل مكان لان الوجود في كل مكان يختص باللاهوت وحده) نظراً الى الناسوت لمجرد ان عقلنا المتناهي والمحدود لا يدرك النوع الذي تفعل بهِ هذه القدرة الالهية القادرة على كل شيء.

ان بين الخالق والخليقة بعداً غير متناهٍ ومع هذا لنا في الطبيعة المخلوقة ما يبين انهُ يمكن وجود شيء في محال مختلفة في وقت واحد فالتصور البشري مثلاً الذي يبلغه الصوت يكون كله في وقت واحد في عقل المتصور وكله في اذان ونفوس السامعين ولو الوفاً وهكذا النفس الناطقة توجد كلها في كل الجسد وكلها في كل جزء منه فاذاً لا منافاة في ان يكون جسد المسيح نفسه في اماكن كثيرة معاً فنحن نرى مستحيلاً ان نوجد في وقت واحد في محلين لانهُ لا يمكننا ان ننتقل من احدهما الى الآخر الا بالحركة ولدى الحركة من الضرورة ان نترك محلاً لنشغل غيره ولو

امكنا ان ننتقل من دون حركة الى المحل الاخر لما لزم ان نترك المحل الاول ولكن من ينكر ان الله يستطيع ان يوجد جسدًا في محل دون حركة اي دون تغيير المكان فان الله بالخلق جعل الاجسام المخلوقة باشارة ارادته ان توجد في مكان متحيز فاذًا يستطيع بامر ارادته بان يوجد الجسم الموجود اولاً في محلات متعددة فان ارادة الله فعّالة حتى تقدر ان توجد الموجودات التي تريدها وبالنوع الذي تريده والمكان الذي تختاره فاذًا لا صحة لقول المعترضين بان وجود جسد واحد في امكنة كثيرة معًا مستحيل على قدرة الله

يعترضون ثانيًا ان من التناقض البين ومن المستحيل ان يوجد جسم في مكان ولا يشغل فسحة المكان مع انهُ يوجد مع اجزآئه كلها لانهُ يكون دون امتداد والحال انهُ لا يمكن التسليم بهذا لان الامتداد من خواص الجسم التي لا تنفك عنه فاذًا لا يمكن التسليم بوجود جسد المسيح في برشانة صغيرة. والجواب ان المعترضين يتكلمون على ماهية الاجسام بحسب نظام الطبيعة المعتاد وبحسب الخواص الطبيعية التي لها والبحث هنا ليس بما يمكن ان يكون طبيعيًّا بل بما يستطيع الله ان يصنعه بما انهُ رب الخليقة والطبيعة اما نحن فنعلم ان ليس عند الله امر عسير وعليه يمكننا ان نجيب الكلوينيين بما اجاب بهِ مار اغوسطينوس الفلاسفة الوثنيين في مبحث كهذا (كتاب ٢١ في مدينة الله راس ٨) «كما لم يكن مستحيلاً ان يبدع الله ما اراد من الطبائع هكذا لا يكون مستحيلاً لديه ان يغيّر الطبائع التي خلقها في كل ما يشاء» ولا يستفيد المعترضون

شيئاً في اعتراضهم ما لم يبرهنوا انهُ يخص ذوات الاجسام ان تشغل مكاناً متحيزاً وان خواص الاجسام كالامتداد وقابلية التجزئة هي والذات شيء واحد والحال انهم لا يستطيعون على هذا والحكم بوجود التناقض بين شيئين يلزم ان يكون لمن يحكم بذلك معرفة جلية وتامة بكليهما ومن اين لنا المعرفة الجلية والتامة بذوات الاجسام وخواصها وجواهرها وكيف يقوم بعضها مع البعض ومن اين لنا مثل هذه المعرفة ايضاً بما يقدر الله على صنعه لنحكم بالتناقض لوجود جسد المسيح في برشانة صغيرة او جزء صغير مقدس ويكفينا ان نعرف ان الله كما خلق الطبيعة من العدم يمكنه ان يخرق نظامها والاَّ فليقولوا لنا كيف خرج المسيح من القبر والحجر عليه وكيف دخل العلية والابواب موصدة وكيف كانت اجزاء جسده بالنسبة الى اجزاء الحجر والخشب فكما كان هناك يكون جسده تحت اعراض الخبز والخمر وكما ان من خواص الجسم ان يشغل محلاً وان يكون ممتداً فهكذا من خواصهِ ان ينظر ان كان ما يقع عليه النظر وان يضي ان كان منيراً وان يهبط الى اسفل ان كان ثقيلاً وان يحرق ان كان محرقاً والحال ان الله يمكنه ان يصنع بل قد صنع فعلاً ان لا ينظر ما هو منظور كما فعل اذ اجتاز بين اليهود ولم ينظروه (لوقا ص ٤) وان لا يهبط الى اسفل ما هو ثقيل كما فعل اذ مشى على مياه البحر (متى ص ١٤) وان لا يضي ما هو منير فالشمس عند صلب المخلص اظلمت وان لا يحرق ما كان محرقاً كما فعل الله في اتون بابل وحينئذٍ لا يرفع الله عن النار مثلاً ذات النار

بل بوقف او برفع خاصة الاحراق عنها وهلمّ جرًّا في الباقي هذا ولنا في الطبيعة نفسها امثلة تيسر لنا فهم ذلك مثلاً نرى العين على صغرها تحوي مرأى مدن واحراش وغابات كاملة وكذلك نرى في المرآة فان كان هذا بقوة الطبيعة فكيف لايستطيع الله ان يصنع نظيره بالقوة الفائقة الطبيعة وكما كان جوهر الخبز في الخبز قبل التقديس يكون جوهر جسد المسيح تحت اعراض الخبز بعد تقديسه ويكون ممتدًا ولكن ليس امتدادًا خارجيًا بل داخليًا ولا يتحرك من مكان الى آخر الاّ بالعرض اي بحركة الاعراض الكائن جوهر جسده فيها كما تتحرك النفس بالعرض بحركة الجسد المحيية لهُ هذا ما يعترض بهِ من قبل العقل

يعترضون ثالثًا بان كلام مار يوحنا الانجيلي الذي اوردناه في ذكرنا وعد المخلص باعطاء جسده هو كلام مجازي والمراد بهِ تناول جسد المسيح بالايمان بهِ بشاهد قوله اخيرًا ان الروح هو الذي يحيي والجسد لا يفيد شيئًا ان الذي كلمتكم بهِ هو روح وحيوة. فنجيب اولاً بان المخلص صرّح كل التصريح بانهُ يعطي جسده ماكلاً حقًا ودمه مشربًا حقًا فكيف يسوغ لنا ان نفترض قوله ذلك مجازيًا وكيف يعمّي امرًا بينًا وهو الايمان بهِ باستعارات بعيدة مثل هذه ثم ان الاكل الروحي بالايمان لا يُفصل بهِ بين الماكل والمشرب كما ميز المسيح هنا بين جسده ودمه. ثانيًا ان مار يوحنا لم يتكلم عن عشاء المسيح السري كما ذكره باقي الانجيليين فان لم يكن كلامه في الايات التي اوردناها منه في هذا الشان بل كان

مجازيًّا فيكون اهمل الكلام في الاوخارستيا ومن يصدّق ان بنيين المسيح يصمت عن سر المحبة هذا . ثالثًا قدمنا ان اليهود والرسل فهموا كلامه بمعنى انهُ يعطيهم جسده حقيقة لياكلوه ولم يصلح افكارهم بل زاد ذلك تاكيدًا وامرًا وتهديدًا لهم بانهم ان لم ياكلوا جسده فليس لهم حيوة في ذاتهم ووعدًا لهم بانهم اذا تناولوه يحيون بهِ الى الابد فكيف يمكن حمل هذا على معنى مجازي . رابعًا انهُ قابل بين جسده والمن الذي اكله اباؤهم والمن كان ماكلاً حقيقيًا لامجازيًا فلو كان اراد معنى مجازيًا بتناول جسده ودمه لفسر ذلك على عادته لئلا يفضي الى التباس كبير في معرض يلزم بهِ التصريح . خامسًا ان استعارة اكل الجسد في اصطلاح الكتاب المقدس وفي اللغة السريانية التي تكلم بها المخلص لا يراد بها الايمان بل يراد بها الاهانة والمذمة والثلب . سادسًا ان المخلص قال جسدي الذي ساعطيه بلفظ الاستقبال فان كان المراد بالجسد الايمان فالايمان كان أُعطي حينئذٍ والمخلص كان انذر بنفسه مرات وآمن بهِ كثيرون فاذًا ليس كلام مار يوحنا المشار اليه الاَّ بالمعنى الحقيقي كما فهمتهُ الكنيسة من ذلك الوقت الى الان واما قوله ان الروح هو الذي يحيي والجسد لايفيد شيئًا ان الذي كلمتكم بهِ هو روح وحيوة فقد قدمنا تفسيره مسهبًا وابنا انهُ متسق في جملة كلامه السابق ولايخالفه في شيء

يعترضون رابعًا ان لفظة هو من قول المخلص هذا هو جسدي هذا هو دمي هي بمقام كلمة يعني او يفسر او يشير وقد وردت مرات في الكتاب المقدس بهذا المعنى منها قوله في الختان هذا هو عهدي

(تكوين ص ١٧ عد ١٠) اي ان الختان يشير الى عهد الله مع الاسرائيليين او يفسره ومنها قول يوسف الى فرعون والسبع بقرات الحسان والسبع سنابل السمان هنَّ سبع سنين خصباً (تكوين ص ٤١ عد ٢٦) اي تشير الى سبع سنين يكون الخصب فيها ومنها قوله في الخروج ص ١٢ عد ١١ لانهُ هو فصحٌ (اي اجتياز او مرور) للرب يعني ان الخروف الفصحي يشير او يفسر اجتياز الرب ومثل ذلك في العهد الجديد قول الرسول (قرنتية ١ ص ١٠ عد ٢١) والصخرة هي المسيح اي تشير الى المسيح وقول المخلص انا هو الباب وانا هو كرمة الحبوة مع انهُ ليس من قائل ان المخلص هو صخرة او باب او كرمة فاذاً كذلك قوله هذا هو جسدي هذا هو دمي اي ان هذا يشير الى جسدي او يفسر جسدي او يذكركم بجسدي

فاجيب اذا وجد الكلوينيون بعض ايات يمكن بها تفسير كلمة هو بكلمة يعني او يفسر او يشير فيمكن الكاثوليكيين ان يوردوا الوفاً من الايات تكون فيها لفظة هو بمعناها الحقيقي واذا فهمت بمعنى يشير او يفسر فيكون منها مناقضات ومستحيلات لا يسلم بها الاراطقة انفسهم مثلاً ذكر الانجيلي انهُ سمع من السماء صوت يقول عن المخلص هذا هو ابني الحبيب „ فهل يريدون تفسير هذه الاية بمعنى ان هذا يشير الى ابني الحبيب او انهُ صورة لهُ ومثله قول مار يوحنا والله هو الكلمة „ فهل يحتملون ان يكون المراد منه ان الله يشير الى الكلمة او يفسرها فاذاً من الضرورة ان تفهم كلمة هو بالمعنى الموضوعة لهُ او الحرفي الاَّ اذا وجد

تناقض ظاهر كما ان يكون المسيح صخرة او بابًا او دالية اي كرمة واذ
تقرّر ذلك فيسهل الجواب على الايات التي اوردوها فالختان ليس هو
نفس عهد الناس مع الله بل علامة او اشارة الى هذا العهد وكل يعلم
ذلك ولا محل للمخادعة او اللبس فيه كما يكون في قوله هذا هو جسدي
فاي معنى للقول خذوا فكلوا هذا هو علامة جسدي او اشارة اليه ومثل
ذلك ما اوردوه في الاية الثانية عن البقرات والسنابل فكلمة هو هناك
من الضرورة ان تكون بمعنى يعني او يفسر لانها واردة في تفسير حلم
ولان البقرات والسنابل لا يمكن ان تكون او ان تصير سني الخصب
فالمعنى نفسه لا يحتمل ذلك فهل كلمات المسيح هي حلم او مثل يفسر ليقال
ان كلمة هو فيها بمعنى يعني او يفسر ومثل ذلك قل في الخروف الفصحي
الذي كان ذكرًا لمرور الرب فالعبرانيون كان يتبادر الى فهمهم
بالضرورة ان كلمة هو فصح الرب معناها انه يشير الى مرور الرب في
ارض مصر ونجاتهم من عبوديتها واذا كان المخلص سمّى نفسه بابًا
او كرمة فمن الواضح ان ذلك بالمعنى المجازي ولا سبيل الى الغلط به
بخلاف قوله هذا هو جسدي هذا هو دمي والامر اوضح من ان يبين

يعترضون خامسًا بان المخلص قال لرسله اذ اعطاهم خبز
الاوخارستيا لياكلوه اصنعوا هذا لذكري والذكر لا يكون لحاضر بل
لغائب فاذًا المسيح ليس بحاضر في الاوخارستيا بل يلزم صنعها ذكرًا له
اي لتجديد الايمان به عند مناولة الاوخارستيا ولهذا قال الرسول (فرنتية ١
ص ١٠ عد ٣) «وكلهم اكلوا طعامًا واحدًا روحيًا وكلهم شربوا شرابًا

واحدًا روحيًا " اي لانهم جددوا الايمان بالمسيح المقبل كما نومن بهِ نحن انهُ اتى

فاجيب ان الذكر يكون ايضًا لما يتصوره العقل ولا تراه الحواس بل تحتاج الى تجديد الايمان بحضوره فان الله مثلاً هو حاضر في كل مكان ومع ذلك يقال ان الابرار يتذكرونه دائمًا مثلاً قوله في سفر طوبيا (ص ١ عد ١٣) "اذكر الرب في كل قلبك" وقول المرتل "وذكرهُ الى جيل الاجيال" فاذًا بكل صواب يُقال ان الافخارستيا ذكر للمسيح لان فيها المخلص حاضر حقيقة ولكن بنوع سري وغير منظور ويؤمر المومنون بتجديد ذكرهِ والايمان بهِ في هذا السر هذا وقد اجاد مار توما بملاحظته (في فرنتية ١ ص ١١) ان قوله اصنعوا هذا لذكري يلزم ان يفهم بهِ ذكر الام المسيح وموته كما قال مار بولس كلما اكلتم من هذا الخبز وشربتم من هذه الكاس تذكرون موت الرب فاذًا يكون ذلك الذكر لغائب وهو آلام المسيح وموته واما قول الرسول وكلهم اكلوا طعامًا واحدًا روحيًا الخ فقد فسره المعترضون سوء التفسير فالرسول لم يقل ان الاسرائيليين كلهم اكلوا نفس الطعام الروحي الذي ناكله نحن ولا انهم شربوا نفس الشراب الروحي الذي نشربه نحن لينتج من ذلك ان طعامنا وشرابنا روحيان ومجازيان فان بين طعامهم وطعامنا فرقًا كبيرًا ذكره المخلص نفسه بقوله اباؤكم اكلوا المن في البرية وماتوا هذا هو الخبز الذي نزل من السماء ومن اكله لا يموت والرسول يقابل لا بين المسيحيين والاسرائيليين بل بين بعض الاسرائيليين الذين

كان لهم الايمان في المسيح وبعضهم الاخر الذي لم يكن لهُ ولهذا قال اكلوا كلهم طعامًا واحدًا روحيًا اي المن وشربوا كلهم مشربًا واحدًا روحيًا وهو الماء الذي انفجر من الصخرة لكنهم لم يكونوا متساوين بالايمان وبارضاء الله كما اوضحه كلامه التابع "ولكن الله لم يسر باكثرهم فسقطوا في البرية وهذه صارت مثالاً لنا حتى لا نشتهي الشرور كما اشتهوا هم ولا نكون عبادًا للاوثان كما عبدها بعضهم ولا نزني ايضًا كما زنى بعضهم فسقط منهم في يوم واحد ثلاثة وعشرون الفًا ولا نجرب المسيح كما جربه بعضهم فابادتهم الحيات ولا تتذمروا كما تذمر بعضهم فهلكوا على يد المفسد"

واما اعتراضاتهم بقول مرقس (ص ١٦ عد ١٩) عن المسيح انهُ "صعد الى السماء وجلس عن يمين الله" وبما في الابركسيس (ص ٣ عد ٢١) وهو "الذي ينبغي للسماء ان تقبله الى الزمان الذي يسترد فيهِ كل شيء" (اي الى ان ياتي ليدين الاحياء والاموات) وقول مار بولس في كولوسايس (ص ٣ عد ١) "اطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس بيمين الله" وقول المخلص (متى ص ٢١ عد ١٦) "ان المساكين عندكم كل حين وانا لست عندكم كل حين" فاعتراضهم بهذه الايات لم يكن ليستحق جوابًا لانهُ مما لا يحتاج بيانًا ان الكلام في هذه الايات على وجود المسيح بجسده وفي حالته الطبيعية في السماء ولا يعود بهذه الصورة الى الارض قبل يوم الدينونة ولا يكون بالجسد بيننا دائمًا كما يكون المساكين وماذا يمنع هذا ان يكون بنوع غير

منظور وفائق الطبيعية وغير اعتيادي تحت اعراض الخبز والخمر المقدسة فكما تنبئنا الايات التي استشهدوها انهُ بحالتهِ الطبيعية في السماء هكذا ينبئنا قولهُ وقول رسله ان جسده في الاوخارستيا حقيقة بالنوع السرّي ولو كان الكاثوليكيون يعتقدون انهُ يترك السماء بحالتهِ الطبيعية ليكون في القربان المقدس لكان لاعتراضهم محل ولكننا نعتقد انهُ يبقى في السماء وبقوته الالهية يكون جسده ودمه حقيقة في الاوخارستيا

فاذًا قد اتضح اولادي الاعزاء ان في الاوخارستيا جسد المسيح ودمه حقيقة باثبات ذلك على وجه الاستقامة بايات الكتاب وتعليم الكنيسة الدائم في كل جيل وباثباته على غير الاستقامة برد جل ما يعترض بهِ الكلوينيون وباقي من يخالفوننا بهذه الحقيقة

القسم الثالث

وحيث ان جسد المخلص ودمه يوجدان حقيقة وصدقًا تحت اعراض الخبز والخمر بما ان المسيح حي فلهذا يوجد تحت كل من اعراض الخبز والخمر المسيح كاملاً وحيث ان المبدا اللاهوتي يعلم ان ما اتخذه الكلمة مرة لا يتركه ابدًا وان الاتحاد الاقنومي بين اللاهوت والناسوت هو غير منفك فيوجد مع جسد المسيح لاهوت الكلمة المتحد في الجسد ثم لاهوت الاب والروح القدس لوحدة الذات بين الاقانيم الالهية فاذًا من تناول القربان المقدس حل في فؤاده المسيح بناسوته ولاهوته

المتحد بالذات مع لاهوت الاب والروح القدس فهل من محبة اعظم
من هذه وهو ان الهًا يجعل نفسه ماكلاً لمخلوقاته فكم تستعظمون محبة
انسان لآخر اذا وهبه لا ماله بل نفسه ايضًا الامر الذي لم يصنعه احد
من البشر قط ومع هذا نرى مخلصنا لم يكتفِ بذبح نفسه على الصليب
لاجلنا بل اراد ايضًا ان نقتات بجسده ودمه . قرانا في التواريخ ان
امهات وآباء كثيرين ذبحوا اولادهم واكلوهم في مدة المجاعات ولم نقرأ ان
امًا او ابًا ذبح نفسه ليقيت اولاده تاملوا هل كان يمكن ان يخطر على فكر
احدٍ من الناس بان يطلب من صديق له ان يقطع له ساعده فقط
ليقتات به وهل تتصورون ان احد الاصدقاء يتصل الى هذا الحد من
المحبة حتى يجيب مثل هذا الطلب ومع هذا فما لا يمكن حدوثه عند
الناس قد صنعه الله دون طلب مقدمًا لا ساعده فقط بل جسده ونفسه
ولاهوته المتحد بالذات مع لاهوت الاب والروح القدس وليس لمحبيه فقط
بل لمن كان يعلم بسابق علمه انهُ سيكون لهُ مخالفًا وعدوًا ايضًا ويحتقر
محبته هذه وباقي نعمه فيالمحبة عظمى لا يمكن تصور مثلها بين محبات
الناس ولو بين ام واولادها او اب واولاده او اخوة فيما بينهم فاعظم ما
يصنع البشر انما هو اعطاء بعضهم بعضًا بعض ما يملكون او كله نادرًا
ولكن ليس منهم البتة من يعطي نفسه برمتها كما اعطانا المسيح جسده
ودمه لا ليخدمانا فقط بل لنقتات بهما ثم اعظم ما يصنع البشر انما هو
التقرب والسكنى معًا لفرط المحبة لكن المخلص لم يكتفِ بالتقرب الينا
والسكنى معنا بل اراد الاتحاد بنا اتحاد الاكل بالاكل فيالمحبة

لا تدرك

قرأنا في تواريخ الكتاب المقدس ان احشورش الملك صنع وليمة استمرت مائة وثمانين يومًا دعا اليها اعيان مملكته ومعتبريها فتخلد ذكرها ولكن ما هي وليمة احشورش بالنسبة الى وليمة ربنا فتلك صنعها احشورش من ماله لا من نفسه ولم يكن بها الا لحوم حيوانات وما اشبه من المآكل واما مائدة ربنا فلم تستمر مائة وثمانين يومًا فقط بل من ايامه الى الان وتدوم ما دام العالم وليس فيها لحوم الثيران او الضان بل لحمانه المقدسة ولم تكن لاعيان العالم بل لجميع سكانه قاطبة وعليه فلا تقاس محبة احشورش لعظما مملكته بشيء من محبة المخلص للناس قاطبة . لما اراد ناثان ان يعظم محبة اوريا لامراته امام داود الملك الذي اتخذها عبّر عن ذلك بنعجة لفقير قائلاً كانت تاكل من قصعته وتشرب من كاسه وتنام في حضنه وهذا في النوع البشري مبالغة في المحبة وما اسمى محبة المخلص عن هذه المحبة اذ لا يجعلنا ناكل من قصعته بل ان تاكل جسده ولا ان نشرب من كاسه بل ان نشرب كاس دمه ولا ان ننام في حضنه بل يحل بنا بناسوته ولاهوته مع لاهوت ابيه وروحه القدوس ويتخذ منزلاً في نفوسنا نعم اولادي ان قدرة الله غير متناهية الاّ انه على ما فيه من هذه القدرة ما عاد يقدر ان يحب البشر اكثر مما احبهم اذ ليس له اكثر من ذاته التي ضحاها على الصليب لاجلهم ثم قدمها لهم ليقتاتوا بها كلما شاؤا وهو القائل ليس حب اعظم من هذا وهو ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه ولم يبذله على الصليب فقط بل يبذله

لنا كلما شئنا باعطائه ايانا جسده ودمه لنتناوله ولو كنا في بعض اوقاتنا حتى لا اقول في اكثرها او كلها لسنا من احبائه بل من اعدائه

قد كان المرتل يقول من هو الانسان لتذكره وابن الانسان لتفتقده فكم الاولى بنا ان نقول من هو الانسان ربي لتطعمه جسدك وتسقيه دمك . وقد قالت اليصابات من انا لتاتي اليّ ام ربي وكان اتيانها انما هو للزيارة فكم الاولى بنا ان نقول من نحن ياربي لا لتاتي الينا فقط بل لتقيتنا بجسدك ودمك . ورد في الكتاب المقدس لا احد يرى الرب ويعيش وان الله ما راه احد قط وان الملائكة لا تجسر ان تنظر اليه فما اعظم حظ ابناء العهد الجديد الذين صار لهم الرب قوتًا يقتربون اليه بكل طمانينة ودالة وافراط محبته جعله يحجب نفسه تحت اعراض الخبز والخمر لئلا يمنع جلاله الالهي من يقترب اليه وبالجملة ماذا اقول ابنائي الاعزاء وكيف يمكنني ان اعبر عن عظمة محبة الله لنا بهذا السر المقدس فلست انا ولا الناس قاطبة ولا الملائكة ايضًا كفوًا للتعبير عن محبة مخلصنا لنا بابداع هذا السرّ المقدس

بل لا يمكني ان اعبّر بالكفاءة عن مقابلتنا هذه المحبة بالبغضة وهذا الاحسان بالاساءة بل اقول انه بمقدار عظمة محبة مخلصنا لنا بهذا السرّ وهي غير متناهية بمقدار ذلك تكون فظاعة كل اثم مميت نرتكبه خلافًا لاوامره المقدسة خاصة بما نجرم به الى جسد الرب ودمه اذا تناولناه دون استحقاق او دون الاستعداد والشكر اللازم لا شك انكم تعتقدون حقيقة سر الافخارستيا كما برهنتها وليس منكم من ينكرها

نظرياً البتة كما اعتقد في جميعكم ولكن كيف يوفق من ياثمون بين اعتقادهم هذا وبينما يرتكبونه من المآثم فمن كان يعلم علم اليقين ان الله احبه بهذا المقدار حتى اعطاه جسده ودمه ليكون مأكلاً ومشرباً له كيف يجسر ان يهين هذا الاله المحسن اليه واي احسان وما نفع هذا الاعتقاد اذا لم يكن يوثر في العمل فالابالسة ايضاً يعتقدون هذا انت تعتقد ان ابن الله ضحى بنفسه على الصليب لاجلك وصير جسده ودمه قوتاً لك وانت لا تريد ان تقمع جسدك قليلاً لترده عن اسخاط الله بالاثم واخص بالذكر الخطايا المضادة الطهارة التي هي اخص فضائل المخلص وفضيلة الملائكة والتي لا يعاين احد الله من دونها فالاثم المضاد لها قد فشا في هذا العصر في العالم وقد غرق الله بسببه العالم بطوفان ماء ايام نوح وانتقاماً منه غرق سكان صادوم وعامورا بطوفان نار واخشى بكل صواب ان يغرق الله ابناء هذا الجيل بطوفان دم يسفك في الحرب انتقاماً من هذه الخطية الدنسة فانت ايها الاثيم تعتقد ان ابن الله ياتي الى جسدك فيقيته بجسده ودمه ويجعله منزلاً له ولابيه وروحه القدوس فباية جسارة تدنس جسدك هذا منزل الله بالخطايا الدنسة او ما تعلمون ان اجسادكم هياكل للروح القدس كما يقول الرسول فكيف تنجسونها بالمآثم التي لاترتكب خارج الجسد بل بالجسد نفسه وباية قباحة تاخذ عضو المسيح وتجعله عضواً للدنس وكيف تطرد المسيح من بيت نفسك الذي اتخذه منزلاً لتنزل مكانه ابليس والمحبة الدنسة وتخسر نفسك النعم التي اكسبك اياها بموته وبجسده ودمه

وتعطل استحقاقاته وتبطل غايته المقدسة التي هي تقديسك وتطهيرك وتعدم نفسك الحيوة الابدية التي وعد بها من يتناول جسده ودمه ولماذا تتمتع بلذة عابرة لا تدوم الا وقتًا وجيزًا وتطلق عنان نفسك الى ما تشتهي فما هذه الجسارة بل ما هذه الحماقة والجنون الذي حتى الان لا تنتبه اليه ولا الى ما تفعله بهِ ولا الى ما يبلغك اليه فبكل استحقاق خلق الله للاثمة جهنم وجعلها ابدية لانهُ احب البشر محبة غير متناهية فيبادونه هم باثام شرها غير متناهٍ ويفضلون عليه شيئًا دنسًا قذرًا يستحى بذكره ايضًا او شيئًا حقيرًا عابرًا لا يجديهم نفعًا حقيقيًا مع انهُ تكرم عليهم بذاته المقدسة نفسها فيستلزم ان يكون عقاب غير متناهٍ فانتبهوا انتبهوا اولادي الى عظمة محبة المخلص لنا خاصة باعطائنا جسده ودمه والى مزيد فظاعة ما نرتكبه من الاثم الذي يهينه اهانة غير متناهية ويخسرنا خسارة غير متناهية ويوقعنا في عقاب غير متناهٍ ولنصلح نفوسنا دون تاخران وجدناها على شيء من انكار الجميل نحو فادينا او على اثم مميت لنستحق المجد الخالد والحيوة الابدية الموعود بها من تناول جسد الرب ودمه باستحقاق وننجو من العذاب الابدي المعد للمخالفين بنعمة الاب الخ



اصلاح غلط

وجه	سطر	خطا	صواب
١٧	٨	ام سائر	ام من سائر
٣١	١٤	لعمل	على عمل
٣٢	٩	فستصدر	فتصدر
٣٣	٤	اجحف	اجحف
٣٨	٥	ويلتجئون	ويلتجئوا
٤٢	٧	فاعتقادنا	فاعتقادنا
٤٨	٣٠	ذلك الايات	ذلك من الايات
٥٢	٤	على من	عمّن
٦١	٨	حنظنها	حنظها
..	١٣	باطل	باطن
٦٩	١٩	يوقونهم	يقونهم
١٠١	٥	لجيعهم	لجميعهم
١٠٦	١	به	اليه
١١١	٤	للقديس	القديس

وجه	سطر	خطا	صواب
١١٦	٢	ما ان	ان ما
١٢٦	٣	نحنن	أتحنن
١٢٩	١	وآلهذا	اولهذا
١٣٢	١٦	او لرد نظارة	او نظارة
١٦٣	١٤	انهُ	ان
١٦٩	١٤	لقولنا	بقولنا
١٨٠	١٥	يموت	بموت
٢١٦	١١	استحاق	استحقاق





